

أصدقاء ناجي نعمان

Les amis de naji Naaman
los amigos de naji naaman
naji naaman's friends

جان كميد

جولات

في آفاق الفكر والأدب

دار نعمان للثقافة

الجزء الأول
فِكْرٌ وَأَبْحَاثٌ

لبنانُ والفكر

معدّلة عن مقال نُشر في جريدة "الأنوار".

الفكر.. منبع الحضارة ومُسْتَقَرُّها. منه ينطلق التّصوُّر الممهّد للإنجاز، وفيه يتمُّ تخيُّل السبيل إلى التحقيق، ويجري عمل وسائل التنفيذ بعد ذلك طائِعًا. والفكر، بمعنى الملكة الواعية في الإنسان، هو متّجه كلّ تجلّيات الإبداع؛ وحده مَنْ يفقّهما، وينذوقها ويقيّمها، وبدونه لا معنى لها ولا فائدة. فلمَنْ كلّ ما في هذا العالم من نتاج العبقريّات إن لم يكن موجّهًا إلى مَنْ يشعر بوجود هذا العطاء، ويفهمه، ويقدر قيمته ويستفيد منه؟

إنّه الزّارع والجاني، ناصب الغرسة وقاطف الثمرة. هو المنبع والمصبّ، المولّد والمستوعب؛ يخلق، ما عدا الطبيعة، كلّ شيء، ويحيط، بجولة أفق، بكلّ ما حوالیه، وبكلّ ما يصل إليه علمه. إنّه الأصل والهدف، منه المصدر وإليه المعاد.

ولبنان، في عالم الفكر، ما هذّ لا مجرد مشارك. فكلُّ أدوات التواصل والتفاهم بين الأفراد والجماعات عبر قلمٍ وورقة جاءت من تمثّل الفكر اللّبنانيّ لحروفٍ تتوف على العشرين عدّا طابقتها على مخارج النطق في الفم وجعلها تحتضن كلّ ما يجول في الرأس ويطوف على اللسان. ويميناّ إنّ هذا الجائل والطائف هو بحجم العلوم كلّها، والفنون، والمعارف، والوقائع، والأحاسيس، والخلجات، وكلّ ما يخطر ببالٍ أو يُلمّ بشعور.

وما نشهده اليوم، في عالمنا الحديث المتطوّر، من إتقانٍ وضخامة في حقل المواصلات البحرية يجد بدايته في ذلك القارب الخشبيّ الذي تراءى، في عهدِ

من عهود طفولة التاريخ، لبصيرة الإنسان اللبناني.. وانطلق من ذلك الميناء الطبيعي الصغير في طبرجا فكان أول مركب عائم يجري على سطح الماء. لبنان، تبعاً لذلك، مؤكّل بالفكر وحامل لتبعته، ومكلف رعايته على مرّ الزمن. وإنّا لنرى أنّ إيجاد صيغة لجمع كلّ من يُعنُون بالأعمال الذهنيّة عندنا في مؤسّسة واحدة هو أمرٌ حتميٌّ، لأنّ لبنان سجّل استجابةً متواصلةً للدعوة التي وجد نفسه مدعوّاً إليها منذ أن تفتّق فكرٌ في دماغ الإنسان اللبنانيّ الأول، وعلينا أن نهتدي إلى هذه الصيغة في وقتنا الحاضر إذا كانت قد غفلت عنها الأزمنة السابقة.

فأن تقوم محاولة لحشد الطاقات الفكرية في لبنان وتوجيهها نحو ما يخدم رسالة لبنان الحضارية هو واجب المؤتمنين على وديعة الفكر في هذا البلد الذي تكاد الأمواج المتلاطمة فيه ومن حوله أن تنثية به عن رسالته هذه وتجعله مؤثلاً لكلّ شيءٍ إلّا للفكر والحضارة وعناصر السموّ بالكائن البشريّ.

لقد كادت النزعة إلى تجزئة النشاطات الفكرية بحسب الاختصاص أن تحوّلنا عن إدراك حقيقةً بديهيةً وهي أنّ كلّ النشاطات العلمية والفكرية والفنية تلتقي على أمرٍ واحدٍ هو إغناء الشخصية وصقلها، على تكوين إنسانٍ جديدٍ من ذاك الذي ولدته أمّه خاماً يحتاج إلى الاكتساب من المجتمع ليولد ولادةً ثانيةً يتغيّر فيها من الألف إلى الياء. فكانت الهيئات التي تتألّف في هذا النطاق تنقسم إلى جمعياتٍ علميةٍ ورابطاتٍ أدبيةٍ أو فنيةٍ أو مثيلاتها في حقول القانون والتاريخ والتربية وما إلى ذلك، ولم يتبادر إلى ذهن أحدٍ وجوب جمع المشتغلين بلعبة العقل في هيئةٍ واحدةٍ وتجنيدهم لتحقيق غايتهم المثلى وهي تجويد قماشتهم البشرية وإثرائها معنوياً، أي، بعبارةٍ أوضح، السعي إلى تكاملهم عقلياً وروحياً. من هذا المنطلق نوجّه النداء إلى جميع من عنيانهم، إلى جميع ذوي المستوى العالي من رجالنا ونسائنا، من بلغ بهم العلم أو الموهبة درجةً رفيعةً من الرقيّ العقليّ والتميز، إلى الانضواء في حركةٍ تهدف إلى استغلال طاقاتهم الفكرية في

خدمة تعميم هذا المستوى على الآخرين، وفي خدمة متابعة سير أصحاب الطاقات هؤلاء على طريق التكامل بما هو سعي دائم لا يُبلَّغ منه وطراً نهائياً لأنه، كالمعرفة المطلقة، والكمال الأكمل، مثال أعلى لا يُدرك وإنما الفضل يقوم على محاولة الاقتراب منه أكثر فأكثر.

كما أن العمل يجب أن ينصب أيضاً على جعل الثقافة تتجاوز عقل صاحبها لتمازج دمه، بمعنى طبع الإنسان بطابع الشخصية المثقفة، فلا تبقى المعرفة لديه كناية عن اختزان معلومات، بل يكون لها أثرها في تبلور شخصيته وتطبيعها بحيث تصبح كل ردود فعله صادرة عن مفعول الثقافة في نفسه.

هذا بالنسبة إلى الإنسان بوجه عام، أما في ما يتعلق بالإنسان اللبناني خصوصاً فينبغي المبادرة إلى إنجاز العمل الصعب.. الرامي إلى تنقية النفس اللبنانية من العُقد والرواسب والشوائب التي خلفتها الحرب فيها.. بهدف إعادة خلق الإنسان اللبناني المتوازن، المليء من ذاته، مع العناية بالتقاليد اللبنانية التي لصقت بأجيالنا بالتوارث، للمحافظة على الصالح منها، وما أكثره، ونبذ المتخلف والعشائري.

إن هيئة من هذا الطراز ستكون قيماً على الفكر في لبنان، فعليها إذا أن تدفع إلى الإنتاج الفكري في مختلف حقوله، ومتى قلنا الفكر قلنا الفن أيضاً، لأن الإبداع كله صنيع عقلي ولو شكّلت العاطفة حافزاً إلى بعضه ودافعاً.

وسيكون منها كذلك اشتغال بالتراث.. إظهاراً لما للبنان من فضل على الحضارة، وإبرازاً لما ينطوي عليه التراث الفكري اللبناني من عناصر إنسانية كانت بذوراً للتيارات التي نادت بالحرية والعدالة والمساواة والإخاء.

ولا يحصل ذلك دون التوفر على هذا التراث دراسةً واستجلاءً، بغرض فهمه على حقيقته لتقديمه نموذجاً يستوحي منه العاملون المخلصون على حلّ المشكلات العالمية القائمة وإرساء الدول والشعوب على أسس الحق والعدل والسلام.

أما الطموح الأبعد فإلى أن يكون ما نضيفه إلى تراثنا وتضيفه أجيال المستقبل
 من بيننا أروع مما خلفه لنا الأجداد على جلال هذا الأخير، وإلى أن نظل نؤدّي
 قسطنا للحضارة بما يحفظ لنا دورنا كروادٍ طليعيين سائرين دوماً في مقدّمة
 الرّكب، فأقلّ من ذلك لا نرضى لأنفسنا وللبنان.

المحبة والنور الكاشف الظلمات

مقدمة كتاب بالفرنسية للسيدة سندي ملكي.

هذا أبو حامد الغزالي يعود إلينا بثوب امرأة، وبطرازٍ عصريّ. فقد راوح ما بين إيمانٍ موروث، وشكٍّ فرى نفسه قريباً ولم يسعفه العقل في الخروج منه، إلى أن أنارت بصيرته إشراقةً من داخل، فتجلّى له ما كان يبحث عنه على هدي الفكر دون جدوى، وكأنّه الوحي أتاه همساً في باطنه لا سمعاً بأذنيه، وإذا الحق في جيبه إذا استعرنا تعبير الصوفيّين، وطوبى لمن خصّته النعمة بالهداية والمعرفة حين يتخبّط الباحثون عنهما على ضوء بصيص العقل الشاحب، الذي يكاد لا يكشف من الظلمة حتى أقربها إلى فتيله.

أهو الحدس الذي تكلم عنه برغسون وفسّره بأنّه إدراكٌ تويّ للحقيقة دون إعمال الفكر؟ لا، إنّ صاحبة هذا الكتاب أنتها الحقيقة تبعاً على يد مرشدٍ أوفدته لها العناية، ولكنّ المبدأ الأوّل الذي صدرت عنه كلّ التفاصيل والأمثلة المسوقة في صفحاته توهّج دفعةً واحدة، ذلك هو الحبُّ الذي اشتعل في نفسها، أو هو المحبة إذا حصرنا معنى التعبير الأوّل بأنّه يفيد العشق والهوى.

حتّى إذا اقتربنا من الواقع وأزحنا "المرشد" ككائنٍ حقيقيٍّ جانباً مدركين أنّه ليس سوى صوتٍ هتف في ضمير الكاتبة.. عدنا إلى أنّ الحقيقة تجلّت لها بكمالها في لحظةٍ مباركة من الزمن، فجزّأتها هي من أجل القارئ لتزفّها إليه بكلّ منطوياتها، أي بكلّ ما في تضاعيف المحبة من المعاني والدقائق، وبكلّ ما تستنبعه من التغيّر في جوهر النفس، ومن الموجبات والإلزامات على الصّعيد العمليّ.

لا، لم يكن هناك ملائكة جالسين وأنارَ بصيرتها بمواعظه وإرشاداته، على مثال ذلك الملاك الذي هدى المجوس إلى المغارة، أو ذلك الذي ظهر للفيلسوف اللاهوتي على صورة طفل ينقل البحر ليصبّه في حفرة صغيرة، مجيباً الفيلسوف الذي حمل ذلك على محمل العقل الطفولي بأنّ استيعاب هذه الحفرة للبحر أهون من الوصول إلى حقيقة الله عن طريق المنطق والبرهان.

كذلك لم تسمع المؤلفة صوتاً من الغيب كالذي سمعه شاوول، فحوّله من مضطهدٍ لأتباع الدين الجديد إلى رأس الدّعاة للمسيح، أو صوتاً كذاك الذي جلجل في غار حراء هاتفاً بالنبيّ العربيّ أن "اقرأ باسم ربك الذي خلق" ثم أفاض عليه بالآيات، بل انكشف ذلك لبصيرتها كأنه إلهام من الروح القدس الذي ينير من داخل.. ويكشف للبصيرة لا للبصر والحواس.

إنّ "جبريل" سندي ملكي نبت من أعماقها، فكانت هي المتكلّم والسّامع، المرشد والمسترشد، الهادي والمهديّ. أعجوبة هي؟ أجل، إنّها أعجوبة النفس الزاخرة بطاقة لم تعرف في البدء كيف تستهلكها، فظلت هذه الطّاقة تجول في باطنها باحثة عن منفذٍ، وجاءها المخاض عندما أوفى الجنين على النضوج في أحشائها. فكانت الولادة، وكان المولود هو المحبة الشّاملة، تلك التي لا تستثني أحداً. ففي المحبة نقاء طينة الإنسان، وصفاء معدنه وارتقاء طبيعته. في المحبة، إذ تعمر بها النفس، يُعاد صنع الإنسان، يُخلَق من جديد.. لا من تراب هذه المرّة.. بل من أنبل عنصرٍ ممّا أوجد الله في الكون. وهكذا يأتي "آدم الثاني" خلاف سلفه بما فيه من عقْدٍ ورواسبٍ وعكْرٍ في تركيبه، يأتي وكأنّه، في حياته الدنيا، قد لبس الجسد النورانيّ الموعودة به الأرواح الباردة في حياة الخلد، فلا تجنح به شهوة، ولا يكبو به ضعف ولا يسقط أمام تجربة، وما حاجته إذذاك إلى ملائكة يهديه وقد أصبح هو ملائكة؟

هكذا كانت صاحبة هذا الكتاب ملائكة لنفسها: إتّقدت فيها جذوة المحبة، فصعدتها إلى ربّها وغمرت بها عالمها. وكما كانت ملائكة لنفسها كانت أيضاً، عبر

كتابها، ملاكاً لقارئيه، تضییء جوانب نفوسهم بشعلة المحبة، وتصهرهم بحرارتها خلقاً جديداً على مثال ما جرى لها.

والمحبة، في عرفها، هي النور الأرضي الذي نبصر به النور السماوي، هذا الذي هو ذاته محبة. وطالما قيل إنَّ الله محبة، كما قيل إنه الحق المطلق، والخير المطلق والجمال المطلق، أي المثال الأعلى لهذه الصفات كما في نظرية المثل عند أفلاطون، فرفعت بذلك قيم الحق والخير والجمال إلى مرتبة الصفات الإلهية، ومنها انبثقت سائر القيم: العدل، وهو من قيم الحق، والفضيلة، وهي من قيم الخير، والفن، وهو من قيم الجمال. أمّا هي فالمحبة والنور مندغمان عندها: الله هو المشكاة العظمى، والكون وليد فيض محبته. ولا أريد أن أرى الكاتبة، كما قد نستشُم من كلامها، قائلةً بوحدة الوجود، هذا المذهب الذي يوحد ما بين الخالق والمخلوق، إذ ليس للجوهر والعرض أن يكونا واحداً. كما لا أتمنى أن أراها واحدةً في تسامي النفس الإنسانية وكمالها البشري ما يجعلها صنواً لله. فالكمال البشري نسبي والكمال الإلهي لامتناه، وليس الله مجرد قمة في هرم الوجود تتدرج بعده الكائنات نزولاً، وتُصنّف بعضها بالنسبة إلى البعض بمقدار قربها منه أو بُعدها عنه في التدرج الهرمي، إذ، طبعاً، ليس هناك من مسافة قياسية بين المحدود واللامحدود. وقد بلغ بعض الفلاسفة في الشطط ما جعله يعتبر عودة الروح البشرية إلى أحضان خالقها اتحاداً بالله وفناءً فيه.. بحيث تصبح جزءاً منه، ممّا هو جدير بأن يُدرج في خانة المجاز الشعري لا في خانة التفكير الفلسفي.

ذلك ما وُصف لدى أصحابه بالحبّ الروحاني. يقول الأستاذ خليل هنداي: "غاية الحبّ الروحاني في الصور الطبيعية هو الاتحاد، ومعنى الاتحاد في الصوفية أن تصير ذات المحبوب عين ذات المحب، وذات المحب عين ذات المحبوب، وهو الذي تشير إليه الحلولية. وإلى هذا يُعزى إفراط الحلوليين القائلين باتحاد نفوسهم بنفس الله، لأنّ المذهب الروحاني يخول لهم ذلك".

ولنلاحظ لدى الكاتب عبارة "إفراط الحلويين"، التي تعني ما أشرت إليه بتعبير "الشطط" الذي يجعل المُحبّ، في المذهب الروحانيّ والفلسفة الحلويّة، يُحبُّ نفسه في حُبِّه لله، ويعبد نفسه في عبادته.

ما أتمناه في الختام، وأنا أهنيّ سندي بكتابها وبهذا المستوى من الرقيّ الروحيّ الذي بلغت إليه، ألاّ يكون في مرحلتها الحاليّة من الاتجاه الفكريّ والحال الروحيّة ما يجعلها تتصوّر أنّها تتنافى مع مراحل حياتها السابقة التي ينبغي عليها، بالتّالي، أن تتنكّر لها وتغفلها أو تتساها.

فلكلّ مرحلة من مراحل الحياة سِمَتُها الخاصّة، والأدب الناشئ عنها الذي ينطبق عليها ويصوّرّها. ولست أشكّ في أنّ الحقبة من العمر التي مرّت بها سندي قبل أن ترسو على "ملائكتيتها" الحاضرة هي حقبة غنيّة بالتجارب الحياتيّة وقد أطلعت أدباً غنياً على شاكلتها. ومحاولة طيّ هذا الأدب وعدم إظهاره إلى النور، بفعل حالة نفسيّة معيّنة تغمر صاحبتّه الآن، يقع في دائرة الحرام الذي تحاول سندي الابتعاد عنه. وعليه، فإنّي آمل منها أن تعتبر هذه الدرجة السّامية التي ارتفعت إليها في تفكيرها وشعورها من نوع التطوّر بالنسبة إلى الماضي لا من نوع الانقلاب عليه، فهكذا تكون قد جمعت المجدّين: مجد الماضي الغنيّ ومجد الحاضر الأغنى، وطوبى لها في الحالين.

نحنُ في جنة مريم

تعليق على كتاب "في جنة مريم" للأستاذ جورج مغماس، نُشر في جريدة "الأنوار" - ١٩٩٧.

إذا كان الجمال، في تجلياته المختلفة، هو أكبر مصادر الإلهام للشعراء فلم لا يكون الطهر والنقاء، وهما، في معرض الجمال، من أسنى آياته، ملهمين لهم؟ لم لا يكون صفاء النفس، والبراءة حتى الخلو من كل عيب، وعفة الجسد البالغة مبلغاً يردعنا حتى عن مجرد التفكير فيه بسوء، منبع وحي للروائع من مولّدات الشعر والنثر؟ أَوْحَتْ عَلَيْنَا أَلَا نَرَى فِي الْمَرْأَةِ غَيْرَ مَوْضُوعٍ لِلْحُبِّ وَالتَّغْزَلِ، وَنَغْفَلَ عَنْ أَنْ نَرَى فِيهَا، عِبْرَ نَمَازِجٍ خَارقَةٍ قَدَّمَهَا لَنَا التَّارِيخُ، تَجَسُّدًا لِلْمَحَبَّةِ بَدِيلًا مِنَ الْحُبِّ، وَلِلْقَدَاسَةِ فَاقَتْ كُلَّ تَصَوُّرٍ.. وَتَخَطَّتْ، فِي تَسَامِيهَا، قُدْرَةَ الْإِنْسَانِ؟

لنستعرض، في الأدب الهندي مثلاً، كيف كانت صورة المرأة الخالية من كل شائبة، والمُعَدَّة لِيُولَدَ مِنْهَا بُوذا "مَخْلَصَ الْعَالَمِ أَجْمَعَ مِنَ الْقَلْقِ وَالْاضْطِرَابِ وَالشَّكِّ، وَمَنْقِذَ الْمُتَأَلِّمِينَ مِنْ بَحْرِ الظُّلُمَاتِ وَالْعَذَابِ":

"كَانَ فِي كَابِيَلَا مَلِكٌ عَظِيمٌ مُحْتَرَمٌ، وَكَانَ يَلْقَبُ نَفْسَهُ غَوْتَامَا، وَأَمَّا اسْمُهُ فَهُوَ شُودَهُو دَانَا أَوْ الْعَنْصَرُ الطَّيِّبُ. وَكَانَ لَهُ امْرَأَةٌ تُدْعَى مَابَا دَافِي خَارقَةُ الْبَهَاءِ، فَائِقَةُ الْجَمَالِ، تَحْكِي زَنْبَقَةَ الْمَاءِ طَهَارَةَ فِكْرٍ، وَزَهْرَةَ اللُّوتُسِ نِقَاءً. إِنَّهَا مَلِكَةُ السَّمَاءِ نَزَلَتْ لِتَسْكُنَ الْأَرْضَ، وَهِيَ بَرِيئَةٌ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَدَنَسٍ".

مثل هذه "الملكة" كم ينبغي أن تكون أَوْحَتْ لِلشَّعْرَاءِ فِي آدَابِ الشَّرْقِ الْقَصِيٍّ؟ وَهَلْ "رَبَاتُ الْحِجَالِ"، وَ"ذَوَاتُ الْحُسْنِ وَالِدَالِ"، أَكْثَرُ مِنْهَا إِيحَاءً لِلْأَعْيُنِ الَّتِي تَعْرِفُ أَنْ تَسْتَجْلِيَ آيَاتِ الْجَمَالِ فِي مَكَامِنِهَا غَيْرِ الْبَادِيَةِ لِجَمِيعِ الْأَنْظَارِ..

وتعكسها شعراً يفوق كل ما فاضت به القرائح المبهورة بمفاتيح الجسد، ومشيق القوام، وسحر العيون، وتدبيل الجفون؟
أمامنا "مريميات بأقلام من لبنان": شعر، ومقطوعات أدبية، وميلودراما وأقاصيص استمدتها هذه الأقلام من وحي ذلك الجمال الآخر: جمال الطهارة، والوداعة، والعفة، وملائكية الروح المتعالية على كل ضعف بشري لمعانقة أرفع درجات الكمال.

هذه النفثات الغوالي جمعها، وأضاف عليها الكثير من دفق بنانه، الأديب جورج مغامس، فجاءت كتاباً عنوانه "في جنة مريم"، تلك العذراء "الكلية القداسة والفائقة البتولية"، مليكة السماء والأرض، التي ننظر إلى صورتها، وهي ما هي بهاء طلعة، فإذا فيض جمال روحها يطغى على كل ملاحه في الوجه أبدعتها مخيلة الفنانين، وجسدتها الريشة أو الإزميل.

قبل هذه المجموعة من "الأدب المريمي" لم نعرف، في التراث العربي، شيئاً من هذا القبيل، على كون الشعر الديني، والمسيحي بالذات، موفوراً في أدبنا القديم فضلاً عن أدب العصر. بلى، هناك كتاب مواعظ محورها العذراء مريم، ربّما يعود إلى ما قبل طلائع عصر النهضة أو إلى أوائلها، اسمه "تراجم الأعياد السيديّة" لابن الحديثي المعروف بأبي الحليم، وقد جرى فيه مجرى الأسلوب التقليدي في كتابة النثر العربي أي أسلوب السجع، وما خلا ذلك فعموميات من الشعر والنثر الديني المسيحي عرفها الأدب العربي القديم، وقد استعرضها الأب فيليب صغيبي، المرسل اللبناني، في مقدمته المطولة لديوانه الشعري، التي جاءت لمحة عن الشعر الديني في الآداب العالمية عبر العصور.

ماذا الآن، من وحي مريم، في "جنتها"، كتاب جورج مغامس؟
جمال مريم، ذلك الجمال ذو الشكل الآخر، الذي يعطي مفهوماً للجمال غير المفهوم المتداول، يظهر لنا من خلال قصيدة شوقي بزيغ: "استنبت من طين

الأنوثة ما يعيد الأرض أظهر من دموع الأمّهات، وحين فاجأني الملاك جعلت من جسدي ضريحي، ومحوته حتى غدا زينا تطهر فيه أمواج الخليفة نفسها". هذا الجسد، الذي يتسع طهره لتطهير أمواج الخليفة كلها، والذي هو أظهر من أظهر ما في الأرض: دموع الأمّهات، أو أجمل منه جسد مهما تألق شكلاً وحسنً تكويناً؟

ومن فؤاد الخشن:

إن عرا الحُسن بلبنان الذبول فاستقيه من وجه مريم

فلبنان، مجلى روعة الطبيعة على هذه الكرة الأرضية، يكفي إشعاع وجه مريم ليكسوه مجدداً بالحسن إذا صدف أن بهت حسنه أو تغضنت سيماءه. ومريم، في قصيدة ديزره سقال، جسد من نور، يحول الأجساد عطراً وعبيراً زهور. إنه لون الفرحة الآتي من الفردوس، وعشق الروح المتجلي في كل الأشياء.

من ديزره سقال نتعلم كيف يسمو الافتتان بجمال الجسد حتى إلى أرفع من الحب العذري الذي نعتبره المثال الأعلى في التعفف، وكيف يكون التغني بهذا الجمال شعراً نوعاً من "الغزل الإلهي" الذي نعرفه في شعر الصوفيّين، على كون هذا الأخير يكاد يوحي لنا في أوصافه بأنه غزل "أرضي" كثيراً لا إلهي، لأنه يعبر عن عشقه للذات الإلهية كما يعبر مدنف موله عن حبه لمعشوقته. ولدى جورج غانم زهرة السماء هي مريم، ولؤلؤة النور ونجمة الملائكة، فالسماء لا يكتمل بهاؤها إذا لم ترصعها مريم مشكولة زهرة على أديمها. والطفل العاري، لدى جورج غانم أيضاً، يلبس من ثياب مريم ليوم العيد. ولا عجب، ثيابها تكسو جميع أطفال الأرض العراة، وكلمة من فمها تشبع كل الجياع.

وعند يونس الإبن ليست العذراء نوراً، بل هي نور النور، فكأنه يريد أن يقول إنها النور المستقطر المصفى. أمّا عند جوزف أبي ضاهر فهي الفرحة الأزلي،

تتساقط النجوم على كفيها فتحمل الكواكب باليدين، ويا لها نيراتٍ عند ذاك هنّ الوصيفات لتلك المنارة الألفة، ملكة النور الأبهى، والسناء الأسطع.

وفي "قصائد" رياض فاخوري "الصغيرة" نرى أنّ مريم "خرجت من شقّ الفجر"، وقد طالما كنّا، بتعابيرنا الشعبيّة، نصف الصبيّة البيضاء الناصعة في بشرتها كما في بياض قلبها وصفحة نفسها بأنّها "مثل قلب الصّباح"... و"شقّ الفجر" هنا هو البديل من "قلب الصّباح".. رامزاً إلى تلك البكارة الخارجة من رحم الضوء في أوّل انبلاجِه، عندما كان بكرّاً لم تعكّره أمواج الخلق في كبد النهار.

كلّ هذه الأمثلة من الكتاب، مشفوعةً بتعليقاتنا الإيضاحيّة، كانت لإظهار مدى القدرة، في الشّعْر أو في الكتابة الفنّيّة، على رفع الجمال الأنثويّ إلى مرتبة تُبعده كلّ البعد عن أن يكون مثاراً لأحاسيسنا الطبعيّة التي يثيرها فينا الجمال إذ هو في حدوده العاديّة دون تلك المرتبة العليّة، فنسمو عندئذٍ في وصفه إلى ما فوق المعهود، ويغدو تغنيّاً به صلاةً وتسبيحاً، لا غزلاً وتشبيهاً.

فالعذراء السّمراء، مثلاً، التي يوحى نعت السّمرة الملحق باسمها أنّ الشّعْر الموجّه إليها سيتناولها إطلالةً وجه، وحرارة عاطفة اشتّهرت عن السمرات، وما إلى ذلك من تعابير الإعجاب بسمرة ناريّة ووسامة، ووصف وقع سحرها في نفس الشّاعر حتّى تحرّكت لديه نحوها مشاعر العشق والهيّام، نرى، على العكس، أنّ قصيدة "العذراء السّمراء" لجورج مغامس تطرق الموضوع من وجهة مختلفة: "عاشقٌ أنا، مراوحي العصفُ على الأفراس، والألى، قبليّ وبعديّ، بعضُ نبراسي. في الغد.. لي غدٌ، غدُ العلياء من حرّاسي. الوحيّ كلّمني، ألواحه دروبي وأقواسي. عذراءُ من عندها اقلامي وقرطاسي".

ويتابع: "إنّ لي عذراءَ سمراءَ، بيتها بيتي، مصلاي، سُراي في الإدلاج. بين يديها، في بحرة عينيها، ألقيتُ مرساتي. منها وإليها، وهي أناتي، حصنُ حياتي، جسرُ فوزي ومنجاتي".

أما جمالها، تلك العذراء السمراء، فوصفه يأتي على هذا الشكل: "وردةً بهيئة، نقيّة مثل نبع وغابة، مثل خمر، مثل قمح وأقمار. فوح عطر، بوخ شعر. هواها الشوق في أسفاري، مرايا الوحي في أقداري".

يلفتنا، في هذه المقاطع، التركيز في جمال الموصوفة على النقاء، أي على جمال نخشع أمامه بدلاً من أن يبعث فينا الرغبات، وعلى أن بهاءها هو بهاء الوردة التي لا بد أن يتورّع المأخوذ بنضارتها عن نتف وريقاتها (أي عن تلك حرمة طهرها وتلويث نصاعة براءتها). وهي بوصلة الطهر، أي المؤشر إلى سلوك دروبه، والرحمة الداعية إلى توبة وإياب لحضن الله. وهي، أخيراً، العزاء والرجاء، في ميناء عينها يلقي الإنسان مرساته لأنها نهاية المطاف، ويدخل بيتها ليجده هيكلاً صلاة لا أكثر.

هكذا يحصل التحول في نفس العاشق.. ضمن عملية سيكولوجية تسمى "الإعلاء" (sublimation) في علم النفس، فإذا الميل الغريزي إلى العلاقة الأساسية التي هي علاقة ذكر بأنثى يتحول إلى تعلق من نوع آخر، أشبه بالتعلق بقضية سامية، بفكرة نبيلة، بمثل أعلى، بالوطن أو بعقيدة، أو برموز الحق والعدل والخير، وهي الطريقة التي أوجدها علم النفس حلاً لتوجيه الغرائز الطبيعية من وجهتها الشريرة أو السيئة أصلاً إلى وجهات سليمة طيبة، فيتحول، مثلاً، حبّ تأكيد الذات وإظهارها من التعالي على الغير، ومحاولة التفوق عليه بالسيطرة والإخضاع، إلى الأعمال المبرورة من اجتماعية وإنسانية، أو إلى البروز في عالم الفكر والفن، أو إلى الزعامة وقيادة الجماهير.. ولكن لتحقيق غايات جليلة وشريفة، وهكذا بالنسبة إلى جميع الغرائز وتحولاتها.

وتبقى العذراء مريم، عبر الصورة الفائقة الوصف طهارة وقداثة المرسومة عنها في العقول والأذهان، دافعاً تلقائياً إلى التحول في المشاعر إزاءها، فتتقى النفوس من أدرانها بمجرد النظر إليها أو التفكير بها، وينقل طهرها وقداستها بذلك إلى العالمين.

عظمة الفكرة وعبقريّة المصلح

نُشرت في كتاب "آراء بمؤسس العقيدة الداهشيّة"، دار النسر المحلّق للطباعة والنشر - بيروت ١٩٧٩.

أقبحُ ما في هذه البشريّة أنّها وشاح ظلمة متواصل.. لولا ومضات متقطّعة من الرّوحانيّة تلوح من خلال بصيصها معالم رسالة، وطلّائع فجر. وأحطُ ما فيها أنّها تسير بقوة الاندفاع العمياء، تحفزها العقليّة الرثّة. فالحركة آليّة محض، والرّوح في جمود. وأخسُ ما فيها أنّها تعنو للقوّة لا للحقّ، وتماشي من يملك وسائل السيطرة لا من يملك إرادة التحرير.

ولو هي عقلت، فتطهّرت، فصفت، لاقتلعت نفسها من أغوار كثافاتهما، وحوّلت مجاري الطّاقة فيها إلى المنهل النقيّ، فرفعت عقلها بتكريسه للتقبّل الصافي والغريزة الحرّة. ولكنّها أهملت هذا المحرّك فيها فعلاه الصّدأ، وسارت بمحرّكٍ عرَضيّ فسار بها على الهامش. والعظمة كلّ العظمة هي في تلك النفوس التي شقّت حجاب البيئة الضيقة ونفذت منه إلى الجوّ الطليق.

تلك الأرواح المتمرّدة، التي تملّكها الإخلاص للحقيقة فلم تقف في وجه موحيات ضميرها عثرة، وشغفها حبّ الإصلاح، فلم تأبه للأوضاع الراسخة في جمودها بعنوّ وإصرار، وشدّت عن المحيط في معقولاته ومفاهيمه المتحرّرة، فلم تخش إتهاماته التي يُلصقها العامّة والعاديّون بهؤلاء "المجانين" أصحاب "الأفكار الغريبة"، و"النزعات العجيبة" و"الأحلام الخياليّة".

والعبريّة، في بعيد أغوارها، تكمن في تلك النفوس التي لا يروي ظمأها ما يلقيها إياها الوالدون والمدرسة والعشراء وهي في بدء تفتّحها على الحياة. وهي التي لا تقبل الفكرة أيّا كانت ما لم تمرّ بها على عقلها وتنتظر فيها، ثمّ تنشأ وتنمو وهي في جوّ خاصّ من التفكير والشّعور والتصرّف ليس موروثةً عن السائد في العائلة والبيئة.

ونحن عندما نرجع إلى المقياس الصّادق للعظمة، إلى الزمن، ونأخذ العبرة من التاريخ الذي هو مرآة العصور، نجد أنّ هذه الأرواح المتمرّدة، الشاذّة، هي التي غيرت وجه العالم، وأنستته وأكسبت الحياة معناها، ورفعته من مجرد حياة عضويّة إلى حياة سامية عقلاً وروحاً.

وقد كتب النصر دائماً لهذه النفوس الكبيرة، فخلدتها الأجيال، ومشت وراءها الجموع، ولكن بعد أن نالت جزاءها في حياتها عقوباً من جهل الجاهلين، وعداء من لم يوهبوا عقلاً مرتفعاً وروحاً ناهدة إلى الأعالي، وكفى بهذا عذاباً للنفوس الكبيرة.

إنّ الحياة، في مجملها، تيار أهوج لا يعقل ولا يعي، أمّا أصحاب التمرد والثّورة فهم ذوو العقول النيرة التي زانها المنطق، وتوثّب فيها الفكر واجتذبتها المسؤولية العظمى.

لكن لماذا يسعى الناس إلى تشويه نصاعة الإخلاص في الفكرة الواعية، فنرى الحقيقة وقد تراكم فوقها زبدٌ حقيرٌ من النوايا العكّرة؟

أهذا من أثر الكثافة المقيّنة في العقليّة الراسبة في مستنقع النقص البشريّ، أم أنّ الله يريد أن يمتحن متانة الإيمان بالرسالة والثبات على القيام بها عند من انتبه لها، فيبلوه بالإجحاف والاضطهاد.. والتتكرّر له ولدعوته؟

التحرّر من الرواسب، والانصهار في بوتقة التكوّن الروحيّ الجديد، هما ما يؤدّي إلى التكامل الإنسانيّ، فيهتدي الإنسان إلى معناه، وإلى مبتغاه، ويشعر

عندها بأنَّ وجوده على الأرض لم يكن فضولاً، وأنَّ سيرَ حياته ليس خبط عشواء وضرباً في الظلام.

الإنسان الحقَّ هو مَنْ تحرَّرَ من كلِّ شيءٍ ليُدركَ شيئاً واحداً، ومَنْ تركَ كلَّ شيءٍ ليخلصَ لهذا الشيء.

وعندما يتوفَّر للإنسان هذا الاستعداد، وتتَّضح خطوط رؤيته، وتظهر معالم رسالته عندئذٍ يستطيع أن يسيرَ يخطى واعية تدرك هدفها وتشعر بمسؤوليتها، ويصبح الشخص الذي وعى نفسه، وعرف ما هو مدعوٌّ إليه، وأنه في الطريق إلى تحقيق غاية وجوده.

فسلامٌ على تلك اللَّمعات الداهشيَّة، واللمحات المستشِفَّة الحقائق العليا، سلام على مَنْ أَدَّى الأمانة، مضيئاً مصابيح رُوحية انبعث منها النور الهادي، وفاح منها أرج الحكمة، وعبق الأزهار المزروعة ما وراء الغمام.

أجل، سلام على هذه الرُّوح الصَّافية التي أشرقت علينا في عصر المادَّة هذا. سلام عليها وهي تعيد على مسامعنا نغمات الرُّوح الخالدة، هذه التي فانت آذاننا منذ زمن، وتذكّرنا بها، وتعيد إلينا ما فقدناه من إيمانٍ وطمأنينة وثبات على الحق. لقد كادت الآلة الماديَّة تعمي بصائرنا وأبصارنا، وكاد الدويّ يصمُّ آذاننا، فكانت لنا من الرسالة الداهشيَّة هذه اليقظة الرُّوحية والاستفاقة على الحقيقة والسداد. إنها المثال، ولنا العبرة والاعتبار.

مع "الرفض" كظاهرة جديدة

جواب على استفتاء أجراه "ملحق الأنوار" لعدد الجريدة السنويّ عام ١٩٧٠. نُشر أيضًا في مجلة "أصداء" - السنة السادسة - العددان ١١ و ١٢ - تشرين الثاني و كانون الأوّل ١٩٧٠.

لعلّ موجة الرفض في العالم جاءت كردّة فعل على الموجة النقيض التي سبقتها وهي موجة "الالتزام". فقد شهد العالم في هذه الحقبة الأخيرة من تاريخه هوسًا عقائديًا جامحًا سواء على الصّعيد القوميّ أو على الصّعيد الاجتماعيّ، وبلغ ذلك حدًّا أنّ العقائديين باتوا يريدون أن ينطبع كلّ مظهرٍ من مظاهر الفكر والحياة بعقيدة الإنسان ونضاله من أجلها: "لا فنّ للفنّ" وإنّما "الفنّ للحياة"، ولا "حياد"، و"لا انتماء"، و"أبراج عاجيّة" وإنّما خوض لمعركة الحياة والمصير.

هذا الإيمان بـ "قضيّة" والتعبّد لها كان حتّى سنواتٍ قريبة سمة العصر الكبري، ولكنّ الجيل الحديث الناشئ، الذي شاهد ما كانت تكلف كلّ "قضيّة" من أرواح ودماء وجهودٍ وأموالٍ ودمارٍ بحجّة الدّفاع عنها أو إعلاء كلمتها، والذي لاحظ، في استعراضه للتّاريخ، أنّ هذه الجهود والخسائر كانت تذهب بددًا لأنّ أصحاب كلّ قضيّة كانوا، هم أنفسهم أو ورثاؤهم، ينتهون بالتخلّي عنها واعتناق سواها عندما تستنفد قضيّتهم طورها التّاريخيّ ويبرز غيرها على المسرح كموضةٍ جديدة، هذا الجيل الذي شاهد المهزلة على هذه الصورة تزعزع يقينه باحتواء أيّة قضيّة من القضايا على "الحقيقة" المزعومة وأصبح يعتبر أنّ "الإيديولوجيّات"، ومعها القوانين والأخلاق والأعراف والتقاليد، هي، كالأزياء وأشكال البناء وألوان الطعام، ظاهراتٍ تاريخيّةٍ حضاريّةٍ تتطوّر وتختلف بتطوّر العصور واختلافها.

من هنا جاء الرفض الشامل لكل "القوالب" التي حُصرت الحياة في نطاقها وأصبح كلُّ تنفُّسٍ للإنسان خارجها مروقاً وخروجاً ولا شرعية. وزاد في حدة هذا الرفض ما غدا الوعي والتفتُّح يريانه من استغلال كلِّ عقيدة من العقائد لأغراض دعائها ومصالحهم.. واقتعادهم، باسمها، مقاعد السلطة والحكم، بحيث لا تكون العقيدة في الحقيقة إلا مطيَّةً لمآرب أناسٍ معدودين ولا تخدم غايتها الأصلية إلا في الظاهر. فهناك دائماً، في مثل هذه الأمور، الغلاف الخارجي المؤلف من الشعارات والتصريحات الرسمية والبيانات المعدة لاستهلاك الجماهير، وفي المقابل هناك العمل الحقيقي الضمني المستتر الذي يجري على أساس من "الواقعية" لا المثالية، والذي يُهمس به ولا يُعلن، ويمكن التطرُّق إليه، في أحسن الاحتمالات، في المجالس الخاصة والزوايا لا في الأحاديث العامة وعلى صفحات الصحف وعبر وسائل الإعلام.

كما زاد في حدة هذا الرفض ضعف الإيمان الديني في النفوس، لأنَّ الدين كان يجعل للنظم والضوابط المعمول بها في الحياة أساساً في "الإرادة الإلهية"، ومع شيوع تيار الإلحاد بات السؤال يُطرح من جديد: "ما هو المستند الشرعي الذي بُني عليه كلُّ ما فرض على الناس من أحكام وفرائض بصفة أنها واجبات ملزمة، بحيث تُبرَّر وجاهة فرضها ويُفسَّر القوم على التقيد بها؟"، أو بعبارة أخرى: "من أين تستقي المؤسسات القائمة سلطتها وتستمدُّ حقَّ فرض الطاعة لها بالقوة؟". ولا يخفى أنَّ أجوبة كثيرة قد أُعطيت في الماضي على هذين السؤالين، منها ما جعل "المصلحة العامة" ذاك الأساس المنشود، ومنها ما جعله "سيادة الجماعة" المتجسدة في "سيادة الدولة". غير أنَّه حتى مبدأ المصلحة العامة ومبدأ السيادة لم تعد لهما قوَّة الأشياء المسلَّم بها، بل بات الاعتراض، وهو مقدِّمة الرفض، يشملهما أيضاً.

هذا، في رأيي، هو الوضع الذي آل إلى ظهور النزعة الرفضية التي تبلورت واتَّخذت شكل طرح لكلِّ القيم والأسس والمبادئ والمعتقدات التي يقوم عليها

صرح هذا العالم وينتظم بها سيره. وإني أسارع إلى القول إن هذه النزعة ليست الأولى من نوعها في التاريخ، بل إن لها جذوراً في الماضي حيث نرى جان جاك روسو، مثلاً، يعتبر أن العودة إلى الفطرة هي التي تُصلح الإنسان، لأن الإنسان بفطرته صالح والمجتمع هو الذي أفسده، وهي دعوة إلى الفردية المنسحبة من كافة القوالب والنظم التي وضعها المجتمع والمتخلية عن ميراث هذا المجتمع بجميع أشكاله، حتى لنرى أن "الفوضوية" أصبحت مذهباً يجعل الدولة أساس كل علة ويدعو إلى مجتمع لا دولة فيه (وهي غير فكرة الشيوعية في الاستغناء عن الدولة في آخر مراحل الاشتراكية).

أما كيف يتراءى لي التغيير والخلاص من مشكلات العالم التي يثور عليها الرقّص المعاصر فهذا يتطلب نفاذاً إلى صميم نفسيّة الرافضين لمعرفة ما إذا كانوا، في رفضهم، يتوقون إلى بديل لما يرفضونه أم أنهم يريدون إحلال الحرية المطلقة، أو بالأحرى الإباحية الكاملة، على أكثر من الصعيد الخلقى، محلّ المناهج المرسومة في التصرف والسلوك (تلك النزعة التي عبّر عنها أندره جيد في مؤلفاته)، وإحلال النفي المطلق لكل حقيقة محلّ الأخذ بالمذاهب والمعتقدات.

ولا أنكر، في هذا المجال، أن الرفض كموقف فكري قد انحطّ لدى البعض إلى نوع من الميوعة وعدم ارتضاء الجهد وعدم احتمال أي نظام، فأساء هؤلاء فهم الرقّص كما أساء غيرهم فهم الفلسفة الوجودية وأساء استغلالها، وتحول الرقّص بذلك إلى مظهر من مظاهر الانحلال في العالم الغربيّ كغيره من المظاهر: الوجودية بمعناها الثاني الذي أوضحناه، والهيبيّة، والزازو والخنفسة، فبتنا نرى الشباب في الدول الغربية يأنف من الخدمة العسكرية، مثلاً، تحت ستار عدم إيمانه بدواعي الجندية، وما الأمر في الحقيقة غير أن هذا الشباب، في تخنّثه ورخاوته، لم يعد يطبق الحياة الجدية الصارمة التي لا تخلو من المشقة والتضييق على النفس.

ولكن، رغم كل ذلك، فإنني أعتقد أن موقف الرّفص ليس سلبياً بالدرجة التي نتصورها بل يتضمّن عناصر إيجابية في ثناياه. فالنقمة على مذاهب ونظريات ترمي العالم بالويل والدمار بحجة نشرها أو الدّفاع عنها لتزول من تلقائها بعددٍ بدافع من زهد أصحابها بها، هذه النقمة تنطوي على توق وتطلّع إلى حقيقة ثابتة تستحقّ التضحية من أجلها والتمسك بها. والنقمة على التستر وراء المبادئ والشعارات لتحقيق غايات شخصية ومنافع ذاتية تنطوي على رغبة في أن يكون اعتناق المبدأ أو الفكرة خالص النية، بريء القصد، صادراً عن إيمان واقتناع.

كما أنه، من الناحية العملية، يتعذّر ترك السلوك الفرديّ دون أي ضبط أو توجيه، ويتعذّر عدم التنسيق بين البوادر والنشاطات المختلفة، فذلك معناه فقدان التنظيم، والتصادم، والتناقض، والفوضى وأكل القويّ للضعيف. وإنني لأعتقد أن الحلّ، بالنسبة إلى الرافضين الذين مبعث رفضهم نفمتهم على الاعوجاج الذي يصادفونه ورغبتهم في تقويمه وإصلاحه، هذا الحلّ يكون برفضهم، كجماعة عالمية، نمطاً جديداً صادق الطوية والمخبر في السلوك الإنسانيّ، وبالنسبة إلى الذين لا يعتقدون بوجود أية حقيقة، وبأن كل فكرة أو دعوة سخيفة باطلة، يكون الحلّ بتسليمهم، على الأقلّ، بالضرورات والدواعي العملية التي تقضي ولو بحدّ أدنى من التنظيم وتوجيه السلوك من أجل سعادة البشر وعدم وقوعهم فريسة انطلاق القوى المختلفة من عقالها متى ترك لها الحبل على الغارب، وتضاربها، وتصارعها ونشوب بعضها على البعض. وفي الحليّن إيجابية، وسعيّ إلى الأفضل.

آراء حنا نمر الاجتماعية

في كتابه "الإنسان والجماعة"

أُلقيت في ندوة أقامتها جمعية "أهل الفكر" حول المفكر والشاعر حنا نمر، وذلك في مسقط رأس الأخير، شيخان - جبيل، قاعة كنيسة السيّدة.

"الإنسان والجماعة وحقوقهما في الماضي والحاضر" عنوان يوحى بأنّ الكتاب المتوجّ به هو عبارة عن درسٍ يُلقيه عالمٌ بالموضوع إلى متلقين عنه دون أن يكون فيه إبداع شخصي من المؤلف، بل إيراد أو تلخيص لمادّة تتدرج في علم الاجتماع وليس للمؤلف أكثر من تفقّه بها وتضلّع منها لإفادة طلابه بما يعرفه في هذا الحقل.

ولكن في سيرنا عبر الكتاب نجد، خلال إفاضة صاحبه المرحوم حنا نمر بما يختزنه من علمٍ واسعٍ في هذا المجال، إطلاقاتٍ لآرائه الشخصية في ما خصّ ذلك، إذ لم يكن في وسع هذا المفكر الكبير ألا يكون له ما يُدلي به في نطاق ينصرف إليه خصوصاً ذوو التوجّه الإيديولوجي الذي يدين به حنا نمر ونجله حسيب ونسيب.

وإنّا لنجد في المقدّمة التي استهلّ بها كتابه أخذَه برأي الفيلسوف اليوناني القائل: "اعرف نفسك"، وبقول أحد العلماء: "من عرف نفسه فقد عرف العالم"، فيعقب حنا نمر على ذلك بأنّه إذا عرف الإنسان نفسه سار في طريق الرقي، ورفعها عن مهاوي الذلّ والابتذال، ممّا هو رأي شخصي، أو موافقة ذاتيّة على الرأيين المذكورين، وليس مجرد إيرادٍ موضوعيٍ لشيءٍ مقررٍ علمياً لا يفعل هو أكثر من إدراجه في درسه.

وينوّه هنا بقول الشاعر العربي:

غالى بنفسى عرفانى لقيمتها فصننتها عن رخيص القدر مبتذل

وكان الأجدر به، في معرض استشهاده بقول القائل: "مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ الْعَالَمَ"، أن يدعمَ هذا القول ببيت الشعر الذي نفذ فيه الشاعر العربي إلى عمق حقيقة نفسية عظيمة هي أن الإنسان عالمٌ مصغرٌ يحتوي كلَّ ما في العالم الكبير من ظواهر وخفايا. فهو، باللغة الأجنبية، ميكروموند، أي صورة مصغرة عن الماكروموند، أي العالم الواسع. يقول شاعرنا العربي:

وتحسب أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ

وفي سياق المقدمة لا يغفل الكاتب، وهو أستاذ للأدب واللغة، عن إبداء رأي أدبي في البلاغة والفصاحة. فهما عنده يكمنان في البساطة وعدم التعقيد، يقول: "البلاغة في اختيار الكلام المستعمل المألوف"، مستشهدًا بقول ابن المقفع: "البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل يظنُّ أنه يُحسن مثلها"، وبقول الجاحظ: "الكتاب أحوج ما يكون إلى إفهام معانيه". فهو إذا لم يكن صاحب هذا الرأي في البلاغة فقد أخذ به وذكره في مقدّمته لكتابه على أنه مذهبه في مفهومه للبلاغة إزاء ما يذهب إليه غيره من أن البلاغة تكمن في الصنعة والصياغة وتتميق الكلام وزخرفته وترصيعه.

ومنذ أن يبدأ صلب كتابه بعد المقدمة يتّضح لنا من حنا نمر اتجاهه الفكري في أمر الإنسان: "الإنسان، على ضعفه، أصبح سيّد المخلوقات جميعها، وذلك باجتماعه وتعاونه وتنظيم أعمال الفرد في سبيل رقي الجماعة". ونحن معه في أن الإنسان، بمفرده، لا يستطيع أن يحقق شيئاً من ذلك، ولكن المؤلف حصر وظيفة الفرد بعمله من أجل الجماعة، وفي هذا نفي ضمني للفردية وجعل الجماعة، ممثلةً بالدولة أو بأي هيئة اجتماعية، هي الغاية من سعي الأفراد، ونعرف إلى أية مدرسة عقائدية ينتسب هذا التفكير.

حتى أنه جعل تفوق الإنسان على المخلوقات جميعها عائداً إلى اجتماعه وتعاونه، فكأنّ تفرّده بالعقل عن جميع هذه المخلوقات لم يكن له دوره في هذا التفوق إلاّ بأنه قاده إلى التعاون والاجتماع.

ولئن كان قد استدرك ذلك في النبذة التي كتبها لاحقاً عن العقل فإنه ختم هذه النبذة بما يركي نفيه للفردية بقوله: "الجماعة فوق الفرد، والإنسانية أولى من الإنسان".

ونحن لا نجهل أن أولوية الجماعة على الفرد ليست محصورةً بالفلسفة الديالكتيكية وبالأنظمة التوتاليتارية، بل إن الديمقراطية على الطريقة الغربية لم تعد ليبرالية مطلقاً كما كانت في أول عهدها بل تطوّرت إلى حدٍّ أنها لم تعد تنظر إلى الملكية الخاصة على أنها منفعة شخصية لصاحبها بل أصبحت وظيفة اجتماعية تصبُّ في خدمة المجتمع. ولكن هذا النظام أبقى حيزاً للفرد ولم يلغِ إلغاءً تاماً، أما الفلسفة التي يعتقها حنا نمر، والتي رشحت صورتها منذ بداية كتابه، فهي التي لا محلّ للفرد فيها إلا كعجلة أو لولب في الآلة الكبيرة التي تشكّل وحدة لا تتجزأ يرتبط فيها الفرد ارتباطاً عضوياً بالمجموع وليس له استقلال ذاتي على الإطلاق.

أما الفكرة الطريفة، والمُحقّة، التي يسوقها، والتي أرجو أن تكون صادرةً عنه وليست مأخوذةً عن أحد المذاهب التربوية أو مبادئ علم الاجتماع، فهي أن اتكال البنين على آبائهم وأمهاتهم، وحنوّ هؤلاء عليهم، أوجد تعاوناً في الأسرة كان بداية التعاون الأوسع على الصعيد العام، وسلطة الأب على أسرته كانت سبباً في وجود الرئاسة والزعامة في الدولة والأمة والمجتمع.

ويشفع هذه الفكرة بما نقله عن علماء الحياة، وهو أن لعب الولد هو أساس عمل الكبير، حتى أن العلماء يعيّنون للإنسان حِرْفته المستقبلية بالاستناد إلى لعبه. فاللعب في أثناء الطفولة أساس العمل الجدّي عند البلوغ، ويذكر في هذا السياق أمثلة على أن اللعب أساس العمل في الحياة، وهكذا تصبح الأسرة دولة، وأنظمة اللعب أنظمة اجتماعية تنظّم أعمال الأفراد لمصلحة المجموع، وفي ذلك عودة إلى فكرته بأن أعمال الأفراد هي لمصلحة المجموع وليست غير ذلك.

أجل، يعرض الكتاب لمسيرة الإنسان من بدائيته الأولى إلى نموه وتقدمه عبر التعاون مع أمثاله لتكوين المجتمع الذي هو عنوان الرقيّ الإنسانيّ، لأنّ قوّة الإنسان باجتماعه، وسيادته بتعاونه كما يذكر، فتستوقفنا في هذا العرض موسوعيّة حنّا نمر التي تتجلّى باستيعابه العلوم البعيدة أصلاً عن اختصاصه كأستاذٍ للأدب والفلسفة العربيّين وعن صفته كشاعر. فهو يعرض، مثلاً، للفلسفة الماديّة بكل تفرعاتها من فسيولوجيّة وعلميّة وطبيعيّة واقتصاديّة، ولنظريّة داروين في تنازع البقاء وبقاء الأنسب، ماراً على الغريزة والتطور والعلاقة الجنسيّة وتأثير الإقليم على الأحياء الذين يعيشون فيه.

كما يستوقفنا أنّ حنّا نمر، المنطلق من رؤيته للوجود من نظريّة الماديّة التاريخيّة المنكرة لما وراء الطبيعة، يتحدّث عن الدّين بشكلٍ إيجابيّ قائلاً إنّ الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي عرف خالقه ودرس أعماله وطمح بأنظاره إليه، فأمن به واعتقد حياةً أخرى ينال بها كلّ إنسان جزاء ما صنعت يده، مستطرّداً إلى أنّ هذه الميزة في الإنسان ترفعه عن دائرة الحيوان ليصبح كائنًا مستقلاً ذا نفسٍ حيّة خالدة، أي أنّه يؤمن بخلود النفس، وبالتالي، بما وراء الطبيعة.

وهو ينعي على علماء الماديّة العلميّة كونهم، ولو قاموا بأعمالٍ ماديّةٍ جبّارة، قصّروا في فهم العوامل الروحيّة وانصرفوا عن درس نفسيّات الشعوب ومطامحها.

كما يعتبر أنّ الآراء الماديّة هي التي اتّخذ منها علماء العنصريّة مبادئٍ عنصريّتهم الجامحة التي هي جناية الجهل على العلم والسياسة على المدنيّة، بل هي جناية المتهوسّين على الرقيّ والعمران، مشيراً إلى أنّ هذه العنصريّة ازدرت بأعمال الأنبياء والمصلحين. فلم يغب عنه أنّ النظريّة الماديّة التي يسلم بها كان لها وجهها الآخر السلبيّ باشتقاق العنصريّة منها التي وصفها بأنّها جناية، في حين رأى صلاحاً في أعمال الأنبياء مؤسّسي الأديان.

وعندما نصل إلى فصل "الروحانية" في الكتاب نجد أنه يردُّ على علماء العنصرية الذين استندوا إلى النظرية المادية في شقها الفيزيولوجي لدعم مبادئهم الهدامة فيقول: "إذا سلّمنا معهم بالصفات الفيزيولوجية فماذا نصنع بالصفات الروحية التي يمتاز بها كلّ إنسان، والتي لا نرى من بواورها شيئاً في أرقى أنواع الحيوان؟". يقول ذلك لأنّ علماء العنصرية يجعلون الفروق بين الإنسان والحيوان كمية لا نوعية، أي إنّ الإنسان متقدّم على الحيوان تقدّمًا نسبيًا بسببه إياه أشواطاً في التطور، وإنّ أنواع الحيوان كلّها لها شيء من العقل والتفكير وغيرهما ممّا يتّصف به الإنسان، فيردّ عليهم حنّا نمر بأنّ الفرق بين الإنسان والحيوان ليس نسبياً لأنّ الصفات الروحية هي التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان، وهذه الصفات يخلو منها بالكلية حتى أكثر أنواع الحيوان رقيًا.

هذا الاستعراض لمحتويات كتاب "الإنسان والجماعة وحقوقهما" لا يمكنه أن يستوعب الكتاب بكامله، فأردنا منه فقط أن نستجلي ما لدى حنّا نمر من آراء خاصة في هذا الميدان العلمي، وما يختلف فيه عن دعاة المادية التاريخية التي هي، مبدئيًا، عقيدة حنّا نمر الفلسفية، فنختم ببسط موقف له واضح الاختلاف عنهم، إذ يقول، تحت عنوان "الدين والعلم": "للدين الفضل الأول والأكبر على المدنية، والإنسان لا يستغني عن الدين لأنّ فيه شيئاً يسمو به عن المادة، والهمجيّ في جهله لم يستغن عن أبسط قواعد الدين"، هذا في حين أن الماديين، كما يذكر حنّا نمر، يرون في الاعتقاد الدينيّ تسليمًا يقيد العقل، ويرون أنّ الاهتمام بالحياة الأخرى يزهد الإنسان بحياته على الأرض فيضعف ويشقى، وفي شقاء الفرد شقاء الأمة، وفي ضعفه ضعف الدولة.

ويبقى حنّا نمر، حتى في انضوائه، متفردًا، ويبقى في اتجاهه الفكريّ متحفّظاً في بعض المناحي.. له خصوصيته فيها، ونستطيع القول إنّهُ يشكّل جناحاً خاصاً في مذهبٍ هو مذهبه في إطاره العام.

الثقافة

مفهومها، وعلاقتها بالتربية والسياسة والحرب

أصعب ما يواجه عملية إطلاق التحديدات العلمية وجوب التمييز ما بين مفاهيم متجاوزة، وأحياناً متداخلة، كالتمييز ما بين العلم والثقافة. فلو هله الأولى تبدو الثقافة على أنها المعرفة المكتنزة بفعل التحصيل العلمي: المثقف هو عكس الجاهل أو الأمي، ولا فرق، لدى أصحاب هذه النظرة، ما بين المثقف والمتعلم.

ويغيب عن بال هؤلاء أن الثقافة، حتى بمعناها هذا، تفترض مستوى لا يبلغ بمجرد التخرج من المدرسة. فليس كل حائز شهادة الدروس الثانوية مثقفاً بالضرورة. الثقافة مرتبة رفيعة في السلم العلمي ترتقي بصاحبها إلى مصاف النخبة العقلية، أي توجب دراسة عالية، هذا إذا أردنا أن تكون هي والمعرفة سواء.

لكن الثقافة هي غير ذلك، إنها حالة فكرية ناشئة عن التزوّد بالعلم وليست حيازة المعارف العلمية بحد ذاتها. دور العلم هنا هو نقل التفكير من آفاق النظرة "الخام" إلى الأمور إلى طبقات أعلى. فالعامّة من الناس، الذين لم يستشرفوا هذه الطبقات لأنّ ما لهم من إلمام بحقائق الحياة والكون لا يكفي لتكوين هذه الحالة الفكرية لديهم تظل لهم رؤية بكر للأمور هي غير رؤية من أغنت عقولهم عدّة علمية واسعة ومعقّمة جعلتهم يواجهون المسائل المحيطة بهم على غير ما يواجهها به ذوو الأعين المحدودة حقل الرؤية ومداه.

لهذا يوجد ثقافة شعبية وثقافة أكاديمية، الأولى مستمدة من تجارب الحياة واختباراتها، والثانية هي التي تعيننا والمستمدة من جني العلم والتكيف العقلي بفعل معطيته.

ولكن هذه العدة العلمية، التي يشقُّ الفكر على ضوئها السبل السديدة لسيره، لا بأس إذا غابت نتف أو أجزاء منها في ما بعد عن ذاكرة المثقف ووعيه.. بفعل النسيان أو الغفلة عنها. فهي تكون قد فعلت فعلها في صقل التفكير وإنضاجه، تكون قد أوجدت الحالة الفكرية التي أشرنا إليها.. والتي لا تزول من بعد بزوال بعض العناصر التي ساهمت في تكوينها. ونقول: "بعض العناصر" لأنَّ عموميات العلم لا تُمحي من الذهن بعد رسوخها فيه، فلا يتلاشى، احتمالاً، غير الفرعيات والتفاصيل.

ورُبَّ موضوعاتٍ لم يطلع عليها المثقف سابقاً، ولكنه، بما يملك من مستوى فكريٍّ محصلٍ من عدته العلمية، يعرف أن يتصرفَ حيال هذه الموضوعات ويخوض فيها، مكوِّناً صورة صحيحة عنها وعمّا تستتبعه وتقتضيه.

أجل، الثقافة هي انتقال العقل من حال الطفولة إلى حال النضج، من الصفحة الخام إلى الصفحة التي انعكست عليها ألوف صفحات الكتب وملايين الكلمات والحروف.. التي على فرض أنها عادت فتقلّصت عن صفحة العقل إلا أنَّ هذه الصفحة لا تعود بفعل هذا التقلّص خاماً، لا ترتدّ إلى ما كانت عليه قبل أن تمرَّ على أديمها تلك الصحائف الغنية المملأى.

فإذا حدث أن باعدت المشاغل العملية من بعد، وانصراف الإنسان إلى اهتماماتٍ أخرى، بينه وبين ما اختزنه من علم حتى كاد هذا أن يسقطَ من خزانة ذاكرته، فلا يعني ذلك أنه سيعود بعد التطوُّر والارتقاء اللذين اكتسبهما من هذا العلم إلى الوراء، إلى حالته الفجّة الأولى، لأنَّ الشيء قد يذهب ولكن لا يذهب أثره، والخطوط الكبرى، العامة، للمعرفة تظلّ عالقةً في الذهن ولو غارت في سراديبه الجزئيات والتفاصيل.

إنما العلم الذي ينير جوانب العقل على هذه الصورة لا بد أن يكون ممتدًا إلى جميع الحقول، لأنَّ اقتصار المعرفة على نواحٍ معيَّنة لا يُكسب الفكر كلَّ ما يرتقي به إلى علياء الثقافة. فالاختصاص، إذا اكتفى به صاحبه، لا يوليه سعة الأفق الكفيلة بالتفكير المخترع الراجح، بل شمولية العلم هي التي توليه ذلك. فكم من اختصاصي لا يخوض عقله في غير المجال الذي يُتقنه ظلَّ تفكيره العام في مثل تفكير المطلِّين حديثًا على مظاهر هذا العالم.

وبعد، فللتقافة مفاهيم عديدة لم يتوصَّل المعنَّون بموضوعها إلى التوفيق ما بينها أو إلى اختيار الأصحَّ منها. وهذا الذي أبسطه هنا هو أحد هذه المفاهيم المتكوِّن عندي بإعمال الفكر والتجربة الشخصية، لأنَّني عرفت من ينابيع المعرفة على اختلافها، ثم باعدت اهتماماتي العملية في الحياة بيني وبين معظم ما اخترنت حتى بهنت ملامحه لديَّ وكاد، إلَّا في خطوطه الكبرى، أن يسقط من وعيي وذاكرتي، غير أنَّني، بعد اكتسابه، تطوَّر تفكيري ولم يعد من ثمَّ إلى الورا، فقد ذهب الشيء ولم يذهب أثره.

الثقافة والتربية

وما نقوله عن الثقافة نقوله عن التربية، فكما قيل عن الفلسفة إنَّها ليست معرفة الحقيقة بل وضعًا للفكر على طريق الحقيقة.. كذلك فالتربية لا تقوم على إكساب الشخص العلوم والمعارف، بل على صقله عقليًا ونفسيًا في عملية إعادة صنع أو ولادة جديدة يخرج بعدها إلى الحياة خلاف ما خرج في ولادته الأولى، أي بنظرة جديدة إلى الأمور، بحيث يصدر، في مواجهة أيَّة قضية من القضايا، عن سعة أفق، وإطلاع وخبرة ودراية مقرونة كلَّها إلى نضج التفكير، ممَّا كان يفنقه من قبل، وهكذا تكون التربية الفكرية وعملية التنقيف واحدًا، ونقصد بالتربية الفكرية عملية إنضاج الفكر عن طريق تنقيفه، لتمييزها عن التربية المدنية والتربية الخلُّقية.

هنا يكمن الفارق بين الإثنين: المثقف وغير المثقف: في النظرة، في التفكير، في الزاوية التي يرى منها كل منهما المواضيع التي تعرض له، إذ باختلاف زاوية النظر إلى الأمور تختلف الرؤية نفسها، وباختلاف المنطلق الذي ننطلق منه لمعالجة الموضوع تختلف النتيجة التي نتوصل إليها.

فالتربية، إذاً، هي عملية تسديد خطى وتدريب على حسن استعمال الوسائل، لا تسليم الإنسان بضاعة جاهزة. إنها تعليمه فنّ اصطياد السمك بدلاً من إهدائه أسماكاً. أي أنها أشبه بتسليم الإنسان رأس الخيط ليكمل بعد ذلك من عنده. إنها التركيز في المكان الأمثل للانطلاق، والدلالة على السبيل الصحيح للسير، وتكون النتيجة بعد ذلك مضمونة.

الثقافة والسياسة

قبل الدخول في موضوعنا هذا لا بدّ من الإشارة إلى أنه لا حدود فاصلة بشكل جازم بين كلّ حقّ من حقول الفكر والآخر، بل إنّ هذه الحقول تتداخل ببعضها وتتشابك، لأنّ في كلّ حقّ منها شيئاً من غيره. وتبعاً لذلك فإنّ السياسة لا تفصل عن الثقافة بحيث لا يكون ثمة علاقة بينهما، بل إنّ الفكر السياسيّ هو أحد ميادين العقل كالفكر الفلسفيّ والفكر العلميّ والفكر التشريعيّ والعسكريّ، حتى أنّ الفكر الفلسفيّ يشمل السياسة أيضاً، فلهذه فلسفتها كما للتاريخ، ولل قانون وللماورائيات.

السياسة، إذاً، هي في صلب العمل الفكريّ، وبالتالي هي في صلب الثقافة، وما الطروحات السياسيّة من مثل "المدى الحيويّ للدولة"، و"دواعيها الخاصة" (Raisons d'État) والعولمة وما شاكل ذلك إلّا ثماراً للتتظير السياسيّ كما أنّ لكلّ حقّ تنظيره ومنظريه.

وربّما لأنّ السياسة انحطّت عندنا إلى مستوى الاحتراف الصّغير، والخدمات الشخصيّة.. والديماغوجيّة، صرنا نراها ميدان نشاطٍ لا يرقى إلى مرتبة الثقافة

بما هي عليه من رفعةٍ وسموٍ. ولكنَّ السياسة، بمعناها الحقيقي، ليست ما نشهده في هذه الممارسات، بل هي ملعب واسع للفكر يجول فيه ما شأته قدرته على الإبداع، فيولّد الآراء والنظريات والمبادئ السياسيّة التي تُدرّج في خانة العطاء الإنسانيّ كأيّ عطاءٍ في مجالات العلم والأدب والفنّ.

وهنا نصل إلى الفصل في القانون الوضعي، وفي القانون اللبنانيّ بالذات، بين السياسة وغير السياسة، خصوصاً في المجال الصحفيّ. فالصحيفة مصنّفة، بموجب هذا القانون، فئتين: سياسيّة وغير سياسيّة تبعاً لامتيازها، ويحظرّ على الصحيفة غير السياسيّة تعاطي المواضيع السياسيّة في ما تكتبه. وهنا نتساءل: ما هو الحدّ الفاصل بين المقال السياسيّ والمقال غير السياسيّ؟ فهل إذا تناولنا بالدراسة الإيديولوجيّات والمذاهب التي تقوم عليها الأنظمة السياسيّة في الدول نكون قد كتبنا في السياسة؟ وهل إذا تطرّقت الصحيفة أو المجلّة غير السياسيّة إلى موضوع الانتخابات النيابيّة بصورة عامّة، لا إلى انتخابات معيّنة جرت أو سوف تجري في بلدٍ من البلدان، تكون قد خاضت موضوعاً سياسيّاً؟ ألا يمكن لها أن تعالج موضوع التمثيل النيابيّ من الوجهة النظريّة ومن حيث المبدأ، أو أن تبدي رأيّاً في النظام الديمقراطيّ ككلّ من حيث صحّة مرتكزاته أو عدمها، أو من حيث ما يترأى لها إنّه عيوب أو ثغرات؟ أليست هذه مواضيع فكريّة تتناولها الأعلام كما تتناول غيرها من مسائل الفكر؟

ثمّ ما مقدار استفادة السياسة من خوض المتّقين فيها؟ هل هم نعمة عليها بإغنائهم محتواها، ورفعهم مستواها، أم أنّ للسياسة أربابها الذين يُتقنون طرائقها وأساليبها، ومداخلها ومخارجها، التي تؤهّلهم لها نزعتهم الطبيعيّة، أو الممارسة والاحتراف، ولا دخل للثقافة في ذلك إن لم تكن مُفسدةً له؟

قال لي مرّةً مغترب لبنانيّ سابق في البرازيل إنّه مرّ عليه، في فترة اغترابه، سفيران للبنان في ذلك البلد: يوسف السّودا وأديب النّحاس. الأوّل كان، في الاحتفالات والمجالس والمناسبات العامّة، يسحر العقول، ويخلب الألباب،

بخطابته وطلاقته وعذوبة حديثه، حتى إذا عرضت مشكلة أو قام خلاف في أوساط الجالية اللبنانية عجز عن إيجاد مخرج للأزمة العارضة أو حلّ، والثاني، أديب النحاس، لم يكن خطيباً مفوّهاً، ولا حتّى متمتّعاً بقسطٍ وافٍ من العلم، ولكنه كان إدارياً كفوّاءً، وسياسياً لبقاً يجد لكلّ مشكلة فتوى لحلّها، ولكلّ صعوبة تطرأ باباً لتذليلها. ذلك لأنّ يوسف السّودا كان ذلك المحامي الجزائريّ الذي اشتهر ببلاغة مرافعاته، والأديب والشاعر واللّغويّ الذي يسبح في هذه الأفلاك وتفوته أمور الواقع القائم على الأرض، أمّا النحاس فقد مارس الإدارة قائمقاماً ومحافظاً ومديرًا عامًّا لوزارة الدّاخلية قبل أن يصبح سفيرًا، فخالط النّاس في الأقضية والمحافظات، وعرف الشّعب في عقلية واهتماماته، وما يزعجه وما يرضيه، فأصبح لديه من ذلك عدّة وتجربة وخبرة تضيء له سبيل السلوك بين الطبقات الشعبيّة. والمغترب اللّبنانيّ لا يختلف في عقلية عن أخيه المقيم، فهو قد أخذ معه كلّ رواسبه ووراثاته في الوطن، فسهل على السفير المحنّك في هذه الأمور أن يعرف كيف يتعامل معه. وهكذا نرى واقعية السياسة ومثالية الثقافة، وهنا يكمن الفارق الكبير بينهما.

ولكنّ ذلك لم يمنع من أن تكون المناصب السياسيّة في العالم قد عرفت متقّفين كباراً مميّزين، مع العلم بأنّ جميع السياسيّين في الدول المتقدّمة هم من ذوي المعرفة والاختصاص. فإنّ توريس بوديه، وزير خارجيّة المكسيك في وقتٍ من الأوقات، كان أديباً وشاعراً. وأندريه مالرو، وإن كان منصبه الحكوميّ في فرنسا مختصّاً بالثقافة لا بالسياسة، إلّا أنّه عمل في السياسة البحت مع الجنرال ديغول. وسان جون بيرس وبابلو نيرودا كانا سفيرين، وكذلك بول كلوديل. وماذا نقول في ماو تسي تونغ الفيلسوف والشاعر، وفي غاندي ونهرو رجّلي الفكر الكبيرين، وراجا كريشنان الفيلسوف الذي عمل رئيساً لجمهورية الهند، والفيلسوف فياجسلاف هافل رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا، والموسيقيّ بادرفسكي رئيس مجلس الجمهوريّة في بولندا، وونستون تشرشل رئيس

الوزراء البريطانيّ الذي حاز جائزة نوبل للأدب، وكليمنت أتلي الذي خلفه في الحكم وتُعتبر مذكراته من روائع الأدب العالي، والشاعر لامارتين الذي انتُخب نائباً في البرلمان الفرنسي وترشّح لرئاسة الجمهوريّة، وموريس باريس الأديب الفرنسي الكبير وعضو البرلمان، والموفد السياسيّ إلى الشرق في أيّام الحكم العثمانيّ؟

إلاّ أنّ علاقة السياسة بالثقافة لا تقتصر على الجمع بينهما من قبل بعض من ضربوا من كلّ منهما بسهم، ولا على التنظير السياسيّ الذي هو، كما قلنا، توليد عقليّ ككلّ إفرازات العقل، بل هناك لكلّ توجّه سياسيّ ثقافته المنطبقة به والمتكيّفة معه بحيث لا تحمل إلاّ ما يتوافق ومضمونه. فهناك ثقافة للسّلام، وثقافة للحرب، وثقافة للثورة، وثقافة للإصلاح الاجتماعيّ والتغيير، وثقافة للتدين والارتقاء الروحيّ.

ويُحكى اليوم، في الوضع السياسيّ القائم في هذه المنطقة، عن ثقافة السّلام، لا بل يروّج لها حتّى لتكاد تشكّل أحد مواضيع الساعة. ويترافق ذلك مع الاعتقاد السائد من أنّنا مقبلون على مفاوضات سلام يعقبها حوله، فماذا يبطّن هذا الترويج لثقافة السّلام؟

ممّا اعتدنا عليه دائماً، نحن الشعوب المستهدفة لأطماع الأقوياء، أن نجد كلّ دعوةٍ طيّبةٍ في ظاهرها مغلفةً بما يُسمّى كلمة حق يُراد بها باطل. فالدعوة الإنسانية، أي الدعوة إلى الأخوة الشاملة بين الشعوب، والتخلّي عن العصبية القومية لمصلحة الفكرة العالمية، لم تكن في حقيقتها غير محاولة تهدف إلى نزع طوعيّ لسلّاحنا وإحلال ثقة عمياء من جانبنا بنوايا الآخرين تجاهنا، حتّى إذا آن للمأرب أن تُنفذ وجدتنا عزّلاً من أدوات التصدي لها.. بروحنا المسالمة أو بخلوتنا من الوسائل الدفاعية.

وهكذا العولمة، هذه النعمة الشائعة اليوم، التي توجز بكونها تعتبر الثروات الطبيعية ملكاً للعالم بأسره لا للدولة التي تتبع أو تنبت فيها، وغايتها في الواقع

ليست أكثر من استيلاء البعض، باسم العالم، على ما لا يملك مثله في أراضيه من خيرات أنعم الله بها على سواه، وذلك بدون ثمن يدفعه عنها. وهو يطبق ذلك على ما يريده منا ولا يشمل ما نحتاج إليه منه، فما من مرة أسمعونا بأن ثرواتهم الخاصة هي ملكنا أيضاً ولنا حصّة فيها.

والآن نحن في موجة من حديث ثقافة السّلام، وهي، من حيث المبدأ، فكرة رائعة بما هي تروّض الإنسان على الرحابة مع الغير بدلاً من الحساسية العدائية المجانية تجاهه لا لشيء إلاّ لأنّه آخر. ولكننا نحن، في وضعنا الرّاهن، إزاء ما يُحاك لنا، وما يتربّص بنا، وما يُراد منا، لا يمكننا أن ننظر إلى هذه الدعوة على أنّها بريئة لوجه الله، لا يمكننا أن ننظر إليها إلاّ على أنّها تعرية لنا حتّى من سلاحنا النفسيّ، أي من إرادة الصمود والمقاومة، ومن النزعة القتالية، لنسبح في بحيرة من أوهام السّلام التي تقتل فينا كلّ تحفّز وعزم، وتُغمض أعيننا عمّا يهيء لنا الطامع المترديّ بثوب الأخ.

لا بل إنّها تحضير لنا للقبول بعملية التطبيع، تطبيع العلاقات مع العدوّ غبّ حلول السّلام، لأنّ العدوّ لا يهدف من السّلام فقط إنهاء العمليات العسكرية ضده، بل يهدف إلى جعل أسواقنا ومرافقنا ساحة له يسرح فيها ويمرح، وجعل مواردنا مباحة له يستغلّها ما شاء، والتغلغل في أوساطنا وقد انهارت كلّ الجدر بيننا وبينه. وهذا ما هو أخطر من السّلام البحت، لأنّ العدوّ يتوخّى من هذا السّلام أن يكون باباً ينفذ منه إلى داخلنا ويستبيحنا لأغراضه ومراميه التي لن تكون صافية وسليمة ولو في ظلّ مئات النعوت التي تُسبّغ على هذا السّلام لتجميل صورته، وأكثرها تزويراً للحقيقة أنّه سلام عادل. فأين العدل فيه وقد اغتصبت الأرض من أصحابها واقتلعوا منها اقتلاعاً، وها هم يريدون ان يُلقوا بعبء المجرّدين من حقّهم في وطنهم وأملاكهم علينا حتى نوطنهم عندنا؟ حقاً إنّهُ لعدلٌ مضاعف: المالك الشرعيّ سلب منه ملكه، ويريدون منه أن يقيم حيث لا يملك!

الثقافة والحرب اللبنانية

لا مرأى في أن الحرب اللبنانية أورتت شعوراً لدى المواطن هو بمثابة "ارتداد إلى الطائفة". فقد كان التفكير العصري المتجه نحو العلمنة قد سار بالطبقة المثقفة عندنا في طريق الإيمان بالدولة الديمقراطية الواحدة للجميع أسوة بما هي عليه الدول المتقدمة، كما كان البعض قد أخذ بإيديولوجيات بعيدة عن المعتقدات الماورائية، فإذا بالحرب التي نشبت في البلد، والتي أخذت، في نظر أبناء هذه الطائفة أو تلك، طابع التهديد المتبادل للوجود، تبعث في نفوس الجميع على اختلافهم نزعة التشبث بالطائفة بما هي كيان مجتمعي يزولون بزواله، نزعة جاءت على صورة استفاقة لـ "عصبيّة الفريق" لديهم، ومن المعروف أن الطائفة في لبنان، إلى جانب كونها مذهباً روحياً، هي شخصية إنسانية تشكل الانتماء إليها ما يشبه الانتماء إلى العشيرة أو "الرّبع" بالتعبير المألوف.

كما كان لهذه الحرب أن تكشف الستار عن العقائد التي شاعت بيننا انسياقاً مع موجة انتشارها العالمي، فوضعتها على محك التجربة الحسية ليرى المعجبون بنظرياتها حقيقة أمرها كعامل هدم وتدمير مروّع، وكأداة فضلى في أيدي أرباب اللعبة الجهنمية لضرب الاقتصاد والعمران والمرافق الحيوية وتقويض مقومات أمة.

وهكذا رأينا، في الجانب اليميني من القتال، كثيرين من الشبان الذين دانوا بهذه العقائد على أساس أنها أفكار تقدّمية طليعية يُصدّمون بما رأوا، في الحرب، من الحركات التي ترفع شعاراتها، ويزهّدون بها دفعةً واحدةً عائدين إلى ما غرست تربيتهم الأولى في نفوسهم، أي مرتدين إلى طائفاتهم ومتعلّقين بها إلى درجة النقوق ومقاتلين في صفوف التنظيمات التي حملت لواء الدّفاع عنها.

ذلك أن تربيتنا العائلية والمدرسية رسمت لنا صورة الوطن متلبّسةً بالوجه القومي والحضاري لطائفنا. فكان لبنان، في نظر المسيحيين من أبنائه، وطناً متميّزاً عن المحيط الذي يجاوره حتى ليصحّ أن يكونَ واحةً غربيّةً في صحراء

هذا الشرق، كما كان، في نظر أبنائه المسلمين، قطرًا عربيًا معدًا لأن يؤلف جزءًا من الأمة الكبرى الواحدة العتيدة أو، على الأقل، دولة تُحكّم ارتباطاتها بشقيقاتها العربيات وتتخالف معها لخوض معركة المصير المشترك، معركة التحرّر من الاستعمار ومن غاصبي الأرض لإعادة مجد العرب السالف الذي هو في الحقيقة مجد الإسلام.

المتقف الذي أنتجته حرب لبنان، إذًا، منتميًا إلى طائفته لا إلى ثقافة لبنانية شمولية.. لم ينسلخ، في الحقيقة، عن هذه الثقافة الأخيرة للدخول في أفق أصيق، بل كانت الحرب بمثابة الهزة التي أصابته فأعادته إلى وراثته القديمة، كما تدوس على رجل الشقي الذي لطفت طباعه الأيام فتعيده فجأة إلى طبيعته الأولى الكامنة في أعماق نفسه.

الثقافة اللبنانية الشمولية أكاد أقول إنها لم تكن موجودة بشكل عام، أو كانت في طور البناء، عندما جاءت الحرب فبددت كل شيء. ولا غلو في ذلك، إذ إن الصراحة تقتضينا القول بأن الثقافة اللبنانية، أو الحضارة اللبنانية حسبما يُقال في هذه الأيام، هي، من منظور معين، تلك المنطبعة بروحية أولئك الذين جاءوا واعتصموا في جباله هربًا من طغيان المحيط عليهم ودفاعًا عن كينونتهم ومعتقدهم، وهي، من منظور آخر، ثقافة اللغة التي يتكلم بها اللبنانيون، فهم لا يختلفون عن المتكلمين بها وراء حدودهم، لأنّ النتاج الثقافي اللبناني يصب في النهاية في التراث العربي بحيث لا يمكن أن يكون أعلام لبنان في الأدب والشعر والفكر في العصور الحديثة سوى حلقات جديدة في سلسلة موصولة تبدأ بامرئ القيس، مرورًا بالفرزدق والمتنبّي والجاحظ وأصحاب الموشحات، لتصل إلى جبران خليل جبران والأخطل الصغير وأحمد شوقي وطه حسين.

ثقافة لبنان الشاملة يجب العمل على إيجادها منذ الآن. إنها ما ينبغي أن يكون الشغل الشاغل للمتقنين اللبنانيين. وطبعًا لا بدّ أن تتطوّل هذه الثقافة من تلاقي الروحيتين - حتى لا نقول الحضارتين - المتواجدتين في لبنان، ومن انصهار

الثقافتين الشرقيّة والغربيّة في ثقافةٍ واحدة متفرّدة تتميّز عن كليّتهما ولا تكون مجرد مزيج منهما. وقد لا نجد، في الأجواء المحمومة السائدة حاليّاً، استعداداً كافياً من جميع المتّقين للتغلّب على انفعالاتهم وإعادة وصل ما انقطع، لكنّ الرواسب إذا عاشت مدّة في النفوس فإنّها لا تظلّ فيها إلى الأبد.

ولعلّنا هنا بحاجة إلى "تفهّم وتفاهم" أكثر من عالم السياسة، لأنّهما السبيل إلى اقتناع كلّ جناح من جناحيّ لبنان بغنى الإرث الرّوحيّ والفكريّ الذي يملكه الجناح الآخر، وجدارته بأن يكون عنصراً مكوّناً من عناصر الثقافة اللّبنانيّة الشّاملة التي تغرف من ينبوع أفرام السريانيّ والذهبيّ الفم كما تغرف من ينبوع الإمام الأوزاعي والسيد التّنّوخي.

ثقافة لبنان.. وريثة القدس والإسكندريّة وأنطاكية يجب أن تكون، ووريثة بغداد وقرطبة والفسطاط. هذه الثقافة وحدها يمكنها أن تؤلّف ما بين موعظة الجبل وخطبة الوداع، ما بين فصول متى ويوحنا والتّنزيل المبين في حراء، ولن يكون، إلّا بهذا، لبنان.

في رحاب اللغة - الأم

نُشرت في مجلّة "الرسالة" - السنة الثالثة - العددان التاسع والعاشر - ١٥ تشرين الأول ١٩٥٧.

يجدر بنا، أولاً، ألاّ نفهم تعبير "اللغة - الأم" فهماً آلياً، أي أن نأخذ معناه على أنّه لغة البلاد الرسميّة، بل إنّها اللّغة التي وعينا عليها في بيوتنا منذ نشوئنا، والتي كلّما بها أهلنا ثمّ تكلمنا بها، حتى أصبحت كلماتها، بالنسبة إلينا، لاصقةً بمسمياتها، أو محمولةً عليها بحسب التعبير الفلسفيّ لا تنفصلان عن بعضهما، فهما في روعنا وجهان لشيء واحد. فمسألة اللّغة الأمّ هي مسألة نفسيّة وليست مسألة شكلية خارجيّة.

في اللّغة الأمّ ينطلق اللسان في الكلام بصورة عفويّة تلقائيّة، لا يؤمّر بذلك أمراً بل ينبع الكلام من النفس كما ينبع الماء من النبع. إنّ اللسان "يكرج" به كرجاً ولا يأتيه الدافع إلى جريه من عمليّة إراديّة بل ينطلق من ذاته. إنّهُ يكرّ كرّاً، بينما أنّ مَنْ يتكلّم لغةً أجنبيّةً عنه، ليست هي التي وعى عليها حتّى اتّحدت به، يبدو، ولو كان يُتقن هذه اللّغة إتقاناً تامّاً، كمّن يقوم بعمليّة حسابيّة في ذهنه ينتج عنها كلامه. ولنقل إنّهُ يفكر بلغته الأمّ ثمّ يُترجم فكره إلى اللّغة الأجنبيّة، لأنّ تفكيره بلغته الأمّ يصدر عن طبع وسجيّة، عن بديهة، لا عن "إحكام" للقول يتمّ بعمليّة ذهنيّة سريعة.

فاللسان الناطق بلغة أجنبيّة يحتاج إلى "دفع متّصل" من صاحبه لمتابعة قوله، فهو يتلقّى باستمرار "مددًا" عقليّاً وإراديّاً لا غنى عنه.

وفي التكلّم باللّغة - الأمّ لا يحصل "توجّه" من الإرادة نحو هذه اللّغة، بل إنّ الكلام يجري من حاله. حتى إذا أراد الشخص أن يتكلّم بلغة أخرى فإنّه يوجّه

لسانه نحوها، يدفعه إلى ذلك دفعًا، لا بل يكون هناك "تحويل" من اللغة الأساسية إلى هذه اللغة الغريبة. إنَّ الإرادة هنا تتدخل لتحوّل ما كان سيكون أصلاً إلى منحى آخر، وليس هناك مثل هذا "القصد" في التكلّم باللغة الأمّ، بل يكون التكلّم بها محسوماً سلفاً لدى إين هذه اللغة. لذا فإنّ كلّ ما يصدر عن الإنسان بصورة لاإرادية وبغفلة عن انتباهه، كصيحات الألم أو عبارات التعجّب، يأتي بلغته الأصليّة.

وفي التكلّم باللغة الأمّ يكون المجال أمام المتكلّم مفتوحاً على رحبه. فليس أمام اللسان من صعوبة أو من عائق له في جريه، أمّا استعماله غيرها فيكون من نوع "اللجوء" إلى هذه الأخيرة، من نوع الانتقاء والاختيار، حيث هو لا يلجأ لجوءاً إلى لغته الأصليّة ولا يكون استعماله لها اختياراً، توجّهاً مقصوداً نحوها، بل يكون نطقه بها هو الأمر الطبيعيّ الذي يحصل عفواً ومن ذاته ولا يُحوّل إليه تحويلاً.

في اللغة الأجنبية يكون هناك جهد مستمرّ من قِبَل المتكلّم ليتخطّى شيئاً ما والتغلّب عليه، حتّى ولو لم يكن هذا الشيء يشكّل صعوبة بكلّ معنى الكلمة. يكون هناك محاولة دائمة لإزاحة شيءٍ من الطريق، لتجاوز عقبة تقوم في وجهه ولو لم تكن هذه العقبة شيئاً يُذكر. وعادةً لا تكون هذه المقاومة البسيطة ملحوظة من قِبَل المتكلّم باللغة الأجنبية إذا كان يُتقنها جيّداً.. ولكنها موجودة بصورة غير محسوسة.

ولنأخذ أيضاً اللهجة المحليّة لشخص ما، فهذه اللهجة تكون له بمثابة لهجة أمّ، فيها يشعر بأنّه ينطق الكلام كما ينبغي أن يكون. أمّا إذا أتقن لهجة بيئةٍ محليّةٍ أخرى وأصبح يستطيع أن يتكلّمها كأبنائها يظلّ مع ذلك يشعر عند استعماله لها بأنّه "يلوّن" الكلام، يصبغه بصبغةٍ ليست له أصلاً. يشعر بأنّه يحرقه ولا يبقيه على حاله الذي كان عليه. فكأنّ لهذا الكلام، في قرارة نفسه، وضعاً أساسياً هو اللهجة الأمّ لهذا الشخص، وكلّ ما يطرأ على هذا الوضع من خارجه يكون

تحويلاً له عن مساره الطبيعي. فكأنه يشعر بأن لهجته الأم هي التي وُجدت في الأصل، ثم طرأت عليها تصرفاتٌ بها من قبل الغير حادت بها عن صورتها الأساسية.

كذلك يشعر ابن لغةٍ من اللغات بأنَّ بين لغته الأم والأشياء التي تعنيها كلماتها اتصالاً مباشراً. فكأنَّ الشيء مرتبطٌ باسمه.. والعكس بالعكس. أمّا كلمات اللغات الأخرى فليس لها، بالنسبة إليه، مثل هذا الاتصال مع معانيها ومدلولاتها؛ فكأنما، في هذه اللغات، يؤتى بالكلمات اصطلاحاً (conventionnellement) لتتَّعَ بها الأشياء.. وتُلصَقَ بها إلصاقاً دون رابطٍ عضويٍّ أو طبيعيٍّ بين هذه وتلك، أي دون أن تكون الأشياء وأسماؤها في اللغة الأجنبية قد خلقت لبعضها فطرياً كما يشعر بالنسبة إلى مثيلاتها في لغته الأم. كذلك فالتفكير والتكلم باللغة الأم يأتي مباشراً دون واسطة، أمّا التكلم بلغةٍ أجنبيةٍ فهو يأتي نتيجة عملٍ غير مباشر، نتيجة عملية فكريةٍ أوصلت إليه.

وإذ يتكلم الشخص لغته، أو لهجته، الأصلية فإنه يتكلم بصورة طبيعية تأتي دون أن يتوجّه إليها توجّهاً، وعندما يتكلم لغةً أو لهجةً غريبةً عنه فإنه يتكلم التكلم بها، بمعنى أنها لم تكن هي ما سينطقها لسانه لو ترك على سجيته ولم يُحوّل أو يُحَاد عنها بتدخلٍ من الإرادة، لو لم "يُحَدَف" عن اتجاهه الطبيعي إلى اتجاه آخر.

وأنت، إذ تتكلم مع شخصٍ أجنبيٍّ، تشعر ضمناً بأنك إزاء شخصٍ مختلفٍ عنك، فتجاريه في حديثك معه مجرد مجارة، متخلياً، مؤقتاً، عما هو أصيلٌ فيك، ومتنازلاً عن أشياء من ذات كيائك. أمّا عندما تتكلم مع ابن لغتك فتشعر بالانسجام التام بينك وبينه. فهو ليس غريباً عنك.. ولا فارق بينكما، فتتكلم معه كما تتكلم مع نفسك، وتكون عادياً وكما أنت في صميمك، كما فطرت. ولإعطاء مثل آخر نقول: عندما يتكلم الإنسان بلغةٍ أو لهجةٍ ليست له، متكلِّفاً ذلك، يشعر بأنه "يتعمّل" في الكلام، يكيّفه ولا يُبقيه على صورته الأولى. فإذا

كان التكلم باللغة الأم بمثابة السلوك الطبيعي فالتكلم بلغة غريبة يكون بمثابة التمثيل، يكون غير نابع من المتكلم كما ينبع كلامه بلغته الأم. فإننا نلاحظ أن الشخص عندما يتكلم لغته الأم يكون في ذلك صادراً عن صميم "أنه"، يكون هو نفسه، وعندما يتكلم لغة أخرى يستعير شخصية غير شخصيته، فكأنه يخرج من ذاته.

فهناك "تجانس" بين الشخص ولغته الأم. هذه اللغة هي صورة نفسه، مرآتها. هي إفراز من أعماقه. أما اللغة الأجنبية فلا تعكس صورة نفسه كما هي، بل هناك فرق وتباين بينها وبين نفسه في حقيقتها. إنه في هذه الحال يكون شبه غريب عن ذاته، يكون في وادٍ واللغة التي ينطق بها في وادٍ آخر لا يعبر إليه إلا على جسر يصله به، حين لا يوجد مثل هذا المَعْبَر بينه وبين لغة ملتصقة بمهجته التصاقاً. فعندما يجري لسانه بلغة ليست لغته يتنكر لذاته، يتلبس بشخصية أخرى، وعندما يتكلم لغته يعود إلى أصالته، فلا يتصنع ولا يتلون، ولا يكيّف نفسه تكييفاً كما عندما يتكلم بلغة مستعارة.

وقد يتوصل الشخص إلى إتقان لغة أجنبية إتقاناً تاماً أو شبه تاماً.. فينطق بها بسهولة وسرعة، إنما يشعر في قرارة نفسه بأنه قد "تروّض" على هذه اللغة حتى باتت مطوعة له. فهي قد أصبحت عنده "صفة مكتسبة". أما لغته الأم فلم يتروّض عليها تروّضاً بل هي تتدفق منه اندفاقاً، هي نفسه بالذات تتدفق مع الكلام. إن طينة هذه النفس، قرارتها العميقة، هي التي تخرج مع الألفاظ والعبارات. أما عندما يتكلم بلغة أخذها عن غيره، حصلها بالدراسة، فإن شخصيته الحقيقية، غير المشوبة بعنصر غريب، تتطوي تحت برقع يحجب جوهرها الأصيل، جوهرها البريء ممّا هو دخیل عليه، فتكون شخصية مفتعلة ليست هي عجيبته الأساسية التي وُلدَ عليها. وهو عند ذلك يؤدي دوراً أسنده إلى نفسه، ويلبس قناعاً يَكسبه وجهاً غير وجهه الـ authentique بالتعبير الفرنسي.

وأحصر هذا الشرح، ختامًا، بعبارات معدودة، فأقول إنّ اللغة الأمّ تصدر عن صميم الشخص، بينما اللغة الغريبة تصدر عن لسانه فقط بعد عملية سريعة يقوم بها العقل. الأولى هي ترجمة لقرارته ووجدانه، ترجمة روحه القابعة في أغواره، أما الثانية فهي توليد عقلي لا تصبّ فيه النفس ولا تتدفع معه. اللغة الأمّ هي لغة الأعماق، أما استعمال اللغة الأجنبية فيتمّ عن طريق وعي الشيء المراد التعبير عنه ثمّ استحضار التعبيرات المناسبة لنقل الفكرة إلى السّامع أو القارئ. اللغة الأمّ تقوم بينها وبين من هو ابنها صلة كيانية، عضوية، أما اللغة التي تعلّمها، التي تعرّف إليها من بعد، فهو يترجم عن لغته إليها ثمّ ينطق بها. إنّهُ يُعَدُّها في فكره إعدادًا فلا تخرج من صلبه ولا تُبرز هويّته، بل تكون مجرد قناع يلبسه.

هذا الالتصاق للغة الأمّ بنفوس أبنائها بحيث تصبح جزءًا منهم هو ما يوحد قومياً من يتكلمون لغة واحدة هي لغتهم الأصلية المنبثقة من سجيّتهم، من روحهم؛ وهذا العامل يكتسح كلّ عامل آخر من العوامل الموحدة أو المفرقة ويبرز ساطعاً كصاهرٍ للأشتات، على افتراض وجودها، في وحدة تُلغي كلّ تمايز في ما بينها وتحولّها إلى قالب واحدٍ آخذٍ بعضه بعضاً ومفترقٍ عن غيره من القوالب. وهكذا يكون أبناء الضادّ أمّة واحدة ما دام وجدانهم واحداً وما يفرزونه صادرًا عن هذا الوجدان واحداً لا يشتركون فيه مع سواهم. هذه الحقيقة النفسية لا تدحضها النظريات التي يُراد لها أن تكون علمية لأنّ الواقع القائم، الواقع الذي نعيشه، ونلمس حقيقته بالبنان، حقيقة انفتاح نفوس الناطقين بلغة واحدة على بعضها البعض بدون أيّة حواجز حتّى ولو واهية، وبدون أيّة "وسائط" كما يكون الأمر عند التحدّث بغير اللغة الأمّ، بل كأنّ مجرّي واحدًا يصل ما بينها ويجعلها مشرعة الأبواب الواحدة على الأخرى، هذه الحقيقة تكذب كل الاجتهادات العقلية لافتعال نظريات لا ظلّ لها في الواقع الحي الذي هو كجهازه يقطع قول كلّ خطيب.

المسميات وأسمائها

تعليق على كتاب "فلسفة اللغة" للدكتور كمال الحاج، نُشر في مجلة "الرسالة" - السنة الثالثة - العدد الثالث - ١٥ آذار ١٩٥٧.

إنَّ بحث اللغة على صعيد فلسفيّ، الذي تطرّق إليه الدكتور كمال يوسف الحاج باختصار في الجزء الأوّل من كتابه "فلسفيّات"، عاد وتناوله معالجاً إيّاه بإسهاب في كتابه "فلسفة اللغة" الذي خصّه بهذا الموضوع. المؤلّف يلمس في كتابه هذا حقيقتين عميقتين، توصّلنا إلى إقراره عليهما بنتيجة تفكير آخر غير الذي جرى عليه هو. وفي ما يلي ما قرّره الدكتور الحاج، مرفقاً بشرحنا الخاصّ له برهاناً على صحّته.

١- لا فرق بين التفكير والتعبير؛ اللغة لا تنفصل عن الوجدان.

في نظرنا أنّه، بالنسبة إلى الإنسان، لا يوجد كائنات أو ظاهرات مستقلّة نُطلق عليها أسماء تدلّ عليها كما لو أنّنا ندلّ عليها بالإشارة. فليس هناك حقيقة موجودة من ناحية واسم لها من ناحية ثانية، نضع الواحد للأخرى كما نضع اللون للحائط أو الصلاحيّات للموظّف. فالشيء الخارجيّ يتمثّل لنا غير منفصل عن اسمه، يواجهنا وكأنّ اسمه كائنٌ فيه، أو ملازمٌ له. وهكذا فإنّنا، عند وعينا للأشياء والأمور، لا نعيها وعياً مجرداً، لا تتمثّل لنا صورها ومفاهيمها فقط، بل تبرز معها أسمائها وكأنّها منقوشة عليها. ويحصل من ذلك أنّنا لا نفكّر تفكيراً محضاً بل نفكّر متكلمين؛ إنّنا نتكلّم مع أنفسنا كما نكلّم الغير.

هذا في ما يتعلّق بنظرتنا إلى الموجودات والظاهرات (الظاهرات يُقصد بها الأمور المعنويّة)، أمّا في ما يتعلّق بنظرتنا إلى الكلمات نفسها، إلى الأسماء، فإنّها ليست

بالنسبة لنا رموزًا نعرف عن طريق استخدام الذاكرة أن المقصود بها كذا وكيت. إنها تصبح ذوات أجسام هي أجسام ما تعنيه هذه الكلمات. فالكلمة بالنسبة لنا تبدو محمّلة بهذا الثقل الذي وراءها. إنها والمراد بها ملتصقان التصاقًا، لا مترادفان ترادفًا أو متقابلان تقابلًا، فكأنّ الاسم قد امتزج وانعجن به.

إنطلاقًا من هذه الحقيقة نصل إلى تقرير ما قرّره الدكتور الحاج بشأن اللغة الأم:

إنّ الاسم ليس سهمًا أو علامة تشير إلى المقصود بها، بل إنه ينبو عن المقصود ويقوم مقامه. إنّ الاسم يحجب مسمّاه نوعًا ما أو يطغى عليه. فإنّنا عندما نتكلّم كأننا نكتفي بالكلمات ولا نرمي إلى ما في طيّاتها. الحاجة تُستوفى بأن نذكر الكلمات بعبارات مفيدة دون الرجوع بالفكر إلى مدلولاتها. فالكلمة تصبح أكثر من ترتيب حروف صوتيّة أو كتابيّة تدلّ على شيء ما كما يدلّ الشعر أو العنوان، يصبح هناك شبه تماثل بين الكلمة ومعناها. وإذا بالكلمة تغدو صورةً لمدلولها، شكلًا منقولاً عنه، كصورة هذا الشيء المرسومة. فكلمة "الماء"، مثلاً، تنطلق من الفم وكأنّها سائلةً سيلانًا على اللسان كما يسيل الماء، وكلمة "الخضار" تتمثّل لنا باللون الأخضر؛ فلها، بين سائر الكلمات، منظر خاصّ، طلعة خاصّة كما للخضار الكاسي جزءًا من الطبيعة بالنسبة إلى سائر مجاليتها، وهذا لا يمنع أن تتراءى لنا عبرها صورة الرقعة الخضراء التي تشير إليها الكلمة في المشهد الذي أماننا. ولطالما كانت كلمة "الأخضر" تشعّ في مخيلتنا اخضرارًا، وكلمة "الأحمر" تشعّ احمرارًا، وكلمة "الأصفر" تتراءى لنا متّسحة باصفرار الوجوه المريضة أو الجائعة واصفرار النور الشاحب.

ولكنّ هذا الإحساس الذي يشعر به الشخص إزاء الكلمة لا يكون إلّا بلغته الأساسية، وينقلب الحال في اللّغات الأخرى التي يجيدها فتصبح كلماتها رموزًا يعرف مدلولاتها عن طريق استخدام الذاكرة، كما يعرف مدلولات الشيفرة أو

الإشارات الضوئية. وبمقدار ما يتصلع من هذه اللغات، أو يتمرس بالتكلم أو الكتابة بها، بمقدار ما تنتقل كلماتها في ضميره من اصطلاح متفق عليه إلى بناء يقوم شكله على مثال ما يعبر عنه، ولكنها، بأي حال، لا تبلغ مبلغ كلمات اللغة الأساسية من هذه الوجهة. فالإنسان، ولو أصبح يشعر بأن لكلمات اللغة الأجنبية التي يتقنها شيئاً من الشراكة مع مدلولاتها، إلا أن هذه الكلمات لا تصبح في روعه ملازمة للأشياء التي تعنيها. فقد سبق وقلنا إن الشيء الخارجي يتمثل لنا غير منفصل عن اسمه، يطالعنا وكأن اسمه قابع فيه، ولكن هذه الملازمة الحاصلة عفويًا في ضمير الشخص لا تكون، مبدئيًا، إلا بين الأشياء وأسمائها بلغته الأم. وقد استنتجنا من هذا التلازم بين الأشياء وأسمائها أننا لا نفكر تفكيراً محضاً بل نفكر متكلمين، ولكننا، عندئذ، لا نفكر إلا بلغتنا الأم، وعندما نريد أن نتكلم بلغه نعرفها غير لغتنا الأم فإننا، بعملية سريعة، نفكر بلغتنا ثم "نترجم" إلى اللغة الغريبة.

إننا إذ نفكر بأي شيء من الموجودات المحسوسة، أو بأي أمر من الأمور المعنوية، نتطلق من الكلمات التي يتضمنها هذا التفكير وكأنها تصدر عن هذه الأشياء أو الأمور بالذات. فلسنا نحن من يكشف أن هذا الشيء في العرف اللغوي اسمه كذا ثم نستعمل هذا الاسم للشيء الذي يشير إليه، وإنما يبرز الشيء واسمه لو عينا في آن واحد، يبرزان سوية وكأن الشيء يحمل اسمه معه. تماماً كما يحصل لنا عند القراءة، فإننا، إذ نرى الحرف الأبجدي مكتوباً، لا نلجأ إلى ما اختزنناه من المعرفة لنقرر أن هذا الشكل الكتابي هو لحرف الياء أو غيره، بل نرى في الحرف المكتوب ياءً أو سواها كما لو أن هذا الحرف صورة وليس رمزاً دلاليًا. ففي هذا الحرف المدون نرى الياء ناطقة، ومثلها أي حرف آخر، كما ننظر إلى الشيء بالذات فنرى فيه ماهيته أي ما هو بين الأشياء.

صدور الأسماء عن مسمياتها بهذا الشكل، حتى لكأنّ الأشياء تُفصح عن أسمائها وتصرّح بها، لا يكون إلّا في اللغة الأمّ، أمّا في باقي اللّغات فإنّنا نضطرّ إلى استخدام معرفتنا المحصّلة لنطابق بين الشيء والاسم الذي نطلقه عليه في هذه اللّغات. في اللغة الأمّ يصبح الاسم ومسمّاه وجهين لحقيقة واحدة. فالاسم هو شكل آخر للكائن أو للشيء كشكله الذاتي، به يُطلّ على الوجود كما يُطلّ بلونه وتكويره الهندسيّ. فالاسم مرتبط بشيئه أو مندغم فيه كما أنّ اللون والشكل ملتزمان بهذا الشيء ويظهران وكأنّهما هذا الشيء بالذات.. الذي يستحيل لدينا إلى صورة عينية مؤلّفة من لون أو ألوان ونسق أبعاد (dimensions)، أمّا في غير لغتنا الأمّ فإنّ الأسماء بالنسبة إلينا هي نعوت تواضعنا على إطلاقها لتعيين الأشياء من أجل تمييزها عن بعضها البعض في كلامنا عنها كما هي متميّزة عن بعضها البعض في واقعها المجسم أو كما تتميّز المفاهيم الاعتباريّة في عقلنا بحسب معنى كل منها.

وفي ما يلي برهان يوضح كيف نتحسّس لغتنا الأمّ تحسّساً وكيف ننقن غيرها إتقاناً عقلياً فقط:

نحن نتمثّل الأشياء على أنّها مذكرة أو مؤنّثة بحسب ما هي عليه من هذه الناحية في لغتنا الأمّ. فإنّ الجمادات التي لا جنس لها تتّشح في نظرنا بمظهر ذكريّ أو أنثويّ. وفي حال إجادتنا لغة ثانية تذكر ما تؤنّثه لغتنا وتؤنّث ما تذكره فإنّ هذا لا يغيّر من تصوّرنا الراسخ في روعنا لها، والسبب هو أنّ صفة المذكر أو المؤنّث في أسماء الجنس بلغتنا الأساسيّة تُظهر مسمياتها وكأنّها فعلاً ذكراً أو أنثى. إنّنا نتمثّل الشمس أنثى لأنّ اسمها في لغتنا مؤنّث، ونتمثّل القمر ذكراً لأنّ اسمه في هذه اللغة مذكر. أمّا من لغته الأمّ الفرنسيّة فإنّ الشمس عنده ذكر (le soleil) والقمر أنثى (la lune). فالاستعمالات اللّغويّة المذكرة أو المؤنّثة لا تحدّد جنس ما لا جنس له في الأصل، كالجملات والنبات والأمور الاعتباريّة (حجر، شجرة، فضيلة)، تحديداً صرفياً فقط، بل تطبع المسمّى بطابع

الجنس الذي أُعطيَ له في اللُّغة، فنخلع عليه وشاحاً تصوُّرياً يجعله كأنه كائن حيّ له جنس معيّن.

أمّا في اللُّغة الأجنبيّة فإنّنا نستعمل الكلمة - الاسم بصيغتها المذكرّة أو المؤنّثة بحسب الصفة التي أُعطيت لها في هذه اللُّغة، ولكن دون أن يتمثّل لنا مُسمّاها متوشّحاً بهذا الجنس. أي أنّنا نعرف كون هذا الشيء مذكراً أو مؤنثاً في اللُّغة الأجنبيّة لأنّنا تعلّمنا ذلك في درسنا إيّاها، ولكنّنا لا نتمثّله بوجهٍ ذكريّ أو أنثويّ كما نتمثّله في لغتنا الأمّ. فمعرفتنا لصيغة التذكير أو التأنيث للمسمّيات في اللُّغة الأجنبيّة، واستعمالنا لأسمائها كما أريد لها أن تكون في هذه اللُّغة، لا يقويان على تحويل جنس الأشياء عمّا طبعت له لغتنا عنه في عقولنا. ذلك أنّ إجادتنا للُّغة الأجنبيّة تأتي متأخّرة زمنياً عن امتلاكنا للغتنا الأمّ، فيكون تصوُّرنا لجنس الأشياء قد استقرّ في أذهاننا على وجهٍ لا يمكن إحلال وجهٍ آخر محلّه.

هنا الفرق بين اللُّغة التي تعيش في صميم الإنسان واللُّغات المخزونة في ذاكرته. وقد يريد الدكتور الحاج أن يقول إنّ الإنسان لن يتوصّل إلى إجادة لغة ثانية على قدم المساواة مع لغته التي نشأ عليها، أمّا نحن فنرى أنّه ولو توصّل إلى هذه الإجادة فستظلّ ألفاظ لغته الأمّ وحدها، بالنسبة إليه، ألفاظاً تتجسّم فيها معانيها وتتوحّد معها، أمّا ألفاظ اللُّغات الأجنبيّة التي تعلّمها فستظلّ في ذهنه رموزاً مصطلحاً عليها (signes conventionnels).. نفهم القصد منها كما نفهم معنى الألغاز المتفق عليها إذ نتبادلها بواسطة الصفّارات أو سواها، وسيظلّ هذا الإنسان، عندما ينظر إلى الموجودات أو يفكر في المفاهيم، يرى اسمها وجنسها اللّذين لها في لغته الأمّ لاصقين بها كشكلها ولونها، يقرأ اسمها إذ ينظر إليها أو يفكر بها وكأنّه مكتوب على وجهها.. مع جنسها كما هو في لغته.

حتّى أنّ الأشياء في لغتنا تبدو لنا أسماؤها وكأنّها مولودة معها، تبدو كأنّها الأسماء الطبيعيّة البديهيّة لها التي لا يمكن أن يكون لها غيرها؛ أمّا الأسماء المنسوبة إليها في اللُّغات الأجنبيّة فتبدو معطاة لها لا نابعة منها. فالبحر بالنسبة

لنا كأنَّ اسمه "البحر" منذ أن كان هناك بحار، لا نتمثِّل صفحته الزرقاء إلاَّ وكلمة "بحر" طافية على وجهها وغائرة في جوفها، أمَّا تسمية mer أو sea فلم يحملها مسمّاها من نفسه بل حُمِّلَ إليها.

هذا هو شعورنا إزاء التسميات الأجنبية لما ندعوه "كذا" بلغتنا. فما جاء من هذا القبيل في لغتنا هو التسمية الـ propre للشيء، أي التي وحدها تنطبق عليه وتكون صورةً عنه، أمَّا التسميات باللُّغات الأجنبية فهي "كنايات" مُنحت للأشياء ولم تنبثق منها. تسمية الشيء في لغتنا كأنَّه أتى بها معه وأملأها إملاءً، أمَّا التسمية التي أعطتها له اللُّغات الأجنبية فهي مجرد "كليشيات" للتفاهم. إسمه في لغتنا هو صورته، يظهر فيها كما يظهر في صورته الملتقطة أو المرسومة، واسمه في اللُّغة الأجنبية هو مجرد تعريفٍ دمغوه به ليستطيعوا أن يدلّوا عليه ويتفاهموا بشأنه.

نحن نلتقي، إذًا، مع الدكتور كمال الحاج في النتيجة وإن سلكنّا إليها طريقًا آخر، إنّما يتبيّن، سواء من تحليله أو من تحليلنا، أنّ هذه المسألة تدقُّ على الفهم إلى درجة الخفاء، ولا بُدَّ لها من لحظٍ مرهفٍ شفافٍ ليكنّتها ويَعقلها ليستطيع، بالتّالي، أن يخوضَ في موضوعها.

اللهجة العامية في المنظار اللغوي

لم تُنشر سابقاً.

دعاة إحلال العامية محلّ الفصحى يقدّمون أسباباً عدّة لذلك، منها أنّ العربية الفصحى لغة قديمة لم تعدّ تجاري العصر، عصر العلم والتقنيّة الذي بات يحتاج لغةً حديثةً تستوعب مفرداته ومصطلحاته الجديدة بمقدار ما استحدث التقنم العلميّ من مخترعاتٍ وأشياء لا أسماء لها في العربية، وتؤدّي، هذه اللّغة الحديثة، المفاهيم الدقيقة المعقّدة الناتجة عمّا أوجد هذا التقنم من معارف، وكشف عن حقائق وطرح من أفكار ليست اللّغة الفصحى مؤهّلةً للتعبير عنها وهي التي لا تزال إلى اليوم تستعمل تعابير من وحي حياة العرب الغابرة، حياة البداوة والعيش في الصحراء.

قابليّة التطوّر في اللّغة العربيّة، ومماشاتها لكلّ ما يطراً من جديد، لم تعدّ بحاجة إلى إثبات. فقد برهن عليها علماء أعلام في مؤلّفات مطوّلة، وأكدّتها التجربة العمليّة بصدور سيلٍ من الكتب بهذه اللّغة تتناول كلّ فرع من فروع العلوم الحديثة، كما ثبت صلاحها كلغة تدريس للعلوم.

أمّا السبب الثاني فهو أنّ العربية الفصحى لم تعدّ لغة الحياة، فما من أحدٍ في العالم العربيّ كلّ ينطق لسانه بها وإن كتبها بقلمه، ويستخلصون من ذلك وجوب إحلال العامية مكانها كلغة كتابيّة ولغة رسميّة كما هي قائمة كلغة تحدث، باعتبار أنّها لغة القلب والوجدان، آخذين الشواهد من اللّغات الأخرى التي تفرّعت لهجاتها العاميّة من اللّغة الأصليّة، ثمّ تطوّرت حتّى حلّت محلّ تلك اللّغة، كالإيطاليّة التي اشتقت من اللّاتينيّة، واليونانيّة الحديثة التي نشأت عن

الإغريقية القديمة، والإيرانية التي تحدّرت من الفارسية، والعبرية كما هي اليوم بالنسبة إلى لغة التوراة والمزامير ونشيد الأنشاد.

نعم، هذه اللغات التي انبثقت من لغةٍ أمّ تطوّرت، وأشدّد على كلمة "تطوّرت"، حتّى أصبح كلّ منها لغةً بكلّ معنى الكلمة كسابقتها المهجورة ولم تعد مجرد لهجة. لقد غدت لغةً أكاديمية كاللغة التي نشأت عنها، بمعنى أنّه أصبح لها أصولها وقواعدها واشتقاقاتها المنطقية بحسب منهجية علم اللغات. فمن المعلوم أنّ اللغة ليست مجرد مصطلحات وُضعت ليفهم الناس بواسطتها على بعضهم فقط، وإلاّ لكان التفاهم بالإشارات والإيماءات والرموز كافياً لهذا الغرض، بل اللغة هي شبكة مترابطة متماسكة ذات مقاييس تطبّق عليها بصورةٍ موحّدة في جميع الحالات المتشابهة، فهل توصّلت لهجاتنا العامية، وأحصر كلامي هنا بالعامية اللبنانية، إلى استكمال تطورها حتى تغدو صالحة لخلافة اللغة الفصحى كلغة معتمدة نهائياً؟

يكفي إعطاء بعض الأمثلة لنرى أنّ عاميتنا اللبنانية لم تتوصّل بعد إلى مرتبة اللغة المكتملة النضج، بمعنى أنّها ليست بعد منظّمة تنظيمياً علمياً يستند إلى أساسٍ مدروس في التصاريف والاشتقاقات يمكن من وضع كتبٍ في أصولها وقواعدها، بل لا تزال المتناقضات والاستعمالات المختلفة حيث يجب أن تكون موحّدة.

لنأخذ، مثلاً، لام الجرّ عندما تدخل على ضمير متّصل، فهما يشكّلان عند ذاك كلمة واحدة في العامية والفصحى على السواء. نقول في الفصحى: "لك عينان" وفي العامية: "إلك عينين" أو "لك عينين"، أو "له ذنب" و"لُو ذنب". فإنّ "لك" الفصحى و"إلك" أو "لك" العامية، وكذلك "له" و"لُو"، كلّ منها يؤلّف كلمة قائمة بذاتها في الفصحى والعامية. ولكنّ الفصحى تظلّ أمانةً على هذه القاعدة في جميع الظروف والتحوّلات، بينما تحصل مغالطة منطقية في العامية عندما تدخل لام الجرّ هذه على الضمير المتّصل بعد فعل، فعند ذاك تُدغمان مع الفعل

في كلمة واحدة: "قلنَّلك" و"قلنَّلو"، مع أنَّ المعنى يفرض أن يكون أدأؤه بكلمتين: فعل القول، ثم الدلالة على مَنْ يوجَّه إليه هذا القول. فالفعل، ومتلقي الفعل، متميَّزان عن بعضهما ولا يصحُّ جمعهما في كلمة واحدة. أمَّا في الفصحى فتظلُّ لام الجرِّ تولِّف مع الضمير المتَّصل كلمة مستقلة منفصلة حتَّى ولو كان ما قبلها فعلاً، وهذا هو الصحيح، لأنَّ الكلمة إذا كانت قائمة بذاتها فينبغي أن تظلَّ كذلك دوماً أسوةً بكلِّ كلمة قائمة بذاتها.

قد يعترض البعض بقوله إنَّ شكل الكتابة بالعامية لم يتقرَّر بعد بصورة نهائية، وإنَّ بالإمكان كتابة الجملة هكذا: "قلت لك"، و"قلت لو"، ولكن يجب أن ننتبه إلى أنَّ طريقة لفظنا لفعل القول مع حرف الجرِّ والضمير المتَّصل تدلُّ على أننا نلفظ كلمة واحدة لا كلمتين اثنتين، والكتابة يجب أن تكون منسجمة مع اللفظ لأنها صورته على الورق. فنحن لا نقول: "قلت لك" بل "قلنَّلك" بتشديد اللام الثانية، ولا يمكننا تشديد أوَّل الكلمة إذا أردنا فصل "لك" عن فعل "قلت" كتابةً لأنَّ اللام عندئذٍ تصبح الحرف الأوَّل من الكلمة، وطبعاً لا يمكن تشديد أوَّل الكلمة.

وحتَّى هذا التشديد نفسه لحرف اللام عندما تكون الـ "لك" مدمجة مع الفعل نتساءل على أيِّ أساسٍ حصل؟، فإنَّ "لك" وحدها إن لم تتَّصل بالفعل لا تكون لامها مشدَّدة ولا يمكن أن تكون كذلك كما أشرنا، فما هو موجب تشديدها، إن لم يكن لمجرد الاستتقال، عند إدغامها مع الفعل؟

كما نلفت النظر إلى زوال صيغة المثني في التعبير العامي الذي أوردناه: "لك عَيْنين". فكلمة عَيْنين هي في العامية جمع مثل "عُيون" في الفصحى و"عُيون" في العامية. نقول: "عَيْنين" و"عُيون" بمعنى واحد، مع أنَّ المثني يشكِّل في اللغة العربية صيغةً فريدةً متقدِّمةً بالنسبة إلى سائر اللغات. وإذا قيل إنَّ هناك مثني في العامية يتمثِّل في كلمة "عَيْنَتَيْن" قلنا: "وما هو مفرد "عَيْنَتَيْن"؟"، هل هو

"عَيْنَة؟" إن كلمة "عَيْنَة" غير موجودة في العامية بمعنى "عين" لنضع لها هذا المثني.

وملاحظة أخرى أن "قلناك" أو "قلت لك" يكون فيها حرف الجرّ، اللام، محرّكاً بالفتح، وفي "إلك عينين" يكون هذا الحرف أيضاً محرّكاً بالفتح، أمّا إذا قلنا: "إلك عينين" (وإلك وإلك) في العامية هما استعمالان بمعنى واحد فتصبح اللام محرّكة بالكسر.. فلماذا؟!!

مثل آخر: إنّنا نستعمل في العامية كلمة "بدي" بمعنى "أريد"، وهي محرّفة عن الكلمة الفصحى "بودي" المؤلفة من حرف الجرّ، الباء، والودّ بمعنى الرغبة بالشيء، "أودّ أن أفعل كذا"، وهو في الأصل حبّ الشيء وتمنيه كما جاء في المعجم، ممّا لا يختلف عن الرغبة به. فإذا حللنا الكلمة العامية "بدي" إلى مركّباتها هذه نجد أن الواو، وهي الحرف الأول من كلمة "ودّ" قد تبخّرت خلافاً لمقابلها في الفصحى: "بودي"، فكيف يجوز منطقياً أن يُشطب هذا الحرف لتصبح كلمة "ودّ" الداخلة في تركيب "بدي" أصلاً مؤلفة من حرف واحد هو الدالّ الباقية لها؟! إن كلمة "بدي" ليست كلمة جامدة لا علاقة لها بأصلها الإتيولوجي إذ لا يمكنها أن تفيد معناها إلّا عن طريقه، أي أن بودّ قائلها أن يفعل الشيء الفلاني أو أن يحصل عليه.

أمّا إذا اعتبرناها بمقام الفعل المضارع "أريد" أو "أرغب" فما عسى أن يكون الماضي والأمر من هذا الفعل كما يتوجّب في كلّ فعل؟، وما هو المصدر الذي اشتقّ منه؟

وكلمة "توديني" هي أيضاً منحوتة من كلمتين: "تودّي بي"، فأدغمت "بي" في كلمة "تودّي" لتصبح الكلمة الجديدة فعلاً ماضيه "ودّاني" ومضارعه "يودّيني" وأمره "ودّيني". ولكنّ الملفت للنظر هو أن هذا الإدغام بالذات قد حصل في اللهجة المصرية أيضاً، ممّا يدلّ على ما سوف نشير إليه في التّالي من هذا

المقال، وهو أن اللهجات العامية العربية تطوّرت معاً في سياق واحد يدلّ على التواصل في ما بين أقطارها.

وأيضاً كلمة "منه"، المؤلّفة من حرف جرّ: "من" وضمير متّصل: "الهاء"، تدخلها الألف للتأنيث فتصبح "منها"، أي أنّ حرف الجرّ والضمير يبقيان على حالهما مضافةً إليهما علامة التأنيث. أمّا في العامية فالضمير هو الواو بدلاً من الهاء: "منو". ولا اعتراض على ذلك، فكلّ لغة حرّة بأن تُبدّل حرفاً بحرف، أو لفظاً بآخر، حسبما يناسبها، ولكنّ الاعتراض هو على الصيف والشتاء على سطح واحد، كما يحصل عند إضافة علامة التأنيث إلى "منو" فيخفي الضمير الذي هو الواو وتصبح الكلمة "منا" بالتشديد أو "منا" بدون تشديد بدلاً من "منوا"، بينما هذا الضمير يبقى موجوداً في الكلمة مع صيغة التأنيث في الفصحى: "منها". ولنلاحظ أيضاً كيف نلفظ المؤنث العامي بالتشديد حيناً وبدون تشديد حيناً آخر: "منا" و"منا"، حين المذكر مشدّد دوماً: "منو"، وهذا دون مسوّغ لتشديده لأنّ نون "من" بدون الضمير لا تكون مشدّدة.

ونحن إذا أردنا أن نقول بالعامية إنّ الشيء يوجد منه نقول: "في منو"، فيقوم هكذا حرف مقام فعل، أي يقوم الحرف الذي هو "في" (ليس بمعنى الحرف الأبجدي بل بمعنى أنّ اللغة العربية مؤلّفة من أسماء وأفعال وحروف مثل من، في، عن، على، إلخ...) مكان فعل "يوجد". والأصل في هذا التحريف هو "فيه منو" أي يوجد في هذا المكان من هذا الشيء (الضمير، الهاء، عائد للمكان). ولكنّ المكان غير مقصود بتاتاً في هذا التعبير، بل المقصود هو أنّ الشيء متوفّر عموماً وغير مفقود، في حين أنّ الضمير ينوب عن الأسماء ولا يمكن استعماله للدلالة على توفّر شيء بالمطلق. أي أنّ التعبير العامي انقلب من الدلالة على توفّر الشيء في مكان معيّن هو الذي ينوب عنه الضمير في "فيه" إلى التعبير عن محض وجود الشيء. وحتى الضمير نفسه في "فيه" قد حُذِف في العامية لتبقى "في" وحدها وتُستعمل بمعنى "موجود".

وكلمة "كياسة" يُشْتَقُّ منها النعت فيكون "كَيِّس"، أمّا في العامية فهذا النعت يصبح "كويّس"، أي مع واو دخيلة لا مبرر لها لغويًا لإضافتها إلى الكلمة.

وهناك كلمة "عقبال" العامية المنحوتة من "العُقْبَى لـ..." في الفصحى عندما نتمنى لشخصٍ من الأشخاص مثيلًا لما أصابه شخص آخر من حظٍ أو خير، أو لما أقبل عليه من فرحٍ أو ما شابه. وقد احتفظت "عقبال" بهذا المعنى في العامية، ولكن لا يمكنها أن تؤدّيهِ كما ينبغي أن يؤدّي ما دامت لام الضمير، التي تشير إلى الشخص المتمنى له، قد اختفت بإدغامها بكلمة "عُقْبَى" لتصبح حرفًا من أصل هذه الكلمة ولم تعد ضميرًا متصلاً نعرف بواسطته لمن العُقْبَى.

هذا عدا عن أنّ ال التعريف في "العُقْبَى" قد اختفت في "عقبال"، فكأنما صرنا نقول: "عُقْبَى لَكَ" وهذا لا يصحّ لأنّ "العُقْبَى" هنا يجب أن تكون معرفة. فهل يصحّ أن نقول لإنسان على أثر ما نال إنسان آخر: "مرّة الجايي إلّك؟" أم "المرّة الجايي إلّك؟" (وفي العامية يقولون فعلاً: "مرّة الجايي إلّك" بدون تعريف، ويُقاس على ذلك كثير من التعابير العامية التي تستعمل صيغة النكرة حيث يجب التعريف).

وهناك كلمة "لأم" التي تتضمن معنى الحذر أو الاحتمال: "لأم توقع"، "لأم تُغلط"، وأصلها "لنقوم توقع"، "لنقوم تُغلط"، فأصبحت "لنقوم" "لأم" أو "لقم" بالنسبة إلى من لا يزالون يلفظون القاف كما هي في الفصحى.

ومثلها أيضًا كلمة "مدري" العامية التي أصلها "ما أدري". نقول: "مدري كذا، مدري كذا"، أي "ما أدري إذا كان الأمر هكذا أو هكذا". ففي الأساس كان في العبارة "ما" النافية، أي "لست أدري". ففي صيغة "ما أدري" نُفِيَتْ حال الدراية بالحرف "ما"، وبحلول "مدري" محلّ "ما أدري" لم يعد هناك علامة نفي ولم يعد هناك فعل (أدري)، مع أنّ المعنى بقي في العامية على حاله أي كما يُراد منه في الفصحى. فكيف تنفي "مدري" معرفة قائلها بحقيقة الأمر بدون حرف نفي، وبدون الفعل الذي يُشير مع حرف النفي هذا إلى عدم الدراية؟ فهل تُنْفَى الدراية بدون ذكر الفعل المشتقّ منها والذي يجب ذكره حتى يُستطاع نفيه؟ ذلك أنّ

كلمة "مدري" لا يُمكن اعتبارها فعلاً سواء كان فعلاً مجرداً أو ملحقاً به حرف نفي. فالميم في "مدري" بدون الألف ليشكلاً معاً حرف "ما" لا يمكن أن تكون لوحدها أداة نفي، والكلمة بمجموعها أو بدون الميم الدخيلة عليها لم تعد تنطبق عليها صفة الفعل، فكيف تكون في هذه الحالة كلمة مفيدة لمعنى معين؟ هناك لهذه المسألة مخرج واحد، وهو اعتبار "مدري" بمقام "إِما" و"أو"، فنقول: "مدري كذا، مدري كذا" بمعنى "إِما كذا وإِما كذا"، "أو كذا أو كذا"، فلا يعود عندئذٍ موجب لحرف النفي.

ويظهر الانحراف عن الاستعمال المنطقيّ جلياً في كلمة "مَنين؟" العامية التي أصلها "من أين؟". فهاتان الكلمتان تؤلفان جملةً استفهاميةً عن المكان الذي جُلِبَ منه الشيء. "من" التي لا تكتمل العملية الاستفهامية بدونها مثل (d'où) d' بالفرنسية، و"أين" التي يُراد بها معرفة المكان الذي كان فيه الشيء وجيء به منه.

هاتان الكلمتان أُدغمتا معاً في العامية في كلمة واحدة هي "مَنين؟"، فلم يعد هناك حرف جرّ (من) ولا اسم مكان (أين) وهما ضروريّان لأداء المعنى المقصود، وليس أدلّ على ضرورتهما من أنّ الجواب على السؤال المطروح سيكون: "من المحلّ الفلاني" الذي يشتمل على "من" وعلى تعيين المكان. كما ليس أدلّ على هذه الضرورة من أنّ هناك صيغة عامية أخرى لهذا السؤال وهي "من وين؟" بجعل الواو تحلّ محلّ الألف في كلمة "أين". فهذه الصيغة الأخيرة تماثل صيغة "من أين؟" الفصحى مع إبدال حرف بحرف، وهو ما سبق أن قلنا بصددّه إنّ اللّغات حرّة في تركيب كلماتها مثلما عندما جعلت الضمير "هاء" في الفصحى ينقلب إلى "واو" في العامية. ولكن أن تُدغم الكلمتان ببعضهما فتغيّب مركّبات الجملة الاستفهامية، الضرورية لتكون جملةً من هذا القبيل، لتحلّ محلّها كلمة جامدة هي "مَنين؟" فهذا لا يشكّل قطعاً ما يفيد المعنى المقصود.

وإننا نتساءل لماذا إذا كان السؤال هو لمعرفة أي من مكانين أو أمكنة جُلب هذا الشيء يظلّ حرف الجرّ واسم المكان موجودين غير مُدغمين: "من هون أو من هونيك جبتو؟". فلماذا هنا ضرورة وجودهما لا محيص عنها وفي الاستعمال الآخر، المتضمن نفس الجملة الاستفهامية وإنما بدون تعيين مُسبق لأمكنة محتملة، لا تعتمد الصيغة الأساسية كما هي في الفصحى؟

ومن الشذوذ الفاضح استعمالات كلمة "عند" إذ يلحق بها ضمير متّصل في العامية. ففي مفرد المتكلم والمخاطب والغائب يبقى حرف الدالّ موجوداً: "عندي، عندك، عندو" أو "عندا"، وفي جمع المخاطب والغائب تبقى الدالّ أيضاً: "عندكن"، "عندن"، ولكنها تختفي في جمع المتكلم إذ تصبح الكلمة "عنا" لا "عندنا". هذا مع الإشارة إلى اختفاء الضمير أيضاً في "عندا" و"عندن" (لا "عندها" و"عدهن"، أي في صيغة المؤنث الغائب)، بينما يبقى هذا الضمير ماثلاً في "عندك" و"عندكن" (أي في صيغة المخاطب المذكر والمؤنث)، وفي "عندو"، أي في صيغة المذكر الغائب؛ وإذا فلا قاعدة في هذا الاستعمال العامي، بل هو يجري بحسب ما يسهل على اللفظ ويدور على اللسان.

ومن الأمثلة أيضاً على ذلك أنّ المفرد، حين يحول إلى جمع، فإن الكلمة تبقى هي ذاتها ويضاف إليها الحرف أو الحروف التي تدلّ على الجمع. مثلاً: إصبع تغدو أصابع. وهذا ليس في اللغة العربية فقط، بل في اللغات الأجنبية أيضاً. فبالفرنسية يُزاد حرف S على الأسماء والـ ENT على الأفعال لتغدو جمعاً.. فيما الكلمة، ما خلا ذلك، باقية على ما كانت عليه في المفرد. أمّا في العامية اللبنانية فجمع "إصبع" الذي ينبغي أن يصبح "أصابع" بدلاً من "أصابع" في الفصحى نرى أنّه أصبح "صابيع" بحذف الألف من أوله وهي الموجودة في مفرده، فتبعاً لأية قاعدة كان ذلك.. فيما الألف هي من أساس الكلمة في مفردها؟ ومع العلم بأنّه، في المثني، تبقى هذه الألف موجودة: "إصبعين"؟ أليس في هذا دليل على أن لا قاعدة في العامية بل هي تعبر كيفما كان الأمر؟

شدوذ آخر: إنَّ الاسم إذا كان نكرة في اللّغة فنعتته يجب أن يكون نكرة كذلك لأنَّ النعت يتبع المنعوت كما هو معلوم. فالقاعدة اللّغويّة هذه مبنية على أنَّ الصفة ملحقة بالموصوف.. فمن البديهي أن تتبع حاله، وهذا ليس في اللّغة العربيّة فقط بل في كلّ اللّغات، فالمنطق يفرض ذلك. ولكننا نجد في العاميّة عبارات مثل "عقل الزغير" بمعنى "العقل الصغير"، و"شَبَّ الأسمر" بمعنى "الشابَّ الأسمر"، فيصبح هكذا الاسم نكرة والنعت معرفة، وتصبح كلمتا "الزغير" و"الأسمر"، بناءً على هذه الصيغة، مضافاً إليه لا نعتاً، في حين أنَّ المعنى المراد منهما يجعلهما صفة أي نعتاً لا مضافاً إليه، إذ تحمل الواحدة صفة الصَّغَر والثَّانية صفة السمرّة للموصوف، أمّا إذا استعملنا "عقل الزغير" لا "العقل الصغير"، بجعل كلمة "عقل" مضافاً و"الزغير" مضافاً إليه، فيتغيّر المعنى المقصود إذ يصبح كأننا نريد القول: "عقل الولد الزغير"، أي أنَّ "الزغير" تصبح نعتاً لكلمة مضمرة غير ظاهرة هي "الولد" أو "الطفل"، لا نعتاً للعقل بأنّه صغير. وفي هذه الحال لو أدخلنا التحريك على "الزغير" و"الأسمر" لوجب تحريكهما بالكسر لا بحركة المنعوت كما ينبغي أن يكون الأمر، والحمد لله على أن ليس في العاميّة تحريك حتى لا يَفْضَح هذا الاستعمال الخاطي، على أنّه للعارفين ظاهر للعيان. وقد سبقنا على ذكر هذا الشذوذ في ما يتعلّق بـ "مرّة الجايي" و"المرّة الجايي" لأنَّ السياق في حينه اقتضى ذلك.

كذلك كلمة "في" بمنى "ضمني" تُلفظ في العاميّة "فِي" أو "فيني"؛ فمن أين جاءت الياء الثَّانية أو النون، وما هو موجب إدخالهما على الكلمة؟ فالتشديد في "فِي" دليل إدغام ياعين، فتكون الياء الثَّانية في الكلمة هي في الحقيقة ياءً ثالثة. وأمّا النون في "فيني" فدخلية مجلوبة، كما أنّها غير موجودة في صيغة المخاطب "فيك" وفي صيغة الغائب "فيه"، علماً بأنّه، في هذا الغائب: "فيه"، حتى الضمير (الهاء) حُذِف في العاميّة فلم يُقَلَّ "فيه" بل "في"؛ فـ "موجود فيه" تصبح "موجود في"، فكيف نعرف من ذلك أنَّ المقصود "فيه هو" طالما أن لا ضمير يشير إلى

ما هو هذا الذي يحوي الشيء المراد القول إنه موجود في داخله؟ إنَّ "موجود في" تصبح كأنَّها جملة مبتورة ناقصة يصحُّ معها السؤال: "في ماذا؟".
 و"فِيّ" أو "فِينِي" تُستعمل أيضاً بمعنى "بإمكاني" أو "أستطيع": "فِيّ إمشي"، "فِينِي أعمل"، فمن أين جاءها هذا المعنى غير المضمَّن في الكلمة الأصلية: "في" التي اشتُقَّت منها "فِيّ" و"فِينِي"؟ وثالثة الأثافي هي أنَّ الحرف "في"، بهذا الاستعمال، محلُّ محلِّ فعل: "فِيّ روح" أي "يمكنني أن أذهب"، فكيف يحلُّ حرف محلِّ فعل، محلُّ "أستطيع" أو "يمكنني"؟ فالإفادة عن القدرة على الأمر تقتضي فعلاً هو فعل الإمكان أو الاستطاعة، وحلول "في" محلِّ الفعل هنا غريب، ولا يمكن أن يُبرَّر إلّا بأنَّ هناك كلمة مضمرة محذوفة إذ إنَّ أصل الجملة يكون عند ذاك "في إمكاني أن أفعل كذا"، أو "في استطاعتي" أو "في قدرتي أن أفعله"، وفي هذه الحال لماذا الياء الثانية في "فِيّ" أو النون في "فِينِي"؟، فهل هي التي حلَّت محلَّ مصدر الفعل أي الإمكان أو الاستطاعة أو القدرة؟!

وننتقل إلى الفعل المضارع بصيغة المتكلَّم المفرد: "أَلْعَبُ" و"أَمْشِي" الذي يصبح في العامية "بَلْعَبُ" و"بِمَشِي"، فنتساءل من أين تسرَّبت هذه الباء إلى أوَّل الكلمة وحلَّت محلَّ أَلَف المضارع في المتكلَّم المفرد التي اختفت في هذا الاستعمال تحديداً بينما بقيت في مواضع أخرى من المضارع المتكلَّم المفرد نفسه وبالنسبة إلى الأفعال نفسها مثل "راح إلعَبُ" و"راح إمشي"، و"بدي إلعَبُ" و"بدي إمشي"؟
 أمّا إذا كنّا نتكلَّم بصيغة الجمع فنقول: "منلعَبُ" و"منمَشِي"، فإذا بنا أمام ميم مجلوبة هي الأخرى إلى مطلع الكلمة في حين أنَّ جمع المضارع المتكلَّم من "لعَبَ" و"مشى" هو "تلعبُ" و"تمشي" وليس هناك ما يفرض زيادة حرفٍ عليه.
 وكما غابت أَلَف المضارع المتكلَّم المفرد لتحلَّ محلَّها الباء في المثل الأسبق تغيب أحياناً هذه الألف دون حلول حرفٍ آخر محلَّها في بعض الألفاظ المستعملة في موضع الفعل بينما تبقى في ألفاظٍ أخرى مستعملة أفعالاً في حال

مماثلة تمامًا، فنقول: "بدي نام"، و"بدي قوم" و"بدي روح"، بحذف الألف، بدلاً من "بدي أنام" و"بدي أقوم" و"بدي أروح"، ثم نقول: "بدي أعمل" و"بدي إسمع"، و"بدي إكتب" بإبقاء الألف.. مع أن التصريف هو نفسه، ومع أن تاء المخاطب وياء الغائب تبقيان في الأفعال نفسها دون حذف: "بذك تنام"، و"بدو ينام"، "بذك تقوم"، و"بدو يقوم"، "بذك تروح"، و"بدو يروح". فلماذا حظ المتكلم أتعس من حظ رفيقيه؟، وهل يجوز إيراد الفعل في المضارع المتكلم المفرد وحده دون أداة الدلالة على صيغته التي هي الألف بينما التاء والياء الدالة أولاهما على صيغة المخاطب والثانية على صيغة الغائب باقيتان في موضعيهما غير محذوفتين؟

هذا وفي العامية يُصار إلى تمغيط الكلمات، وتركيب ما لا يركب، حتى يستقيم الوزن أو القافية في الزجل. فقافية العتابا التي ينبغي أن ينتهي المقطع منها دائماً بالباء مسبوقاً بألف يُنهى بها الشعراء أحياناً بكلمة تستوفي هذا الشرط وأحياناً بكلمة تنتهي بالباء دون ألف قبلها.. عن طريق تطويع حركة الفتح على الحرف ما قبل الأخير ولفظه كأنه متبوع بألف. فـ "الدَّهَب" تُلفظ "الدهاب": "تراب الأرز أغلى من الدهاب"، فليس في العامية ضوابط صارمة يلتزم بها شعراؤها والمتكلمون بها كاللغة المنسقة في المجامع العلمية اللغوية.

ومن الأدلة على فقدان هذه الضوابط في العامية أن كلمة "صُحَّة" تُلفظ هكذا في العامية والفصحى على السواء، ولكن إذا تمنينا الصُحَّة مضاعفةً لشخص يتناول الطعام فنقول له: "صَحَّتَيْن" لا "صُحَّتَيْن" مع أن "صَحَّتَيْن" هذه هي مثني "صُحَّة"، فلماذا هي في المفرد هكذا وفي المثني تختلف حركتها؟ وإذا قَحَّ الشخص نقول له: "صَحَّة" لا "صُحَّة"، بينما نستعمل "صُحَّة" كما هي حركتها في الفصحى عندما نريد بها الجسم السليم. كذلك كلمة "آت" في الفصحى تصبح في لهجة من لهجات العامية "جايي" بياعين وفي لهجة أخرى "جاي" بياء واحدة.

إنني، في هذه الأمثلة، لا أتجنّى على اللهجة العامية، فهي، عندما تأخذ من الفصحى وتنحت جديداً دون أن يكون في ذلك ما يناقض سلوكها في موضع آخر ينطبق عليه القياس نفسه يكون الأمر مقبولاً لا اعتراض عليه، مثلها عندما تنحت فعل "جاء"، بمعنى "جَلَبَ"، من فعل وحرف جرّ في الفصحى هما "جاء بـ..."، أي جاء بشيء، جَلَبَ شيئاً، أتى به، على عادة العامية بحذف الهمزة من آخر الكلمات التي تأخذها من الفصحى، فتصبح "جاء" "جا" كما يُقال في الدارج، ويُدغم بها حرف الجرّ فتصبح "جاء".

بالنسبة إلى هذا اللفظ كما هو في الفصحى يجب إتباع ياء الجرّ باسم المأتي به، أو بضمير متصل في حال سبق ذكر هذا الاسم، ولكن العامية جعلت هذا التعبير المؤلف أصلاً من فعل "جاء" وحرف الجرّ، الباء، كلمة واحدة تجري مجرى الفعل لأنّ الباء أصبحت هنا جزءاً من الكلمة لا حرفاً ملحقاً بها. ولا غبار على ذلك، فكثير من الكلمات في جميع اللغات نُحِتَ في الأصل من كلمتين، فحافظ على المعنى الأصليّ أو أخذ معنى جديداً، وإذا ثابرت العامية على هذا النهج السليم في تطورها واختزال التعبيرات الفصحى في مفردات جديدة تكن سائرة في الخط القويم للتطور تمهيداً لبلوغها الكمال المنشود كلغة تامّة المقومات والأوصاف.

ولكنّ البعض يلفظ "جاء" بالعامية "إجا" لا "جا" التي تُعتبر "فلاحيّة" في نظره، كما يلفظ "جاءوا" "إجوا" لا "جَوْ" كما يلفظها القرويون، فهنا لم تعد الكلمة العامية هي نفسها الكلمة الفصحى محذوفة منها الهمزة كما هو الأمر بين "جاء" و"جا"، بل تولّد تركيب للفعل غير ناشئ عن قاعدة، إلّا إذا كان قد نُحِتَ من فعل "أجاء" القديم كما ورد في القرآن الكريم: "فلما أجاءها المخاض...".

من ناحية أخرى يجب الملاحظة أنّ العامية تنبثق روحها من روح العامّة من الناس. فهي لغة أبناء الشعب، أبناء البلد، وهي جميلة في هذه البساطة التي تعكس وجه الإنسان العاديّ، ولكنّ هذا لا ينفي وجوب أن يكون لدينا لغة راقية

تعكس روح الوسط الرفيع في المجتمع، روح النخبة المثقفة، روح أهل العلم والفكر، وتكون في مستوى هؤلاء، لا لغة "شعبية" نعرف من وقعها في السمع أنها لغة رجل الشارع أو الفلاح الطيب في القرية، وهذا ليس متحققاً حتى الآن إلا في اللغة الفصحى بانتظار أن يتم الارتقاء بالعامية إلى المستوى الذي بدأ يرفعها إليه بعض شعرائها وكتّابها غير التقليديين، محررين إياها، تدريجياً، من الركاقة والفجاجة في ألفاظها وتعابيرها التي لم تنعم بعد بالصقل والتهذيب اللازمين للغة المرفهة المصفاة، ومحررين إياها أيضاً من روح العامة من الناس لتغدو عاكسة لروح الخاصة منهم. أجل، إننا لا نزال بحاجة إلى اللغة التي تتلاءم مع "أرستقراطية" الفن والفكر، الأرستقراطية الوحيدة المقبولة كما يقول رثيف خوري.

ومثل الدعوة إلى اللغة العامية، وندعوها لغة تجاوزاً، كانت الدعوة إلى اعتماد الحرف اللاتيني في الكتابة، وقد حصلت تجارب في هذا المجال هنا وفي مصر لم تستطع أن تستوعب كل ما في اللفظ العربي من خصائص، وأولها أن اللغات الغربية فيها ما يُسمى Voyelles، بينما في العربية يوجد Voyelles متمثلة في حروف العلة و Demi voyelles متمثلة في الحركات التي تُلفظ كما تُلفظ حروف العلة ولكن مخففة: الضمة في مقابل الواو، والفتحة في مقابل الألف والكسرة في مقابل الياء. فكتابة العربية بالحرف اللاتيني جعلت التحريك كله يتم بواسطة حروف الـ Voyelles الأجنبية سواء كانت الحركة مخففة أو مُشَبَّعة، فشوهت اللفظ العربي وأفسدته.

هذا مع خاصية أخرى لحروف العلة العربية وهي أن الواو، مثلاً، تقوم مقام حرف الـ O أو الحرفين اللذين يُلفظان OU.. كما تقوم مقام حرف الـ W في وقت واحد. فهي OU عندما نقول: "يعود" أو "يذوب"، وهي O عندما نريد كتابة كلمة أجنبية بالحرف العربي مثل "تليفون" (Téléphone)، وهي W عندما نقول: "وارد" أو "واصل" أو "ديوان". أما الياء فتقوم مقام الـ I والـ Y معاً. فهي I

عندما نقول: "بريد" و"سليم"، و Y عندما نقول: "يشكر" أو "يصنع". كما أن الألف تكون أحياناً ممدودة مثل "زاهر"، وأحياناً مقتضبة مثل "أمر". فليست حروف العلة العربية، إذاً، Voyelles وحسب، وبالتالي ليس لحروف الـ Voyelles الأجنبية أن تؤدي كل ما في حروف العلة العربية من قابليات.

والادغام العربي، وهو نوع من التبسيط بإبدال تكرار الحرف الواحد مرتين بإيراده مرة واحدة مشدداً، نعود في الكتابة بالحرف اللاتيني إلى فكّه وتكرار كتابة الحرف الواحد مرتين لفقدان علامة التشديد في الحرف اللاتيني، مما يشكّل تراجعاً، أي خطوة إلى الوراء، بدلاً من أن يكون استعمال الحروف اللاتينية تقدماً و"عصرنة".

وهكذا يتضح كيف أن استعمال الحركات وعلامات الشدّ والقطع والمدّ في اللغة العربية أوجد حلولاً تقتضيها طبيعة هذه اللغة المحتوية على أصوات لا تقي بأدائها حروف الأبجدية وحدها بل لا بدّ معها من رموز إضافية لضبطها كتابةً، وهو ما ينقص الحرف اللاتيني غير المعدّ لهذه اللغة.

ويذهب غلاة التعصّب للعامية في لبنان إلى أنها لغة لبنانية مستقلة عن اللغة العربية ولا علاقة لها بها، بينما يذهب غيرهم إلى القول بإنّها لغة متفرعة من اللغة السريانية، لغة الجبل اللبناني في الماضي، لا من اللغة العربية.

لا أظنني بحاجة إلى الردّ على هذا الشّطح البين، الذي مبعثه مجرد عاطفة سلبية تجاه قوم من الأقوام لا البصيرة العلمية والروية. فماذا يميّز عاميتنا اللبنانية عن اللغة الفصحى إلاّ التسكين بدلاً من التحريك، وبعض التعديلات الجزئية كحذف الهمزة من الكلمات: راس وكاس وفار بدلاً من رأس وكأس وفار، أو ضو بدلاً من ضوء، وهو بدلاً من هواء، وجا بدلاً من جاء، وخطيه بدلاً من خطيئة، أو إبدال الهمزة ياءً في بعض الأحيان: مصايب وضرايب وعجايب بدلاً من مصائب وضرائب وعجائب؟ هذا مع العلم بأنّ فقهاء اللغة العربية يقولون إنّ الياء، لا الهمزة، هي هنا في الموضع الصحيح، فتكون

العامية قد حافظت على الأصل العربي أكثر من الفصحى نفسها. ويظهر ذلك أيضاً في كلمة "عيلة" التي نحسبها تحريفاً عاماً للكلمة الفصحى "عائلة" ولكنها في الحقيقة هي الكلمة العربية الصحيحة.

ثم هناك، في العامية، إبدال حروف بحروف أخرى قريبة منها: الثاء تغدو تاءً، والذال دالاً، والضاد ظاءً.. ودالاً في أحيان أخرى. أمّا الصاد فتنتقل إلى زاي (زين). فنقول كثير لا كثير، وتوب لا ثوب، ودمه لا ذمة، وديب لا ذنب، وداق لا ذاق، وإخذ أو أخذ لا أخذ، وشحاذ لا شحاذ، وظابط لا ضابط، وركد لا ركض، وعداب لا عذاب، وديك لا ضحك، وداب لا ذاب، وزغير لا صغير. وكما تُقلب الضاد ظاءً في بعض الأحيان تُقلب، على العكس، الظاء ضاداً في أحيان أخرى، فنقول: ضهر بدلاً من ظهر، وضفر بدلاً من ظفر، وعضم بدلاً من عظم.

كذلك تُلفظ في كثير من المناطق القاف بلفظ الهمزة، فيقال: أمر لا قمر، وآم لا قام، وأوي لا قوي. وبالمناسبة نذكر أنّ التشديد غير موجود في نهاية الكلمات العامية، فلا يُقال: أوي بل أوي، إذ يُشدد وسط الكلمة أحياناً فقط: تُؤَيّت (تقوّيت).

والشين تُقلب أحياناً سينا مثل سجرة بدلاً من شجرة. وتُستعمل الصاد في محلّ الناء: تشبّت تغدو تشبّص. كما تُستعمل الجيم في محلّ الزاي (الزّين): عجيز بدلاً من عزيز، والزّاي في محلّ الصاد: زغير بدلاً من صغير، وبزاق بدلاً من بُصاق، وزاعقه بدلاً من صاعقة، والواو محلّ الألف: أين تغدو وين، والبعض يقول: فين، والياء في محلّ التاء المربوطة: سيني بدلاً من سنة، وكرامي بدلاً من كرامة، وسفيني بدلاً من سفينة. وتُستعمل النون في محلّ اللام: مليح تغدو منيح، والراء في محلّ الياء: خياشيم تغدو خراشيم، والشّين في محلّ الجيم: حُرْج تغدو حُرْش، أو، على العكس، الجيم في محلّ الشّين: نبريش تغدو نربيج، مع تبادل الباء والراء موضعيهما في الكلمة، والعين في محلّ اللام: عئليت تغدو

عَنْعَيْت، والضَّاد في محلِّ الدَّال: فَخَذَ تَغْدُو فَخَض، والخاء في محلِّ الميم: مَرَّقَ تَغْدُو خَزَق، والزَّاي (الزَّيْن) في محلِّ الباء: بلعوم تَغْدُو زلعوم، واللام في محلِّ الرَّاء: شِرْش تَغْدُو شِلْش، أو، على العكس، الرَّاء في محلِّ اللام: قسطل تَغْدُو قسطر، ظلمبة تَغْدُو طرنبة، وهنا أيضًا تحلَّ النون محلَّ الميم، والياء في محلِّ الألف المقصورة: مِعْزى تَغْدُو مِعْزى، والغين محلَّ القاف: غنبار بدلًا من قنبار.

أما إذا تخطَّت المسألة حدود إبدال حرفٍ بحرف فلا يعدو أن يكون ذلك، في فعل الأمر، حذف الألف من أوَّل الفعل مقابل زيادة هذه الألف قبل الحرف الأخير من الكلمة، أو وضع واو بدلًا من الألف هناك: إسمع تَغْدُو سماع، وأركض وأرقص تغدوان ركود ورقوص، أو حذف الهمزة في آخر الفعل لوضعها في أوله: جاء تصبح إجا كما سبقت الإشارة، أو زيادة ألف في موضع ما من الكلمة: توصية تصبح توصايه.

ثمَّ هناك إبقاء حرف العلة في العامية في صيغة الأمر وهو الذي يُحذف في الفصحى في هذه الحال، فنقول: خود لا خذْ، وحيد لا حدْ، ونام لا نمْ، ودور لا دُر.

كما أنَّ هناك، أحيانًا، تصرُّفًا في بعض الكلمات لا يُبعدها كثيرًا عن أصلها: أجار يُراد بها إيجار، وموي أو مي للماء، وبَي للأب، وهون أو هنْ محلَّ هنا، وهونيك بدلًا من هناك وهنالك، ودينه حُرِّفت إليها كلمة أذن، وبعضهم يقول: إذن، وفي اللهجة المصرية وذن. كذلك شفاف تُقال للشفاة، وتمَّ للفم، ودُرس أو درنس للضرس، وعميق بدلًا من عميق، وإجر في محلِّ رُجل، وإيد حُرِّفت إليها يد، ووجَّ حَلَّت محلَّ وجه، وجرش محلَّ أجشَّ (الصوت الأجشَّ)، وهَدَس محلَّ هَجَس، وإسكافي تحوَّلت إلى سِكاف، والرتيلاء إلى كرتيله أو ترتيله، والماس إلى أُماز، والمؤونة إلى مؤنه، والأكار إلى مكاري، والسلحفاة إلى زلحفه.

والألف تُحذف أحياناً: لباس تغدو لبس، وتُزاد أحياناً أخرى: منخر تغدو منخر، والميت تغدو ميت (بالتشديد).

ونتابع استعراض الكلمات التي خضعت لبعض التصرف بها، فنرى ممثلي أو مليء وقد أصبحت مليان، وامتلاً أصبحت انتلى أو ملي، ورائحة غدت ريحة، وجائع جيعان أو جوعان، وبلى زيد عليها حرفان في أولها فأصبحت امبلى، وفرط حظيت بحرف واحد زائد فغدت فرفط، ومثلها تمرغ أصبحت تمرمغ، ورث أصبحت مرث، وعوز غدت عازره، وسوار إسواره.. حاطية بحرفين زائدين اثنين، وطى أصبحت طوي.

والذال التي حلت محل الذال في الأمثلة التي ذكرناها (ذاق: داق) حلت أيضاً محل الضاد أحياناً؛ فكلمة داق التي استعملت بمعنى ذاق هي نفسها استعملت أيضاً بمعنى ضاق.

وصفق قلبت إلى زقف، وصفع إلى سفق، وقوس قرح إلى قوس قح، وفولاذ إلى بولاد، والعقب إلى كعب، والذباب إلى دبّان.

ويحدث أحياناً زيادة حرف واحد على الكلمة، ويكون هذا غالباً في الكلمات المنتهية باللف وتاء مربوطة فتُزاد عليها ياء قبل هذه التاء: مكواة: مكوايه، مرآة: مرايه، مقلاة: مقلايه، دواة: دوايه، فرشاة: فرشايه، مهواة: مهوايه.

وكما يُزاد أحياناً حرف على الكلمة الفصحى يُنتقص منها حرف في أحيان أخرى: إبريق تصبح برّيق، وشابّ شبّ، وحاج حجّ، وأسنان سنان، وأجراس جراس، ونعناع ننع.

وفي الأفعال نجد "ترجّيت" بمعنى رجوت، و"انطرت" بمعنى انتظرت، و"تحير" أو "احتار" بمعنى حار، و"ضيّع" بمعنى أضاع، و"قطش" بمعنى قطع، و"مرق" بمعنى مرّ، و"فتّفت" بمعنى فتّت، و"عشّش" بمعنى عشش، و"رجّع" بدلاً من أرجع، و"بَعَدَ" أو "بَيَّعَدَ" بدلاً من أبعد، و"عُطي" بدلاً من أعطى، ونَقَى بدلاً من انتقى.

ويُقَلَّب، أحياناً، ترتيب الحروف في الكلمة، فتحلَّ جَوَز محلَّ زَوْج، ومرسح محلَّ مسرح، ورعبون محلَّ عربون، وباط محلَّ أُبط. وقد حُرِّفَت كلمات عامية عن الفصحى تحريفاً بسيطاً يوضح بجلاء عن أيِّ أصل جرى تحريفها. فالأغنية غدت "غنيّه"، والأغاني "غناني"، والحائط "حَيْط"، والشاطئ "شَطّ"، والإجاص "نجاص"، والدراقن "درّاق"، والقنبيط "قربييط"، والصقيع "سَقْعَه"، والسعال "سَعْلَه"، والشتاء "شيتي"، والصلاة "صَلّا"، والنصف "نُصّ"، والحافّة "حَفّه"، والحصاة "بحصة"، والعصاة "عصا"، والحسم "خَصْم"، والأرجوحة "مرجوحه"، والزنانة "زندان"، والبارحة "مبارح" أو "مبارحه"، وهكذا "هَيْك".

في كلّ هذه التعابير تظلّ الكلمة هي ذاتها مع إبدال حرفٍ بحرف، أو تغيير مواضع الحروف في الكلمة أو زيادة حرفٍ أو إنقاصه، ويظلّ معروفاً أنّ الكلمة العامية هي هي الكلمة الفصحى محرّفة بعض الشيء. فمن لا يعرف أنّ السجرة هي الشجرة، والهوا هو الهواء، والحجّ هو الحاجّ، والبولاد هو الفولاذ، والزغير هو الصغير؟

ولا يغيب عن بالنا احتواء اللّغة العامية على كلمات غير متحدّرة من الفصحى، ولكنّها عربية لفظاً، والأفعال منها عربية لفظاً وتصريفاً. ففعل "شاف" بمعنى رأى لا مقابل قريباً منه في الفصحى ولكنه يُصرّف كما تُصرّف أفعال هذه اللّغة فيقال: شاف في الماضي ويشوف في المضارع وشوف في الأمر، والمؤنث منه شافت، والمتكلّم المفرد شفت، والمتكلّم الجمع شفنا، والغائب من هذا الجمع شافوا، واسم الفاعل شايف. ومثل ذلك كلمة "هَدَي" بمعنى أمْسِكْ أو خُذْ، و"تَهْدَا" بمعنى تَمَسِّكْ، فمنها هَدَيْت، وتَهْدَيْت، وتَهْدَت إلخ... أي نفس تصريف الأفعال في اللّغة الفصحى.

هذا كلّ ما يفرّق العامية عن الفصحى؛ فالأولى بنت الثانية، ولولا النقص الذي ما زال يعتورها وعدم وجود أصولٍ علميةٍ وضوابط لها لكان بالإمكان اعتمادها

تحت اسم "العربية الحديثة" كتلك اللغات التي نشأت عامية في البدء ثم تطوّرت بصورة نظامية حتى أصبحت لغات أكاديمية كاللغات التي كانت في أساسها، وحلّت محلّ هذه اللغات بعد أن استوفت كلّ مقومات ومواصفات اللغات الأصولية.

أوتريد دليلاً إضافياً على أنّ العربية الفصحى والعامية هما لغة واحدة أكثر من وجود ألوف الألفاظ الفصحى الباقية هي نفسها في العامية لم يطرأ عليها أيّ تحريف؟، وهي ألفاظ شائعة متداولة مألوفة نستعملها بصورة عادية في كلامنا اليومي: شمس، بحر، درب، حرب، أهل، شعب، بلاد، أرض، رمل، تراب، حجر، صخر، كتاب، عُمر، عبد، صوت، وقت، ليل، نهار، يوم، ساعة، شهر، نهر، صورة، دين، مال، عدد، خوف، موت، حساب، لحم، دم، بيت، عيد، قدّاس، عرس، خبز، رغيف، فرن، شعر، كرسي، بلاط، خشب، شمال، يمين، سهر، جبل، غيم، عين، وغيرها كثير. كما أنّ أسماء الألوان بقيت على حالها: أبيض، أسود، أحمر، أخضر، أصفر، أزرق، إلخ.

وكما ذهب البعض إلى اعتبار اللهجة اللبنانية لغة قائمة بذاتها، لا علاقة لها باللغة العربية، ذهب بعض آخر إلى اعتبارها متحدرة من اللغة السريانية لا من اللغة العربية. وقد انصرف كلٌّ من مارون عبود والبطريرك السرياني أفرام برصوم والمطران يوسف داود إلى تعداد الكلمات العامية اللبنانية ذوات الأصل السرياني وكأنّ الاستعارة أو التقارض بين اللغات يجعل الواحدة ناشئة عن الأخرى. ففي العامية اللبنانية كثير من التعابير التركية التي دخلتها بفعل أربعة قرون من الحكم العثماني للبنان والمنطقة، فهل يعني ذلك أنّ اللهجة اللبنانية تسلسلت من التركية؟ من هذه التعابير: حاص دُور، إكي شرطه، أشكره بللي، سنكه طق. كما فيها كلمات فارسية: "توها"، وتعني أنثى، "بياده" وتعني سيراً على القدمين. فيقال: "فلان جاي بياده"، كما يُقال عند ولادة بنت: "توها تُخ... بلحية أبوها".

هذا التقارب ليس بين العامية اللبنانية والسريانية فحسب، بل بين العربية الفصحى نفسها والسريانية. ومردُّ ذلك إلى كون اللغتين مشتقتان معاً من اللغة السامية الأم، وقد تكون الكلمة السامية هي التي تحرّفت إلى كلمة في العربية وكلمة في السريانية تحمل كلُّ منهما أثراً من الأصل، وبالتالي شبهاً به، وبالتالي شبهاً بين الواحدة منهما والأخرى، دون أن تكون العربية قد استعارت من السريانية بل الاثنان استعارتا من السامية.

وهذا ما هو موجود أيضاً بين اللغة العبرية واللغة العربية، كون العبرية لغة سامية كذلك؛ فكلمة "شالوم" هي "سلام" بالعربية، والشبه واضح بينهما. ومن جملة الألفاظ العامية اللبنانية التي اعتبروها ناشئة عن اللغة السريانية لفظة "عبيط" التي تعني: "غليظ العقل وبطيء الفهم"، فأشاروا إلى مقابلها في السريانية: "عبيطو" أي الكثيف والغليظ. نقول لهم إن كلمة "عبيط" لم تدرج على لسان أحد في لبنان، بل إن معناها يعبر عنه اللبنانيون بكلمة "غشيم" أو "عبي"، أما "عبيط" فموجودة بهذا المعنى في العامية المصرية، فهل تكون هذه الأخيرة آتية من السريانية التي لم تكن يوماً لغة المصريين القدماء؟

ونلاحظ وجود كلمات عامية ليس هناك ما يقرب منها في الفصحى لنستطيع القول إنها مشتقة منها، ككلمة "شاطر" الموجودة بالمعنى نفسه في اللهجتين اللبنانية والمصرية ولا أساس لها في اللغة العربية الفصحى ولا في أية لغة أخرى.

فمن هنا نستنتج أنّ العاميات العربية نحتت ما يناسبها بصورة موحدة أحياناً ومختلفة أحياناً تبعاً لما ينسجم مع كلٍّ منها.. ولم تأخذ ما نحتته بذاتها من أي مصدر؛ ولكن وجود كلمات متشابهة في أكثر من عامية من هذه العاميات دون أن تكون هذه الكلمات محرّفة عن العربية الفصحى يدلُّ على تواصل تاريخي بين الشعوب العربية وعدم انعزال واحدتها عن الآخر، أي في النتيجة تشكيلها مجتمعاً واحداً.

ومثل "شاطر" كلمة "تملي" الموجودة أيضًا في اللهجتين اللبنانية والمصرية. فهي عند اللبنانيين تعني الخادمة التي تأتي لتعمل في البيت بصورة متوالية دون أن تثبت فيه، وعند المصريين تعني "دائم"، "على طول"، ووحدة المعنيين واضحة.

وهناك استعمال متماثل في اللهجتين اللبنانية والمصرية بإدغام كلمتي "من أين؟" بكلمة واحدة هي "منين؟"، ويظل الفارق في طريقة لفظها في كل منهما. ففي اللهجة اللبنانية تُلفظ النون بالفتح: "منين؟" بينما تُلفظ بدون فتح في اللهجة المصرية وتُلفظ الياء كأنها E بالفرنسية. وهذا شاهد آخر على وحدة الحركة الشعبية ووحدة التطور في المجتمعات العربية، أي أن دورة الحياة فيها واحدة؛ دورة حياة مشتركة تنظمها جميعًا كما تعيش الأمة الواحدة حياةً مشتركة في داخلها مستقلة عن دورة الحياة في كل من الأمم الأخرى.

كنت مرةً في مدينة اللاذقية أتحدث مع أحد أبنائها، فأدهشني ورود كلمة "يلقش" في حديثه، أي يتكلم، وهي كلمة يقولها الجبليون في لبنان ويراد بها هذا المعنى. فاستنتجتُ هذا الذي زكاه عندي في ما بعد اطلاعي على التشابهات في العاميتين اللبنانية والمصرية التي تحدثتُ عنها أعلاه، وهي أن العاميات في البلدان العربية نشأت في جانب كبير منها بصورة مشتركة كما يحصل في المجتمع الواحد، فكانت الاختلافات فرعيةً كما يوجد ضمن أي مجتمع، وهذا لبنان تختلف فيه لهجة كل منطقة عن الأخرى، وتختلف التسميات أحيانًا. ولاحظت أيضًا أن ليست اللهجات في البلدان العربية مختلفة كثيرًا عن بعضها، وإنما تفرق بينها الّلكنة، أي طريقة لفظ الكلمات. فبينما تُلفظ "يلقش" في اللاذقية وكأنها "يلقوش" بالتطويح في الضم.. لا يطوّحها اللبنانيون وإنما يلفظونها مقطوفة. وقس على ذلك العامية المصرية التي فيها كثير من الألفاظ الموجودة في عامية لبنان ولكن المصريين يلفظونها بلكنتهم الخاصة المعروفة.

كذلك في أحد البرامج التلفزيونية التي يجري فيها الحديث باللهجة الشامية وردت كلمة "يقشّطو" أي ينتزع منه.. الواردة أيضاً في لهجتنا اللبنانية بالمعنى الذي وردت فيه ضمن البرنامج التلفزيوني الشاميّ المُشار إليه. و"يقشّطو" و"شاطر" غير محرّفين عن كلمة سريانية لنقول إنّ لهما أصلاً مشتركاً فيها وإنّما هما كلمتان من نحت العامة، وقد نحتهما أهل لبنان والشام ومصر بصورة متماثلة ممّا هو دليل على أنّ آليّة التطوّر اللغويّ كانت واحدة في هذه الأقطار لأنّ دورة الحياة فيها كانت واحدة.

ومن البراهين على تأثير السريانية في العامية اللبنانية لفظ A على شكل O في لهجة أهل الشمال اللبناني. وقد يكون هذا صحيحاً، إلّا أنّه، في هذه الحال، يُثبت أنّ بقايا السريان في لبنان منحصرون في البقعة الشماليّة منه، ومن جهة ثانية يُطرح السؤال في هذا الإطار: "هل مسلمو هذه المنطقة من أصل سريانيّ أيضاً وهم الذين يلفظون الـ O كالمسيحيين فيها سواء بسواء؟".

ويقولون أيضاً إنّ الابتداء بالسكون في لهجة كسروان والشمال هو أثر سريانيّ، إذ يلفظون "حديد" بدلاً من "حديد" و"حليب" بدلاً من "حليب" و"عتيق" بدلاً من "عتيق"؛ أفلم ينتبهوا إلى وجود هذا التسكين أيضاً في لهجة المغرب العربيّ.. الذي بدا واضحاً في لفظ أسمائهم: "الحبيب"، "سليم"؟ (التي تُلفظ أيضاً كذلك في اللهجة اللبنانية دالّة على اسم عائلة "سليم" المعروفة لدى الشيعة والموارنة على السواء)، فمن أوصل اللغة السريانية إلى المغرب؟

وكما أنّ اللهجة العامية اللبنانية تغفل لفظ الهمزة في اللام ألف، فلا يُقال: "لإبني" بل "لابني"، ولا يُقال: "الأوراق" بل "الوراق"، فهذا موجود أيضاً في اللهجة المغربية التي وصل بها الأمر إلى حدّ كتابة كلمة "الأطرش" مثلاً "أطرش" وكلمة "الأخضر" "لخضر". وكذلك في اللهجة المصرية لا يُقال: "يا أخي" بل "ياخي"، و"ونّت" لا "وانّت".

ولفظ القاف على شكل "آف" ليس موجوداً في لبنان فقط، بل وفي أنحاء من سوريا أيضاً، وفي فلسطين ومصر والمغرب، مع العلم بأن مناطق عديدة من لبنان، ومنها مناطق مسيحية مارونية في قضائي جبيل والبترون، وفي المتن والأنحاء المسيحية في الشوف، فضلاً عن الدرزية، لا يزالون يلفظون القاف مُشْبَعَةً. والكسروانيون أنفسهم ظلّوا حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يلفظون القاف، ممّا يوضح أنّ هذه التغيرات عن الفصحى بتسكين أوّل الكلمة، وإغفال لفظ الهمزة، ولفظ "آف" بدلاً من "قاف" لم تكن بتأثير سرياني، بل إنّ العامة يتجهون إلى ما يدور على لسانهم ويستسهلون لفظه فيقلبون اللفظة الفصحى إليه. فكلمة "تَحْنُ" التي استتقلها العامة نحتوا منها "حِئْنَا" و"يَحْنُ" في لبنان، كما نحت منها المصريون "إِئْنَا"، والبدو "حِنَّا".

واللهجة اللبنانية، المزعوم تحدّرها من السريانية، لا تختلف كثيراً عن لهجات الجوار العربي، فلا يحتاج اللبناني مترجماً ليفهم على الشامي أو الحلبي أو الفلسطيني، أو حتّى المصري والبدوي، وهذه اللهجات القريبة جداً من اللهجة اللبنانية ليست طبعاً متحدّرة من السريانية.

ولا مرأى في أنّ اللبنانيين، والأُمّيين منهم أيضاً الذين لم يدرسوا اللّغة الفصحى، يستطيعون مع ذلك أن يفهموا كثيراً ممّا يسمعون بهذه اللّغة بسبب التقارب الشديد بينها وبين لهجتهم العامية، بينما لا يمكنهم أن يفهموا شيئاً من اللّغة السريانية، كما لا يستطيع من لغته السريانية أن يفهم شيئاً ممّا يُسمّى "اللّغة اللبنانية". فكيف تكون هذه متحدّرة من تلك ما دام بينهما هذا القدر من التباعد بحيث لا تفهم الواحدة منهما انطلاقاً من الأخرى؟

يقودنا ذلك إلى أنّ اللّغة العربية هي أُمُّ لهجتنا اللبنانية، وهي لغتنا الأمّ شئنا أم أبينا. ونحن لن نأبأها لأنّها اللّغة التي عشقها أعلامنا وأبدعوا فيها شعراً ونثراً هما في الطليعة من الإنتاج الأدبي في جميع الأقطار الناطقة بالضاد.

ولا حاجة بنا إلى التذكير بأن اللغة العربية احتمت بالأديار الرهبانية لدى قيام موجة التتريك، وفيها احتُضنت وحُفظت، ولقيت من يوليها العناية والرعاية، ومن ينكب على درسها والتبحر في أسرارها حتى كان لها من رجال الدين المسيحي، فضلاً عن العلمانيين، لغويون وشعراء ومؤلفون مسرحيون وناثرون متأنقون لا يحصيهم عدّ. وبالإجمال فإن المبدعين في اللغة العربية من لبنان في العصر الحديث يشكلون، مع أمثالهم في سائر البلدان العربية، تلك الحلقات المكملة لسلسلة الشعراء والأدباء والخطباء واللغويين العرب في العصور القديمة، ومنهم النصارى في الجاهلية والإسلام كقسّ بن ساعدة الإياديّ وعديّ بن زيد والأخطل التغلبي، ويراجع بهذا الصدد كتاب "شعراء النصرانية" للأب لويس شيخو. فحاشا أن يأتي التتكر لهذه اللغة من جانب من يحسبون مسيحيّتهم ولبنانيّتهم نقيضين لها، في حين يجب أن تكون مجلى اعتراضهم وهي "أمّ اللغات" كما دُعيت وآية الفصاحة والبلاغة، وذات الغنى الذي لا يجارى في المفردات وأساليب التعبير.

أجل، إنّ العربية هي تلك اللغة الجميلة الفخمة، ذات الطوعية الفائقة للتصرف بها فنيّاً، وذات الهلهلة الحلوة في ترققها وانسيابها. فهي لغة شعريّة بطبيعتها، وليس أدلّ على تميّزها عن سائر اللغات من أنّها صُنّفت في جانب وبقية اللغات في جانب آخر، فقل: "عربيّ" و"أعجمي"، و"عرب" و"أعجم". جاء في "المنجد"، وهو من وضع كاهنٍ مسيحيّ: "عَجَمٌ عُجْمَةٌ: كان في لسانه لكنة فهو أعجم"، و"انعجم عليه الكلام: صَعُبَ واستبهم"، و"استعجم: سكتَ عَجْراً"، و"العُجْم والعَجَم: خلاف العرب، سُمّوا بذلك لتعقيد ألسنتهم"، و"العجماء، جمعها عجماء مؤنث الأعجم، البهيمة، لأنّها لا تنطق"، ومن عُقل لسانه أو التوى يُقال له: "عَجَمَ لسانه". كلّ هذا يدلّ على ما لهذه اللغة من امتياز على غيرها، ومن مزايا تفتقدها اللغات، وهو ما يجتمع كلّهُ في كلمة "الفصاحة"، فالعربية هي لغة الفصاحة والبلاغة بامتياز.

ومن الأدلة على أنّ كل لغة غير عربيّة هي لغة عجماء أنّ العرب أنفسهم، قبل أن يتلقّوا اللّغة العربيّة من جدّهم يعرب بن قحطان، كانوا ينطقون بلغة أعجميّة، وهذا يتّضح من قول شاعرهم حسّان بن ثابت الأنصاري:

تعلّمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا فصرتم معربين ذوي نعر
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة كلاماً وكنتم كالبهائم في الفقر

أجل، كانوا كالبهائم، لأنّ هذه الأخيرة عجماء كونها لا تتطق، وصاروا "معربين" عندما نطقوا باللّغة غير العجماء التي أصبحت لغتهم، فتميّزوا بها عن جميع الأمم.

وكان الأديب الكبير الدكتور زكي المحاسني يقول عن العلامة ساطع الحصري أنّه عاش سحابة من الزمن للدراسة في تركيا، وطالت مدّته هذه خارج البيئة العربيّة "فعجم لسانه"، أي أصبح يتكلّم العربيّة كما يتكلّمها الغرباء عنها.

في كتاب "سعد زغلول" لعبّاس محمود العقاد وردت هذه الفكرة الدامغة: "يقول علماء التوحيد إنّ المعجزة الكبرى لنبيّ من الأنبياء هي المعجزة التي تطابق خلائق الأمّة المبعوث فيها. فموسى بُعث بالعصا السّاحرة في أمّة السحر والكهانة، وعيسى بُعث بآية الشفاء في أمّة المصابين والضعفاء، ومحمد بُعث بالقرآن في أمّة الفصاحة والبيان؛ فكلّ منهم معجزة تطابق أحوال قومه، وتستمدّ الإقناع من معدنه وأصله".

فهل من حجة أقوى من هذه على أنّ العرب هم أمّة الفصاحة والبيان في لغتهم وقد صنّفوا كذلك حتى من جانب علماء الأديان؟

وقال الرّحالة مرشلوس في كتابه "رحلة إلى الشرق"، المجلّد الأوّل: "اللّغة العربيّة هي الأغنى والأفصح، والأكثر والألطف وقعا بين سائر لغات الأرض. فهي، بتركيب أفعالها، تتبع طيران الفكر وتصوره بدقّة؛ وهي، بأنغام مقاطعها

الصوتية، تقلّد صراخ الحيوانات، ورققة المياه الهاربة، وعجيج الرياح، وقصيف الرعد".

وقال الأب نعمة الله العنداري، المرسل اللبنانيّ المارونيّ واستاذ الخطابة وآداب اللغة العربيّة في مدرسة "الحكمة" في زمنه، في كتابه "تاريخ آداب اللغة العربيّة": "لم توجد لغة ضارعت اللغة العربيّة بفصاحتها وقوّتها وبلاغتها. فهي أغنى اللّغات الساميّة، وأكثر لغات الدنيا ثمار قرائح، وأسبقها جميعاً لأُمور كثيرة، وقد زادها جمالاً وخصباً امتزاج اللّغات العربيّة المختلفة بلغة قُرَيْش، وامتزاج العرب بالأُمم الأخرى بعد الفتح واقتباسهم من لغاتهم الشيء الكثير".

وقد خَلَتْ هذه اللغة اليوم، وعلى يد اللبنانيين في الدرجة الأولى، من التقعّر ووحشيّ الكلام الموروّثين من أوائل عهدها، وعرفت درجةً من التبسُّط إلى حدّ المزج بينها وبين العاميّة بصورة مقبولة، فأصبحت العربيّة بذلك لغةً عصريّة غير متخلّفة. وهي، على كلّ حال، في وضعها الحاضر، بقطع النظر عن محاولات تبسيطها وتطعيمها بالعاميّة، متطوّرة جدّاً بالنسبة إلى صورتها في الأدب القديم؛ فليس نزار قبّاني امرأ القيس، ولا سعيد عقل الفرزدق، ولا جبران سحبان وائل.

إنّها لغتنا التي أبدعنا فيها كما أبدع فريق منّا في اللّغات الأجنبية. وأذكر هنا نظريّةً للأستاذ فؤاد افرام البستانيّ قوامها أنّ هناك أدباً لبنانيّاً ذا طابع خاصّ، وهويّة لبنانيّة صرف، في أيّة لغة عبّر، والعربيّة هي إحدى أدوات التعبير في هذا الأدب. فالفينقيّون كان لهم، بلغتهم، أنثياتر الشاعر وسنكين يتن المؤرّخ والكاتب، وعبد أشمون بن بئعال الأديب؛ وفي العصرين اليونانيّ والرومانيّ عبّر الأدباء والشعراء اللبنانيون باليونانيّة واللاتينيّة، وعبّروا بالآراميّة فالسريانيّة لما سادت لدى سكّان هذه الجبال، وفي عصرنا عبّروا بالعربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة، واضعاً لبداية الأدب اللبنانيّ باللغة العربيّة آثار المطران جرمانوس فرحات.. وصولاً إلى المرحلة الحاضرة المتوجّهة بسعيد عقل.

تبعاً لهذه النظرية، الصادرة عن أكثر الأدباء اللبنانيين تشدداً في لبنانيته ومسيحيته ومارونيته، فإننا اليوم في عهد اللغة العربية في لبنان، مع الالتفات إلى اللغات العالمية السائدة حالياً مقاماً وانتشاراً. فلا نفكرن بطرح هذه اللغة ونبذها، وإلا فقد تراثنا الأدبي الأعلام الذين نفاخر بهم: اليازجيين والشرانتة والبساتنة والمعالفة، ومثلت جبران والريحاني ونعيمة، وعمالقة الشعر أمثال خليل مطران والأخطل الصغير والملاط والقروي وأبي شبكة وأبي ماضي وأمين نخلة وسعيد عقل. كلهم من هنا، من لبنان، وكلهم منارات للعرب عموماً وللعالم، وبأمثالهم، نرفرف بأجنحتنا في الخافقين.

الشفافية في العمل الإداري في الدولة

محاضرة أُلقيت في دار بلدية جونية بدعوة من اللجنة الثقافية في البلدية.

لَمَّا بُويعَ عمر بن الخطاب بالخلافة خطب في الناس قائلاً: "إذا رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوموه"، فردّ عليه أعرابيُّ بقوله: "والله يا عمر.. لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحدّ سيوفنا".

قال الأعرابيُّ ذلك ولم ينله ضير من عمر، رغم أنّه، فوق ردّه القاسي، خاطب الخليفة باسمه لا بمناداته بأمر المؤمنين، بل قدّر له عمر غيرته على استقامة الحاكم.

كان ذلك في عصرٍ يُحسَب متخلّفاً عن عصرنا الحاضر، أمّا في القرن العشرين، عصر النور والمدنيّة، فلَمَّا قُتلَ الملك عبدالله بن الحسين الأردنيّ ورث العرش عنه وليُّ عهده الأمير طلال.. الذي حكم لفترة وجيزة، وفي أحد المهرجانات الشعبيّة التي أقيمت احتفاءً بالمناسبة أحبّ الملك أن يتمثّل في خطبته في الجماهير المحتشدة بقول عمر بن الخطاب، فقال قولته: "إذا رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوموه"، فدفعت الحماسة واحداً من أفراد الشعب الحاضرين إلى الردّ عليه بما ردّ به الأعرابيُّ على الخليفة، فأدّى به قوله إلى السجن.

خلقية الحاكم، وخلقية معاونيه وسائر العاملين في إدارته، هي التي تقرّر مبلغ الشفافية في ممارسة الخدمة العامّة. وثقة الشعب بقادته مطلوبة وإلاّ لما كان اختارهم بالذات لتسيير دفة أموره. ولكنّ سهره على حسن أدائهم يوفرّ ضماناً إضافية لسير الأمور في مجراها الصحيح. ومن هنا، في النظام الديمقراطيّ، تنشأ مسؤوليّة أرباب السلطتين التشريعيّة والتنفيذيّة تجاه الشعب، وهي،

دستورياً، مسؤولية سياسية فقط، بمعنى أنّ محاسبة الشعب لممثليه تتجلى في التجديد أو عدم التجديد لهم في الانتخابات النيابية التالية تبعاً لرضاه أو عدم رضاه عن أدائهم، وباستمرار ثقة المجلس النيابي بالحكومة أو بسحب ثقته منها وإسقاطها تبعاً لرضاه أو عدم رضاه عن قيامها بواجباتها. إنّها المسؤولية الوحيدة التي تطل الجسم السياسي في الدولة، دون الدخول في الأحوال الاستثنائية جداً التي تترتب فيها مسؤولية جزائية.

أمّا الجهاز الإداري فيخضع للمسؤوليات التأديبية والمدنية والجزائية، وتتم محاسبة أفراداه إمّا عن طريق المجالس التأديبية أو عن طريق المحاكم المختصة.

ويُفهم بالمسؤولية التأديبية تلك التي تعرّض الموظف للتدابير التأديبية الملحوظة في القانون جزاء أخطاء ارتكبتها، أو إخلال أو نكول عن القيام بالواجب أو تقصير في القيام به. كما يُفهم بالمسؤولية المدنية مسؤوليته المالية الشخصية إذا سبّب ضرراً لأحد في قيامه بوظيفته دون أن يكون لهذا الضرر مبرر شرعي.. فيكون ملزماً بالتعويض على المتضرر.

وطبعاً يتعرّض الموظف لمسؤولية جزائية إذا اختلس أموالاً من الخزينة أو تقاضى رشوة أو سير الأمور المنوطة به بما يخدم مصلحته الشخصية أو مصلحة من يتواطأ معهم على ذلك.

ولمّا كان كلّ نظام قانوني يمرّ بمراحل تاريخية وتطورات قبل أن يرسو على ما هو عليه فسناً في لمحّة على مختلف المراحل التي مرّت بها مسؤولية السلطة العامة. ففي المرحلة الأولى لم تكن السلطة مسؤولة عن الأضرار الناتجة عن أعمالها والأعمال التي يأتيها موظفوها، بل كان المبدأ عدم مسؤولية السلطة العامة. ذلك لأنّ مبدأ سيادة الدولة أدّى إلى اعتبارها معصومة عن الخطأ، وينعت القانوني جان باز، في كتابه "الوسيط في القانون الإداري اللبناني"، فكرة العصمة هذه بأنّها "تخيّل قانوني".

أمّا في المرحلة الثّانية فقد أخذ الاجتهاد الفرنسيّ، في الربع الأخير من القرن التّاسع عشر، يسلم تدريجيّاً بمسؤوليّة السلطة العامّة، وإنّما على أساس أنّ ذلك استثناء للقاعدة العامّة التي هي عدم مسؤوليّتها.

وفي المرحلة الثّالثة قلب الاجتهاد هذه القاعدة، فأصبح يرى أنّ القاعدة هي مسؤوليّة السلطة العامّة، والاستثناء هو عدم مسؤوليّتها.

تلك هي الناحية القانونيّة من المسألة، وعلى الصّعيد العالميّ لا في لبنان فقط. فإذا انتقلنا من العموميّات والنصوص المكتوبة إلى واقع الحياة السياسيّة والإداريّة عندنا، إلى واقع ما يُسمّى بالعمل العامّ أو الخدمة العامّة، وجدنا الشكوى من سوء الحال والفساد قديمة ترجع إلى أبعد العهود.. منذ الحكم الأجنبيّ حتى الاستقلال. والعودة إلى التاريخ ضروريّة لمعرفة جذور الأزمة الحاضرة التي ليست منفصلة عن بداياتها، بل هي استمرار لوضعٍ متّادٍ ناشئٍ عن اقتناعٍ لدينا، حكّاماً ومحكومين، بأنّ انتظام الأمور في بلادنا على النمط الصحيح والمستقيم ليس قضيةً جديّةً، بل إنّ التّغنيّ به، وبالاصلاح والشفافيّة، وما إلى ذلك من التعابير، هو مثاليّة وطوباويّة بعيدتان عن الحقيقة، وتصريحات كلاميّة في الصحف وعلى ألسنة السياسيّين. وهذا الموقف لدى الجميع كان حصيلة تجارب أجيالنا المتعاقبة واختباراتهما في هذا المجال، التي استفادت منها عقم كل مسعى لتصويب الأمور وفشل كلّ المحاولات التي بُذلت على هذا الصّعيد. وهذا ما جعل الشعب نفسه، الذي يشكو ويطالب بالاصلاح من قبيل رفع الصوت لا أكثر، لا يساعد على ذلك، لأنّ معرفته بأنّ الوساطة، مثلاً، هي وسيلة لا بُدّ منها للوصول إلى حقٍّ أو لتحقيق مصلحة جعلته لا يستنكف عن اللجوء إليها لنيل غايته، وهو إلى ذلك مضطراً وإلاّ ضاع حقّه أو فاته المكسب الذي يسعى إليه.

وقد طالما نسب الخلل المزمن في تسيير الشؤون العامّة لدينا إلى مواريث العهد العثمانيّ، هذا العهد الذي طغى وبغى ولم يرأف بشعبنا ولا بسائر الشعوب التي

حكمها، حيث كان الولاية يشترى الولاية شراءً من السلطان ثم يعوضون ما تكلفوه من ظهر الشعب المسكين. ويبقون طوال مدة ولايتهم يبتزّون الشعب لمزيد من الدفع لصاحب العرش، وإلاّ سحّب البساط من تحت أرجلهم ليذهب إلى من يدفع أكثر.

وفي عهد الإمارة بلبنان كان الولاية المجاورون يفرضون على الأمير، من حين إلى آخر، جزية لا تقل، في أحسن الأحوال، عن ثلاثة آلاف كيس من الذهب بلغة تلك الأيام، وإلاّ فهو مهدّد في حكمه. فيضطرّ الأمير اللباني إلى تحصيلها من الشعب حفاظاً على رأسه، وتقوم قيامة الشعب الذي يرهقه هذا العبء الإضافي فوق ما يؤدّيه أساساً، ويبدأ العصيان والاضطرابات التي يجمعها وليّ الأمر بمنتهى الشدّة، ويجني المال المطلوب عنوة وقهراً ليدفعه فدية عن نفسه وعن بقائه في سدّته.

من ذلك الزمن نشأت الفكرة لدى الشعب بأنّه هو لحكامه وليسوا هم له، وأنّ ما يتقاضونه منه كضرائب ورسوم ليس لاستخدامها في القيام بواجبات الدولة بل للأغراض الشخصية. فأصبح يتهرّب ممّا عليه قدر استطاعته، وما يلزم به ولا يستطيع التملّص منه لا يدفعه إلاّ بصعوبة.. حتى ولو كان استيفاءه يتمّ في ظلّ حكم صالح ومجرّد عن الغاية، فأصبح، في هذا النطاق أيضاً، لا يساعد الدولة على حسن السير بعجلة الأمور.

وقد قوى اقتناعه هذا ما يراه من الغضب عن أصحاب النفوذ وإعفائهم عملياً ممّا هو فرض على جميع المواطنين، فأصبح يعتقد بأنّ الضريبة هي نوع من العقوبة له وأخذ ماله بالحرام، وإلاّ لماذا مداراة من يُهاب ومسايرته، ومحابة من يحظى بالرضا العالي، وإبقاء الكلفة على من "لا ظهر" له؟ فلم يعد حقّ الدولة عليه في نظره حقاً، بل غدا نتيجة للاستخفاف به واستضعافه كونه ليس من الجماعة المميّزين.

حتى تنظيم محاضر الضبط بحق مخالفين أنظمة السير كان مجالاً لمشاهدة المواطنين أشخاصاً يُعدّل عن تنفيذ القانون بحقهم عندما يكشفون عن شخصيتهم أو عن انتمائهم، لتأخذ "العدالة" مجراها مع الآخرين الذين ليس لهم مسعف من مكانة أو تبعية. فغدت كل إجراءات الدولة في نظر المواطن اعتسافاً، لا ردعاً عن مخالفة وتقويماً لجُروح عن السبيل الصحيح.

لقد صدق مَنْ قال إنّ الاستقلال لا يُنشئ دولةً سليمةً إذا لم يسبقه إعداد للشعب على تولّي زمام أموره بنفسه، وكذلك إعداد المرشّحين لقيادته لممارسة هذه القيادة. وقد نصّ صك الانتداب على لبنان الذي أقرّته "عصبة الأمم" بعد الحرب العالمية الأولى على أنّه مرحلة موقّنة ريثما يُهيأ الشعب لحكم نفسه بنفسه. ولكنّ الدولة الأجنبية المنتدبة لم يكن مرادها إعداد الشعب لمرحلة ما بعد نهاية انتدابها عليه، لأنّها، في مكنون ضميرها، لم تأتِ إلى هذا البلد ليكون وجودها فيه موقّناً، إذ إنّ الصكّ الذي نصّ على ذلك لم يكن أكثر من غطاءٍ لتبرير هذا الحكم الأجنبي وإعطائه المسوّغ الشرعيّ. فلا النية لدى الأجنبيّ كانت متوفّرة لإعداد اللبنانيين لتسلّم دولة مستقلة، ولا الفترة القصيرة نسبياً التي استغرقتها الحكم الانتدابي في بلادنا كانت كافية، حتّى ولو سلمت النوايا، للإعداد لمثل هذه الكفاية العالية. ذلك أنّ الاستقلال، مهما فاخرنا بأننا نلناه بجهادنا ونضالنا من أجله، كان، في الحقيقة، ثمرة لصراع ما بين دولتين متحالفتين في الحرب على عدوّهما المشترك ولكنهما متنافستان على اقتسام غنائم ما بعد الحرب. لهذا جاء الاستقلال قبل أوانه فعلاً من حيث درجة الارتقاء إلى مستواه، ولو كان مرحباً به من الناحية الوطنية في أيّ وقتٍ يجيء.

لهذا كثر الحديث، في مطلع عهد الاستقلال، عن دولة "المزرعة" والمتهاككين على اقتناص خيراتها، ثم استمرّ الوضع على هذه الصورة في العهود التي تلت. والحق أنّ محاولة جادّة لإنشاء دولة حديثة جرت في العهد الشّهابيّ عن طريق ما سُمّي إذ ذاك بالإصلاح الإداري. وقد كنت شاهداً عياناً لهذه المحاولة لأنني

كنت أمين سرّ لجنة الإصلاح الإداري التي شكّلت على صعيد الجيش وقوى الأمن الداخلي وضمّت خبراء أجانب في الإدارة العسكرية إلى جانب ضباط لبنانيين، وكانت دراساتها علمية ودقيقة. ولكنّ هذا الإصلاح ضاع في خضمّ السياسة آنئذٍ، وحُصر إنجاز أعماله لمُدّة في نطاق وزارة الداخلية، ثمّ أنشئت له وزارة خاصّة لم تعش طويلاً لأنّها أصبحت، هي الأخرى، من جملة الوزارات والإدارات التي يقتضى إصلاحها.

والمحاولة الجادّة الثّانية كانت هذه التي نوى عليها عهد الرئيس إميل لحود وهمّ بأن يباشر بها، فتعثّرت لا لنكول عنها في ذهن وإرادة من جاء لإتمامها وأقسم على تحقيقها، بل لأنّ قيام الدولة الحديثة، دولة القانون والمؤسّسات، يشكّل ثورةً وانقلاباً على ما تكرّس عبر الزمن من زعاماتٍ تقليديّة ما زال لها في صفوف الشعب أتباع لها يحضونها ولاءهم ويتعلّقون بها، ومن مواقع مستحدثة أفرزتها الحرب الأهليّة، أو عملت مقدّرات أصحابها الضخمة وعلاقاتهم الخارجيّة على جعلها جزءاً من المعادلة القائمة.. وتمكّنوا على الأثر من تكوين شعبيّة واسعة لهم.

وهذه المعادلة التي ضمّت كل الأطراف المذكورين لم يكن بالإمكان حذفها بسهولة لتقوم مكانها دولة تعتمد الكفاءة وحدها دون امتداداتٍ لمن يتمتّعون بزعامةٍ تاريخيّةٍ أو كوّنوا موقعاً عاليّاً لهم عبر دعمٍ خارجيٍّ أو داخليٍّ (طائفيٍّ مثلاً)، ودون الأخذ بعين الاعتبار ظروفًا طارئةً في الحقبة غير الطبيعيّة التي سادت لفترةٍ تقارب العشرين عاماً وتركت بصماتٍ قويّة على الحياة السياسيّة في البلاد، موجدةً قياداتٍ جديدة لها قواعدها الشعبيّة في هذا المعسكر وذاك من المعسكرين اللذين تقاتلا في الحرب.

إنّ الدولة الحديثة تقوم على أحزاب ديمقراطيّة تكتسب مؤيّدتها من برامجها التي تتعهّد بتنفيذها إذا تسلّمت الحكم، ثم من إنجازاتها العمليّة في فترة حكمها، وليس

من قواعد شعبية موروثة، أو من قواعد ناشئة ولكنها مباحة سلفاً لقياداتها ومستمرّة في جميع الأحوال على الارتباط بها.

والدولة الحديثة تقوم أيضاً على أسس علمانية تزول معها الكيانات الطائفية التي هي في مثل قوّة الزعامات قديمها وحديثها، ولا يمكن، إلى إشعار آخر، حذفها هي الأخرى من المعادلة. وإذا استعرضنا المحاولات المتكررة لإقرار الزواج المدني في لبنان وكيف أجهضت جميعها برذات فعل عنيفة.. نلمس كم أنّ المواقع الطائفية قوية راسخة ولا تتنازل بأيّة صورة عن امتيازاتها.

الخلاصة أنّ كلّ خطوة تريد أن تخطوها دولة إلى الأمام، وكل انتفاض على وضع سائد تحافظ عليه بإصرار الجهات المستفيدة منه، يُقابل بمقاومة جنونية من جانب هذه الجهات التي تستمد قوتها من هذا الوضع وترى في زواله زوالها، فتقوم في وجه الخطوة الإصلاحية تحالفات لا جامع بين أطرافها إلاّ المصيبة المداهمة لهم جميعاً التي يشكلها السيف القاطع المزمع أن يطال هذه القوى، فتوظف إمكاناتها الطائلة من مادية وسياسية وإعلامية من أجل إحباط هذا المشروع.

وكان من أسباب فشل عهد لحود في تحقيق ما عزم عليه حرصه على ديمقراطية الحكم وإبقائه مدنيّاً، فبقي مصرّاً على التعاون مع الفريق السياسي القائم وعدم الاستعانة بحكومة عسكرية، فكان من الطبيعيّ ألاّ يتجاوب معه من أتى بهم إلى الحكم، وعندما تحوّل عنهم إلى حكومة بيروقراطية في الطابع الغالب عليها ضمّت عدداً من ذوي العلم والاختصاص الذين لا مطامع سياسية لهم، مصرّاً على عدم تشكيل حكومة عسكرية، كان العلم والنزاهة والتجرد من الضعف بحيث لم تستطع الصفات الطيبة أن تتغلّب على الآلة الجبارة التي حرّكها المتضررون الأقوياء ليمنعوا تنفيذ ما عُقد العزم عليه.

فهل تحدث الأعجوبة في يومٍ من الأيام ويؤول السير في الوعر إلى بلوغ النهاية السعيدة؟ إننا بحاجة إلى فدائيين جدد يعرفون أنه لا بُدَّ دون الشهد من إبر النحل، ولا بُدَّ لقاطف الورد من التعرُّض لأشواكه.

الإعلام في نظرة استعراضية شاملة

نُشِرَت في جريدة "التلغراف".

في البداية علينا أن نميِّز ما بين الإعلام المجرّد، الذي يُقتصر على إحاطة الرأي العام علماً بأخبار الأحداث الجارية، أو بحقائق معيّنة، والإعلام الهادف، الذي يرمي إلى اكتساب مَنْ يوجّه إليهم إلى جانب فكرة أو جهة من الجهات هي تلك التي يصدر عنها هذا الإعلام.

ولا نقصد من هذا التمييز أنّ الإعلام المجرّد هو صادق بالضرورة لأنّه غير موجه، والإعلام الهادف كاذب بالضرورة لأنّه موجه ويرمي إلى تحقيق مصلحة لصاحبه، رغم أنّ طبيعة الإعلام المجرّد تنزع به إلى إعطاء الحقيقة كما هي وطبيعة الثاني تصرف همّه إلى محاولة بلوغ غايته لا إلى الشهادة للحق. فالخبر الذي نطالعه أو نسمعه، والصادر مبدئياً عن إعلام مجرّد، قد لا يكون الحقيقة المنزلة، أو على الأقلّ قد لا يكون الحقيقة الصرف، لأنّ المنبر الذي يأتينا منه هذا الخبر قد يتلقاه محرّفاً عبر ناقله من المخبّرين، أو يستنبطه لسدّ فراغ في وسيلته الإعلامية أو لإحداث صرعةٍ تؤدّي إلى الإقبال الكثيف على شراء الوسيلة الإعلامية المكتوبة، أو قد يكون بثّه جزءاً من إعلام هادفٍ مغلفٍ بصورة إعلامٍ مجرّد.

وعلى العكس من ذلك فإنّ الإعلام الهادف قد يبغى أحياناً إطلاع الناس على حقائق يُفيد إطلاعهم عليها الجهة الباثّة لهذا الإعلام دون حاجة إلى مبالغة فيها أو تحريف.. أو إخفاء لبعض الجوانب. ونعترف بأنّ هذا يحصل في النادر، إمّا لأنّ الواقع يكون غالباً دون الكمال الذي يصوّره فيه الإعلام، أو لأنّ كلّ إنسانٍ

أو فريق ينزع طبيعياً إلى تقدير أعماله أو منجزاته أكثر مما تستحق، فيصورها للعموم كما هي في تصوّره لا كما هي في ذاتها، فتأتي المبالغة بأمرها عن حُسن نية إلا أنّها مبالغة على كلّ حال.

أمّا أقسام الإعلام فتراوح ما بين الدعاية المحض.. في نوعيها التجاري والسياسي، والإعلام غير الدعائي ولو لم يكن خالياً من الغرض، والعمل النفساني الذي كان ذا مفهومٍ سلبيٍّ خالصٍ إذ كان يسمّى "حرب الأعصاب"، لتوخيّه إضعاف إرادة الصمود لدى الخصم أو ملاشاتها، وتحطيم معنوياته، وتثبيط عزيمته، وإفقاده الثقة بقادته أو الإيمان بالقضية التي يدافع عنها، وشلّ قواه الذاتية عن طريق الشائعات خصوصاً، فأصبح أيضاً ينطوي على مفهوم إيجابيٍّ بمحاولته السيطرة على الشائعات ومنعها من أن تفعل فعلها، ورفع المعنويات عن طريق رسم صورة مشجّعة للأمور والأوضاع، وشحن النفوس بالحماسة لفكرةٍ أو لموقفٍ أو لمبدأ، ولو كان مبالغاً في ذلك أو حائداً بالكليّة عن حقيقة الوضع.

ومن أساليب الإعلام السياسيّ تضخيم الحقائق أو التخفيف من شأنها تبعاً لل غاية المتوخّاة، وتحريف الحقائق أو إغفال ذكرها أو اختلاق ما لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة. وفي جانب آخر يحرك هذا الإعلام الجماعات وفق إرادة مستخدميه عن طريق إعطاء صورة عن الوضع مغايرة لحقيقته، ممّا يجعل الفئات المستهدفة به تتخذ مواقف من وحي هذه الصورة الكاذبة وتتصرّف على أساسها، فتحقّق لصاحب اللعبة مراده من حيث لا تدري وهي تتصوّر أنّها تقوم بما يمليه عليها واجبها، أو تقتضيه مصلحتها.. أو حرصها على سلامتها ومصيرها.

ويرافق مثل هذا الإعلام أفعال وارتكابات وممارسات مفتعلة تزكّي الصورة التي أعطاها عن الوضع، فيتسرّخ الوهم كحقيقة قاطعة في الأذهان، وتمرّ الخدعة على من يجهلون خفايا الأمور، فإذا هم مسيرون في الوقت الذي يظنون أنفسهم قائمين بمبادرات ذاتية واختيارات.

أجل، لقد غدا الإعلام السياسي سلاحاً فعالاً يتخذ فيه مسلطه دور الفاعل ومتلقيه دور المنفعَل به.

إننا اليوم نكاد لا نجد حقلاً من حقول النشاط الإنساني لا يغطيه إعلام خاصّ به. ففي الحقل التجاريّ هناك الإعلان، وفي الحقل السياسيّ هناك الدعاية والإعلام، وفي الحقل الدينيّ هناك التبشير والكرز، وفي الحقل العقائديّ هناك الدعوة، وللنشاطات الأدبيّة والفنيّة والرياضيّة إعلامها الذي ينقل أصداءها إلى الجمهور، وحتى المناسبات الاجتماعيّة لها إعلامها عبر وسائل البثّ والنشر.

بدايات الإعلام

إذا عدنا إلى أوائل عهد الإعلام قد لا نكون مخطئين إذا وجدنا ملامحه الأولى تبرز في مناداة الباعة على بضائعهم بما يستعملون من عبارات التشويق إليها والترغيب بها. فهذه المناداة كانت الشكل البدائيّ للإعلان التجاريّ، وتلتها، عبر العصور، أشكال عديدة من الدعاية، بعضها ممّا احتفظ بالطابع البدائيّ كالسمسرة العقاريّة والجنسيّة، وبعضها تطوّر كالدعاية الانتخابيّة والسياحيّة وما إليهما.

وبرزت أخيراً، متضمّنةً الإعلام في طيّها، ظاهرة "العلاقات العامّة" التي اعتمدتها المؤسسات الرسميّة والخاصّة تعريفاً بنفسها وبأعمالها وإقامة صلةٍ مع الجمهور. إذ إنّ عمل هذه المؤسسات، الذي كان التعريف به في الماضي يجري بموجب بلاغات مقتضبة، وتصريحات، ومؤتمرات صحفيّة، أصبح اليوم يتمّ عن طريق إقامة علاقاتٍ دائمة مع الصّحافة وسائر الأوساط تتولاها دائرة مختصّة تدعى "دائرة العلاقات العامّة" مهمّتها لا التعريف بالمؤسسة المعنيّة وأهدافها وأعمالها ومنجزاتها فقط، وعلى العموم إعطاء فكرة جيّدة عنها، بل وأيضاً إقامة علاقة صداقة بينها وبين هيئات المجتمع وتواصل دائم معها، فيُتاح

التعرُّف إليها عن كثب، والاطِّلاع على كلِّ ما يستجدُّ لديها على صعيد اختصاصها.

نحن تجاه الإعلام

أمَّا وقد مررنا على هذه الأشكال للإعلام فقد أصبح علينا أن نتساءل عما ينبغي اتِّخاذه من موقفٍ تجاه ما تمطرنا به منابر الإعلام من مادَّةٍ إعلاميَّة، خصوصًا وقد أصبحنا في وضع "طغيان إعلامي" يكاد يجرفنا في خضمِّه ولا يترك لنا مجالاً للتمييز والاختيار. هذا الطغيان الإعلاميُّ هو أقوى ظاهرة من ظاهرات هذا العصر، ويصعب عدم التأثير بما يقذفه إلينا بمقدار ما أنَّه أصبح فنًّا متطورًّا، بل علمًا متقدِّمًا له أصوله وقواعده، يستعين بكلِّ ما يساعده على النفاذ إلى ذات الإنسان، سواء كان هذا النفاذ إلى عقله واقتناعه أو إلى عاطفته، مستفيدًا من عوامل في النفس البشريَّة تجعلها تندفع في الاتجاه المقصود من تسليط الإعلام عليها، إذ يوجد استعداد طبيعيٌّ لدى الإنسان للتحمُّس لشيءٍ ما، ونعني بهذا الشيء عقيدةً أو كيانًا أو شخصًا يكتسب صفة الزعيم أو القائد وما إلى ذلك، فيجري استغلال هذا الاستعداد الطبيعي للاستئثار بعواطف الإنسان عن طريق استهوائه دون حاجةٍ إلى اجتذابه بالمنطق والبرهان.

فقد أدَّى الاشتغال بعلم النفس الإعلاميِّ إلى تقرير حقائق.. منها أنَّ خيار الإنسان قد لا يستند بالضرورة إلى ميزة لهذا الذي اختاره على غيره.. أو لكونه حقًّا وما سواه باطل؛ فهو قد يميل إلى شيءٍ لا يفضِّل سواه، بل يتساوى معه أو يقلُّ عنه. فعندما نتحمَّس لفريق رياضيٍّ مثلاً ونصبح من هواته وأنصاره فليس لأنَّ هذا الفريق أفضل من غيره بالضرورة، فإذا تحمَّست أنتَ له فهناك مَنْ يتحمَّس لخصمه، إنها قضية حبٍّ لا قضية تفضيل.

ومن ناحية ثانية فقد اعتمد الفنُّ الإعلاميُّ لغزو العقول على الدفق الكميِّ للمادَّة الإعلامية بحيث يُغمَّر النَّاس بها غمرًا، وهو ما سمَّيناه بالطغيان الإعلاميِّ. كما

اعتمدت الدول ذات الأنظمة التوتاليتارية على أكثر من الطغيان الكمّي هذا، فجعلت إعلامها يقوم بعملية غسل للأدمغة عن طريق عزل رعاياها عن مصادر الإعلام الأخرى وتسليط إعلامها وحده عليهم، فكونت بذلك رأياً عاماً لا يتمتع بملكة النقد والمقارنة لأنّ ليس أمامه شيء آخر يقارن به ما يتلقاه، فحدا يتقبّل ما يُقدّم إليه على علّاته لأنّه لا يعرف بوجود ما يخالف ما تشرّبه فيظنّه الحقيقة الوحيدة. والواقع أنّ هذا ما يجعل الإيمان الدينيّ ينغرس في النفوس دون تمحيص، لأنّ الولد يتلقّى من أهله تعاليم الدين الذي هم عليه وكونه الدين الصحيح مع تسفيه الأديان الأخرى، فيتأصلّ هذا الإيمان بنفسه وتلتهب به عاطفته فتكون سداً دون تقبّله في ما بعد لما يناقض ما رسا عليه اعتقاده واستأثر بهوى نفسه.

ومما تجلّى لعلم النفس الإعلامي أنّ تكرار موضوع ما في الإعلام وترديده بشكل متواصل يُدخل في روع القارئ أو السّامع أنّه الحقيقة بعينها، ومن هنا جاء القول: "ردّد الكذبة تكراراً ينتهي الناس بأن يصدّقوها، وقد تصدّقها أنتَ نفسك، مهما كانت بعيدة عن التصديق".

الإعلام.. هو مثل فنّ الحساب (ولا نقول علم الحساب الذي لا لعب فيه)، فهذا الذي وُجد أصلاً لكشف المدخول والمصروف وتبيان المبالغ بدقّة أصبح يُستعمل ببراعة لإخفاء حقيقة الأرباح أو حقيقة الخسائر، إمّا للتخلّص من ضريبة أو الإقلال من حجمها.. أو لعدم إفقاد الناس الثقة بالمؤسسة أو تفادياً لإعلان إفلاسها. وهكذا الإعلام.. وُجد أصلاً لنقل الحقائق إلى النّاس، فاستُغلّ أيضاً لحجب الحقائق وإظهار خلافها، أو الحدّ من وقعها على النّاس بعدم كشفها في عريها الكامل، أو إغفال بعض جوانبها غير المرغوب في إظهارها، فالإعلام أيضاً له فرائسه وضحاياه.

الإعلام والرأي المجرد

لم تُنشر سابقاً.

في خضمّ ما سَمَّيناه بالطغيان الإعلامي لا بُدَّ لناشدي الحقيقة والمعرفة الخالصة من السعي لتكوين رأي صحيح مبنيّ على العقل والمعلومات الموثوقة. فالسعي إلى المعرفة الحقّ يقتضي القيام بجهد علميٍّ توصُّلاً إليها، وإجراء غريزة وتمحيص للمسائل انطلاقاً من حياد مطلق تجاهها ثمّ اعتناق الحقيقة التي يوصلنا إليها البحث وتقليب الأمور على جميع وجوهها وجوانبها.

فالعمل الإعلاميّ نشاط يقوم به مَنْ له مصلحة فيه، فهو دائماً يصدر عن الجهة المستفيدة منه. أمّا الوسيلة الإعلامية فإنّ لم تكن ملك المعلن فإنّها تتطوَّع لنقل المادة الإعلامية لقاء بدل. فليس من شأنها أن تتحقّق من صدقها، بل هي تنشرها أو تذيبها على مسؤوليّة المعلن.

هذا السلوك هو غير المعتمد في المجالات الفكرية، حيث الناقد يكتب أو يقول ما يكتبه أو يقوله غير هادفٍ من ذلك إلّا إلى التعبير عن رأي يراه صادقاً مُحقّقاً. ولا نستبعد جواز أن يكون ما يُكتب أو يُقال في المجال الفكريّ أو الأدبيّ صادراً عن تحيزٍ ومحابّة، ولكنّ القاعدة هنا هي التجرّد في الرأي، أمّا القاعدة في حقل الإعلام فهي أن تكون مادّته ممّا فيه مصلحة وفائدة للمعلن، والممارسة العملية في هذا النطاق لم تتّجه إلى تزويد القارئ أو المستمع أو المشاهد بالحقيقة، بل إلى التأثير عليه ودفعه إلى الإقبال على ما يُراد منه الإقبال عليه. ففي المقارنة ما بين الجدل العلميّ والحملات الإعلامية نجدهما على طرفي نقيض: الجدل العلميّ يجري بين فريقين يتبنّى كلٌّ منهما رأياً مخالفاً لرأي

مُناظره، إنّما يرافق ذلك استعداد مسبق لديهما إلى التسليم بصواب الرأي الآخر إذا تبين صوابه.. والتنازل عن الرأي الذي كان المقتنع به يدافع عنه. فالحقيقة هنا هي رائد الفريقين، فالواحد منهما لا يتمسك برأيه لأنّ هذا الرأي يوافق غايةً عنده، بل لأنّه مقتنع بصحّته. وهو يحاول أن تكون نتيجة الجدل في صالحه، ولكنّه لا يحاول ذلك إلاّ لاعتقاده بأنّ الحقيقة هي في جانبه. فهو يسعى إلى إعلاء كلمة الحقّ ودحض الباطل، ويأبى أن يفرض رأيه فرضاً على مُناظره، أو أن يجعل هذا المُناظر يسلم به تسليمًا على غير اقتناع، بل يبغى إقناعه بهذا الرأي وجلاء الحقيقة له أو ما هو في عُرْفه حقيقة؛ فعمله، في اعتباره، هو عمل هداية، لا عملاً يهدف إلى تحقيق غرض أو مصلحة ولو عن طريق التضليل.

أمّا الحملة الإعلامية فتضع الغاية منها أولاً.. ثمّ تبحث عن الوسائل والأساليب التي تقود إلى تحقيق غايتها. وعليها أن تجد السبل والطرائق التي تساعد على ذلك بقطع النظر عن أحقية أو جودة ما تدعو إليه. الأحقية إذا كانت تدعو إلى قضية من القضايا، والجودة إذا كانت الحملة في المجال التجاريّ تدعو إلى صنفٍ من الأصناف. فهنا يترتب عليها أن تقلّب الأمور إلى عكسها إذا كانت المسألة تقتفر إلى ما يرغب بها، أو أن تعمل على تغطية جوانب الضعف فيها والتركيز على الجوانب الطيبة، فـ "تخلق من الضعف قوّة" كما يُقال. ولمس هذا الاتجاه عند القائمين بالعمل الإعلاميّ لا يحتاج إلى كبير عناء، إذ يكفي الدخول إلى كواليسهم لرؤية هذه النية واضحة لديهم، نية تصوير الأمور على نحوٍ معين يوافق القائمين بالحملة الإعلامية.

الإعلام، وقد أصبح فناً أو تقنيّة لها أصولها وقواعدها وأساليبها، ابتدع أربابه طرائق عدّة. فمن طرائقه ما يُسمّى بالإعلام المزدوج، الذي يسير على خطّين مختلفين، فيتوجّه إلى جمهورٍ معيّن بخلاف ما يتوجّه به إلى جمهورٍ آخر، ويقول لهؤلاء غير ما يقوله لأولئك، مسابيراً كلّاً من الفئتين في ما تتمسك به أو

تنزع إليه، ومدغداً مشاعرها لتحقيق مراميه من خلال هذا السير الظاهري في تيارها.

وهناك أيضاً الإعلام الجزئي، الذي يكتسب الثقة ويحوز على تصديقه بأن يذكر شيئاً من الحقيقة إذا كان متوفراً لديه.. ثم يمزجه بما يريد، موهماً بذلك أنه مصدر موثوق لا يرقى إلى صدقيته الشك، أو يتظاهر بنقد بعض الجوانب التي لا بأس من انتقادها إذ لا يؤثر ذلك على الغاية من الحملة.. حتى تُظنّ فيه الموضوعية وقول الحق ولو على النفس، ثم يُطنب في إطراء جوانب أخرى أكثر أهمية، موحياً هكذا بأنه يمتدح حيث يجب المديح وينتقد حيث يجب الانتقاد.

وماذا نقول في الإعلام الخفي، هذا الذي لا يُستشَمّ فيه أثر للتوجيه، إذ يبدي لهجة تظهر كأنها حيادية غير متحيزة في الموضوع الذي تطرقه، ولكنها تدفع إلى رؤية للأمور على النحو الذي يريده أصحاب هذا الإعلام دون أن يدرك الجمهور الذي يتلقّى هذا الإعلام أنه مفتعل وهادف.

وهناك الإعلام الذي يستبق وقوع أحداث يعرف أصحابه سلفاً أنها ستقع، أو يُتوقع حصولها، فيتنبأ بها ناسباً إياها إلى غير أسبابها الحقيقية أو إلى غير الجهة التي تقف وراءها، مما يجعل من يرى أنّ التوقعات قد صدقت يثق بهذا الإعلام كلّ الثقة فيغدو مستعداً لتصديقه في كلّ ما يقول، وتصديق التفسير الذي يعطيه للأمور.

هذا والإعلام، خصوصاً الرسمي منه، كثيراً ما يجانب الحقيقة لا عن طريق الاختلاق أو التحريف، بل عن طريق الإغفال، إذ يُغفل ذكر بعض الوقائع أو الحقائق التي تُعتبر أسراراً أو يُحدث شيوع خبرها انعكاسات سيئة لدى الشعب. بعد أن اتّضحت لنا حقيقة العمل الإعلامي في بواطنه وخفاياه لا نحسبنا بحاجة إلى رسم الموقف الذي ينبغي أن يقفه الرأي العام الواعي من هذه الموجة الطاغية التي نمت كتنقيّة من التقنيات لا كعلم من العلوم التي تسعى إلى كشف

المجهول واكتناه الأسرار ومعرفة الحقائق، ونقصد بالتقنيات الأساليب والوسائل والمناهج التي يُقاس نجاحها ويكرّس اعتمادها بمقدار كمالها العملي ودقّتها في أداء مهمّتها دون تقييم للوسائل المستعملة إلّا من هذه الناحية.

إنّه لا يصحّ أن نطلب إلغاء الإعلام، بل يمكننا إيجاد نافذة نحو إعلام صادق وجادّ هو الإعلام التعريفيّ. فالإلى جانب كلّ ما ذكرنا من أنواع الإعلام هناك نوع واحد يمكن الركون إليه، أي الوثوق بصحّة ما يقدّمه لنا، ونعني به الإعلام الهادف إلى التعريف بقضية من القضايا أو صنف من الأصناف، وذلك بإطلاعنا بكلّ نزاهة على وجهة القضية أو جودة الصنف بذكر ما يحتوي عليه والمفعول الذي له، وعلى المتلقّي عندئذٍ أن يتصرّف بوحى معرفته هذه التي تقوده إلى حُسن الاختيار.

وقد يكون هناك إعلام لا يحتاج إلى تجميل وجهه ما يدعو إليه لأنّ حقيقته الصافية تغني عن رشّ القرفة والبهار عليه. فهو إعلام يتوسّل الحقيقة للنفاذ إلى القلوب واكتساب المؤيدين ويكتفي بإظهار هذه الحقيقة حتى يصل إلى غايته. فهو أيضاً إعلام يصحّ الركون إليه، وعندما يصبح الإعلام ككلّ في مثل هذه الرصانة والجديّة واحترام القول الذي يتلفّظ به يكون العالم قد سجّل وثبةً كبيرةً في سلّم الارتقاء من النقص البشريّ إلى الكمال الإنسانيّ.

أمّا الإعلام السائد حالياً بوجهٍ عامّ، والذي يطبّق المثل القائل: "لا أحد ينادي على زيتة عكراً" .. ويتغيّر لونا وطعماً واتّجاهاً مع كلّ تغيّرٍ يطرأ على المستويات النافخة فيه، كما تعنف لهجته أو تلطّف تبعاً لتأزّم العلاقات مع الغير أو انفراجها، ويكوّع ذات اليمين وذات اليسار تبعاً للتحالفات الوقتيّة والسياسات الظرفيّة، هذا الإعلام ينبغي أن ننقّب كثيراً في طبيّاته حتّى نهتدي إلى درهم العسل الذي فيه.. الجاثم على قنطارٍ من العود كما كان يقول الشاعر الزجليّ، أي درهم الحقيقة الغائص في بحرٍ من التعمية والتمويه، بانتظار أن يستنفد هذا الإعلام ذاته كما تنتهي كلّ صرعةٍ من الصرعات ولو طال عليها الوقت،

فنتخطى عندئذٍ مرحلته إلى مرحلةٍ أكثرَ تجانساً مع عنصر السموّ في الإنسان، ومع الإنسان البصير الذي يريد أن يعرفَ لا أن يندفعَ، وأن يبني موقفه بحريّة استناداً إلى العناصر الصحيحة التي تقضي به إلى اتّخاذ القرار الصحيح.. دون الاستجابة لمؤثرات وانفعالات تخدّره وتُضِلُّه وتنتيه به عن النظر السديد القويم، وإنّا بحلول هذه المرحلة المتقدّمة الراقية لآملون.

المسؤولية الإعلامية بين الأمانة للحقيقة والمصلحة الوخنية

تقديم لندوة حوار بين الدكتور شارل مالك والرئيس شارل حلو والأستاذ أنطوان خويري في دير سيّدة البير - بقنّايا - المتن. نُشر في مجلة *Le Libellé* الصّادرة عن طلاب جامعة "الروح القدس" - الكسليك، وفي مجلة "الصّحافة اللّبنانيّة" الصّادرة عن نقابة الصّحافة.

من القضايا الفكرية التي أثير حولها نقاش وجدل كبيران في الدول الديمقراطية التي تقدّس الحرية الفردية وفي طليعتها حرية الرأي والكلمة.. قضية الحدّ الذي تقف عنده هذه الحرية، وهل هي مطلقة مهما كانت الانعكاسات التي تنشأ عن ممارستها أم موظفة في خدمة الوطن والشعب فلا يمكن أن تتجاوز إلى ما فيه الإضرار بهما؟

ولمّا كان المبدأ العامّ للحرية، الذي رسا عليه الاعتقاد، هو أنّ حريتنا تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين فإنّ تطبيق هذا المبدأ على مسألة حرية الكلمة آل إلى فكرة أنّ هذه الحرية تحدّها مسؤولية من يمارسها مستفيداً من هذا الحقّ، إذ إنّهُ مسؤول عن النتائج التي يفتعلها بكلمته. فهناك مبدأ في القانون يحظرّ إساءة استعمال الحقّ، لأنّ حيازته ما كانت إلّا لاستخدامه من أجل الخير العامّ، وللانتفاع الشخصيّ به في الوجوه التي لا تتعارض مع الخير العامّ، وتطبيقاً لهذا المبدأ اعتُبرَ حقّ التملك، في الدول الديمقراطية نفسها التي تحترم الملكية الخاصة ولا تمسّها، وظيفة اجتماعية في خدمة المجموع، لا مجرد حقّ شخصيٍّ لمنفعة الفرد (المالك) وحده، وعندما تصطدم مصلحة الكلّ بمصلحة صاحب الملك، فإنّ التجريد من الملكية كلياً أو جزئياً، بالاستملاك أو بوضع اليد أو بحقّ

الاستعمال أو الارتقاء من قبل الدولة أو من قبل الغير، هو أمر ترعاه القوانين التي تعتبر عند ذلك أنّ الملكية الخاصة قد خرجت عن غايتها إذ تعارضت مع المصلحة العامة المسلم بأنها ترجح على مصلحة الأفراد.

من هنا جاء مبدأ L'abus de droit، أي سوء استعمال الحق، ليمنع استغلال هذا الحق بتحويله عن الهدف الذي وُضع من أجله، كما جاء مبدأ "الملكية وظيفة اجتماعية" (La propriété fonction sociale) ليمنع استغلال الملكية الفردية على وجه يتعارض مع إمكان تنفيذ المشاريع العامة والتطوير أو يوقع الضرر بالغير.

إنّما كان تطبيق المسؤولية على حرية الكلمة الصحفية، والكلمة الإعلامية عموماً، مثار نقاش على حدة لم يُفصل فيه حتّى الآن. فواجب الصحفي نحو قرائه، والإذاعي نحو مستمعيه، هو تزويدهم بالخبر الصادق وعدم كتمان الحقائق عنهم. فمعرفة الحقائق، والوقائع الصحيحة، هي سبب إقبال القراء على مطالعة الصحف، وإقبال المستمعين والمشاهدين على الإصغاء إلى وسائل الإعلام السمعية والبصرية. والسبق الصحفي والإعلامي هو ميزة الصحيفة والوسيلة الإعلامية على غيرها، ولكنّ الخبر الهامّ الذي يمكنها بواسطته تسجيل هذا السبق قد يكون ذا طابع سرّي بحيث يؤدي نشره أو إذاعته إلى استفادة الخصم من معرفته، أو إلى إحداث تشويش أو زعر أو إحباط في صفوف المواطنين (وهو ما يُسمّى بتعطيم المعنويات أو إضعافها)، أو إلى الاضطرار لإبطال العملية التي كشف عنها الخبر لأنّ سرّيتها كانت ضماناً لنجاحها، وهنا مأزق الصحفي والإعلامي في تأرجحه ما بين واجبه نحو قرائه ومستمعيه ومشاهديه وبين واجبه نحو وطنه والسلامة العامة.

منهم من رأى، بهذا الخصوص، أنّ معاهدة ضمنية تقوم ما بين الصحفي والقارئ، وما بين الإعلامي والمستمع أو المشاهد، يتعهد الأول بموجبها بأن يُصدّق الثاني الخبر والرأي، وهكذا يكون عليه واجب تجاه هذا الأخير وتجاهه

وحده، وليس مسؤولاً عما عدا ذلك، وهو هنا أشبه بالمحامي الذي يتوجب عليه الدفاع عن موكله مذنباً كان أم بريئاً، وصاحب حق أو مفتتاً على حق الغير، وليس مطلوباً منه إظهار الحقيقة التي تقع على القاضي مهمة استجلائها من بين ادعاءات الخصمين.

إلا أن هناك من عارض هذا الرأي بحجة أن الواجب الوطني يعلو على أي واجب آخر، وهو بالتالي مفروض على الجميع، لا يستثنى من الالتزام به أحد لأي ذريعة كانت. فالإعلامي كغيره.. لا يمكنه تعريض أمن وطنه ومواطنيه، أو مصلحتهما، للخطر، أو أداء خدمة للعدو، بحجة واجبات المهنة.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن تعدد الآراء والاتجاهات السياسية يجعل التوجه الوطني السليم للإعلامي ضائعاً أحياناً، أو بالأحرى خاضعاً للموقف السياسي الذي يلتزمه. فما يراه البعض خيانة يراه البعض ذروة الوطنية والإخلاص. وإذاعة الخبر أو كتمانها، من حيث كونه عملاً لا غبار عليه أو إخلاً بالواجب الوطني، يغدو رهناً بالمنطق الذي يصدر عنه الإعلامي في سياسته من جهة، وبالمنظرة التي ينظر بها إلى الموضوع أولئك الذين يؤخذونه على فعلته أو يحاكمونه عليها من جهة ثانية.

ويبقى، رغم أن هذه المسألة ما زالت موضع أخذ ورد، أن الدول الديمقراطية جعلت مسؤولية الصحفي ورجل الإعلام في ما ينشره أو يذيعه بدلاً من الرقابة التي تكره هذه الدول اللجوء إليها ولا تفرضها إلا اضطراراً. وهكذا يكون الشعور بهذه المسؤولية بمثابة رقابة ذاتية يمارسها الإعلاميون على أنفسهم في مقابل الحرية التي يتمتعون بها ويفتقدونها زملاؤهم في الدول التوتاليتارية حيث الولاء للنظام هو قبل كل شيء، وحيث السياسة الموجهة، والرأي الموجه، تقيداً بإيديولوجية هذا النظام، يخنقان كل حرية ومنها حرية الصحافة والإعلام.

حتى الآن وضعنا المسألة ما بين واجب الإعلامي بأن يصدق "زبائنه" الخبر، قرأء أو مستمعين أو مشاهدين، وضرورة مراعاته المصلحة العامة أو

المصلحة الوطنية التي توجب أحياناً عدم إفشاء أسرار.. أو إذاعة حقائق يؤدي الإطلاع عليها إلى انعكاسات سلبية. إنما يبقى هناك موضوع نزاع آخر، وهو ما بين حق الشعب بمعرفة كل ما يتعلّق به: كل ما تفعله الدولة باسمه، وكل ما يحيطه أو يتهدّده من أخطار، وكل ما هو محتمل أو متوقّع ممّا يمسّ به وبمصيره.. لأنّه هو المعنيّ بالأمر، وبين ضرورة حجب بعض الحقائق عنه لمصلحته بالذات، وحتى يمكن تسيير الأمور بعيداً عن الخوف والاضطراب وما ينشأ عنهما، أو بعيداً عن اتصال علم العدو بما يجب أن يظلّ سرّاً عليه، حتّى لا يستغلّ علمه به ضدّ الدولة التي يناوئها وبالتالي ضدّ شعبها.

ما هو مطبّق في الواقع هو المحافظة على السريّة في القضايا الحساسة والخطيرة للأسباب التي ذكرناها، ولكن يبقى الحقّ النظريّ والمبدئيّ للشعب بأن لا يقرّر ما يقرّر خفية عنه فيما هو صاحب العلاقة، هذا إذا اعتبرنا أنّ الحكام هم فعلاً وكلاء عن شعبهم، يتصرّفون نيابة عنه ووفق إرادته.

يُردّ على ذلك بأنّ هذا التوكيل نفسه يخول الحاكم بأن يقوم بما يحقّق أو ما تتطلبه مصلحة البلاد وشعبها على مسؤوليته وبحسب اجتهاده دون أن يرجع إلى الشعب في كلّ أمر، وإلاّ لماذا التفويض إذا كان الشعب يريد أن يتولّى أموره بنفسه أو أن يُملّي على الحاكم ما يراه هو ويرتأيه ليكون الحاكم مجرد منفذ؟ فهناك ممثّلو الشعب في الندوة النيابيّة، وبينهم فريق المعارضة، يمكن أن تعقد الحكومة معهم جلسات سرّيّة مغلقة لإطلاعهم على الأوضاع والتطوّرات الخطيرة وما اتّخذ بشأنها، أو ما يُعترَم اتّخاذه، من تدابير.. وهم، طبقاً لتسميتهم، ينوبون عن الشعب في الموافقة أو الاعتراض على هذه التدابير واقتراح غيرها. فهذا هو الأساس الذي يقوم عليه النظام البرلمانيّ، لأنّ تسليم الأمور للشعب بالذات متعذّر عملياً، كما أنّ الرجوع إليه في الأمور التي ينبغي ألاّ يشيع خبرها، أو التي لا يملك الشعب المعطيات ولا الحنكة السياسيّة للفصل فيها، يرتدّ عليه ضرراً قد يكون حاسماً. إنّ الحاكم، في هذه الحال، هو الطبيب

الذي يُخفي عن المريض حقيقة مرضه إذا لزم الأمر خدمةً لهذا المريض وحرصاً على إنجاح معالجته، لأنَّ معرفته بخطورة حالته يجعلها تتدهور أكثر، وربما يكون في ذلك القضاء عليه.

الجزء الثاني
أدبٌ وشعرٌ وصحافةٌ ومذكرات

الشاعر أمين ناصر الدين في ذكره

نُشرت في مجلة "الجندي اللبناني".

في العاشرة من عمره نظم الشعر، وفي سنٍّ غير بعيدة عن اليفاع أصبح "أمير الدولتين".

وإذا كان الشعر والنثر دانت له دولتهما فقد ضمَّ إليهما كذلك الإمامة في اللغة، وارثاً مواهبه عن أبيه، ومكتسباً علومه منه، وقد كان من أكابر أعلام النهضة في القرن التاسع عشر، وأحد معلّمي الرّعيّل الأوّل من رجالات الوطن في عصرنا.

بلغ الأمين، في سنيّ نضجه، مبلغ العلماء الكبار في اللغة وآدابها، وله في هذين الحقلين دواوين شعرٍ ومعاجم، كما له في النحو، والتّاريخ، والرواية، والتراجم، والنقد والاجتماع.

لازم العزلة منقطعاً للقلم والكتاب، فبقي خديناً لهما ثمانية وعشرين عاماً. شعره يتميز بالسبك المتين، الجدير بمتضلعٍ مثله من اللغة، على شاعريّة واضحة تطلّ من خلال الصناعة العالية في تركيب البيت الشعريّ:

وَأَزُورُ مَنْ عَاتِ تَجَاهِلٍ قِيَمَتِي وَإِنْ يَكُ مِنْ جُنْدِ الْمَنَابِإِ لَهُ جُنْدُ
وَلَمْ أَبْغِ إِلَّا مَا يَصُونُ مَرْوَعَتِي مِنْ الْمَالِ، إِذْ لَمْ يَعْلُ ذَا شَرَفٍ نَقْدُ
إِذَا الشَّاعِرُ اسْتَجْدَى الْمُلُوكَ بِشَعْرِهِ تَمَنَّيْتُ أَنْ أُجْدِيَ الَّذِينَ قَدْ اسْتَجَدُوا
وَلَوْ قِيلَ إِنَّ النُّومَ فِيهِ غَضَاضَةٌ لَحَلَّ مَحَلَّ النُّومِ مِنْ جَفَنِي السَّهْدُ
وهو شعر إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على إباءٍ وعزّةٍ في النّفس يصلان إلى حدِّ الكبر لا الكبرياء، حتّى ليعاف إغماض عينيه في إغفائه إذا كان في ذلك مظهر استكانةٍ أو باعث ملام.

أما حبّه للبنان فقد بلغ الحدّ الأقصى، ويفترن هذا الحبّ لديه بشعوره بما كان لأجداده بني تنّوخ من نضالٍ في سبيل هذا الوطن:

سلوا من ربي لبنان أقدمها عهدا وناجوا صروحاً حاكت الأبلق الفردا
تخبركم أنا حمّة نماره وأنا بنينا بالسيوف له مجدا
ولم يحظ هذا الشاعر من دنياه بأيّام هائلة.. على نشوئه في أسرة من كرام
الأسر. وقد ثبت لنوازل الدهر ثبات الجبارة.. على توالي ما تلقاه من سهام
الأقدار، وما تحمّله من دُهم الخطوب"، كما يقول نسيبه الأمير نديم آل ناصر
الدين.

وفي السادس من تشرين الأوّل من العام ١٩٥٣ انتقل هذا الشاعر من دنيانا،
فخبت بوفاته منارة للشعر والعلم، وذلك طود من أطواد لغة الضاد استطاع أن
يعطي فيها شعراً من خالص الشعر.. على أصوليّة في التعبير العربيّ والأداء
البيانيّ أصبحا نادرين في أيّامنا.

مات الأمين وهو يرّدّد هذا البيت مخاطباً فيه بلاده:

سنحميك ما دامت ظباننا مواضياً وما حملت منا الفوارس ضمراً

أمين ناصر الدين هو سليل الأمراء التتويين الذين حكموا بعضاً من لبنان في
عهد الحكم الأميريّ له. نشأ في بيت علم وأدب، متدرّجاً على يدي والده الأمير
علي آل ناصر الدين، فأحاط بالعربيّة لغةً وأدباً متوغلاً في أسرارها ودقائقها،
وفي طبيعتها وخصائصها. وتجلّى تأثير تمكّنه من اللّغة في شعره، فإذا هو على
سبكٍ متين.. تبدو معه القصيدة كالمنحوتة التي توفّر على إنجازها إزميل معلّم
صناع، غير أنّ نفحة الشعر تظلّ بادية فيها خلاف قصائد اللّغويين.

وقد حظي في حياته بمبايعة من زملائه الشعراء والأدباء شبيهة بمبايعة أحمد
شوقي من قبله، والأخطل الصّغير من بعده، أمارة الشعر، إذ أقيم له، في العام

١٩٣٣، مهرجان تكريمي في قاعة "التياترو الكبير" ببيروت اشترك فيه أعلام الأدب والشعر في العالم العربي وبايعوه بالإجماع امارة الدولتين: دولة الشعر ودولة النثر، والإمامة في اللغة.

شعوره القومي

عزيز علينا أن يصابوا بملكهم ولكن مُصاب القوم بالخلق أعظم

هكذا لخص الأمين وضع أبناء قومه العرب في عصرنا الحاضر: تفهقر خلقي.. عقبه، كنتيجة ملازمة، تفهقر قومي وسياسي. فما انحلت أخلاق أمة إلا انحطت بها الحال تبعاً لذلك، لأنّ الدول إنما "تدول" عندما يصل انحلالها الخلقي والاجتماعي إلى ذروته، وعندما يفعل فيها التفسخ الداخلي الناجم عن فقدانها الروح المدنيّة (L'esprit civique) وفقدان أبنائها صفات المواطنة الصالحة.. فتتفتت وتنهار.

وهذه الحقيقة لم ينطق بها لسان الأمين بصورة عابرة، بل هو ركز عليها في شعره حتى ليقول في إحدى قصائده:

بيعرب صاح الدهر: "يا لك أمة عن المجد تلهو بالتخاذل والصخب
أضاعت هداها والرزايا تحفها فلم تدر من تختار للموقف الصعب
ولو ملكت رأيا أصيلاً لفوضت عقوبة من خانوا إلى الصارم العضب

أما القصيدة التي استهللنا بأحد أبياتها هذا المقطع عن شعور الأمين القومي فقد أرسلها بمناسبة حلول مطلع إحدى السنوات الهجرية متسائلاً ماذا تحمل هذه السنة للعرب في طياتها، إشراقة أمل.. أم عتمة دواه وخطوب؟:

هلالك ماذا بعده يا محرم أقمراء ام داج من الخطب أسحم؟

ولقد شنّ الأمين حملة على الإسفاف الخلقي عندما يبلغ من الشيوع حدّ شمول شعب بكامله، إذ تراءى له شعبه وأمتّه على درجة من الهوان لا نستغربها متى

تذكرنا أنَّ الشاعر عاش معظم حياته في عهد الحكم الأجنبي للبلدان العربيَّة، عندما لم تكن هذه البلدان سوى إقطاعاتٍ خاضعة للنير الغريب، وهو في الأبيات التالية يصوِّرها في تلك الحقبة من تاريخها.. مقارناً بين حاضرها هذا وسالف عهدها الماجد:

ما صرَّ لي قلم وسال مداً لولا منازل أهلها قد بادوا
أخضت عليها الحادثات فما بها حَيَّ يؤمُّ فِئاء المرتدَّ
وأراني التذكار ماضي عهدها فإذا العرائن دونها الأسادُ
يَبْيَضُ داجي الليل من آرائهم وإذا التظوا غشَّى النهار سوادُ
لا يطمئنُّ إلى الغضاضة منهم قرمٌ وإن تَلَمَّ السيوف جِلادُ

ألا فلنتهض هذه الأمة على هَدْيٍ مَنْ أناروا لها السبيل من الشعراء والمفكرين..
وفي طليعتهم الشاعر امين آل ناصر الدِّين.

الدُّنيا والآخرة في قصيدة لبولس سلامة

نُشرت في جريدة "الشُّرق الأوسط" الصَّادرة في لندن.

"الدُّنيا" هو عنوان القصيدة التي نعقد عليها هذا المقال، والدُّنيا على لسان بولس سلامة ليست مثلها على لسان مَنْ لم يعركه الدَّهر كما عرَّكَ "أيُّوب عصره" الذي عانى مصاعب الحياة وآلامها طويلاً من السنين، واختبر بواطنها وخوافيها حتَّى بات أدري بمكنوناتها منه بظواهرها المكشوفة، وإذا الحديث معه حول الحياة ليس حديثاً بالمعنى المتداول المألوف، بل هو خلاصة تجارب عمر، وحصيلة اختبارات استفادها القاضي والشَّاعر.. ثمَّ المريض المزمن الذي غدا وفراشه واحداً لطول تلازمٍ والتصاق:

إنَّ حظي من الحياة سريراً صرتُ منه فلم يعد خشيباً

وما أدراك ما يجني مريض مثله من حقائق الحياة، وما يكون أثرها في نفسه تلك السنون السبع عشرة التي قضاها بين جدران أربعة لا يخرج من بابها.. فيما سياحات فكره وخياله جاوزت كلَّ حدود، وأثمرت من الكتب والدواوين والملاحم عشرات.

صاحب "عيد الغدير" و"عيد الرياض"، العمارتين الشاهقتين بين صروح الشعر العربيِّ المعاصر، نرافقه في هذا المقال عبر قصيدته "الدُّنيا" التي استرسل فيها بتأمُّلات إنسانٍ مؤمن، مشبع، وهو الذي لم يولد على الإسلام، بروح آيات القرآن الكريم ومضامينها حتَّى لكأنَّ كلَّ بيتٍ من أبيات قصيدته هذه ترجمة شرعية لآية من هذه الآيات.. أو عصارة من وحيها:

يا خالق الأرض والسرّ الذي فينا تأخر العقل أن ينمو فيهدينا

والعقل طفل يتيم في جوانبها ما زال بعدُ جنيناً في فيافينا
وأجهل الجاهلين المدّعين حججاً مَنْ دَوَّنوها فكان الجهل تدوينا

أجل، "وما أُوتيتُم من العلم إلا قليلاً" يقول الكتاب الكريم، وبولس سلامة يردّد صدى هذه الآية في شعره وهو المقتنع في صدق إيمانه بأنّ فوق كلّ ذي علمٍ عليم.

وبين العقيدة الدينيّة القائلة إنّ الله برأ الأشياء من عدمٍ بأن قال لها: "كوني" فكانت ("وإذا أراد الله أمراً فإنّما يقول له: "كن" فيكون") والمذهب الفلسفيّ الزاعم بأنّ المادّة قديمة غير مخلوقة وعمل الله اقتصر على إعطائها صورتها نرى بولس سلامة يسرد ذلك شعراً وقد غلبت مسحة الإيمان على تفكيره:

قالوا نطقَتْ بـ "كُنْ" لا شيء يتبعها فأصبح الكون شيئاً بين أيدينا
وقال بعضهم: "لا شيء من عدمٍ برى الإله ولكن زَيْن الطينا"

وهنا يخلص الشاعر إلى ذكر فضل الله على عباده بإطلاعه لهم من الأرض ما يغتذون به ويتلذذون:

نِعْمَ التراب لنا جدّاً نعيش به، ما زال من قلبه المعطي يغذي
لولا لم نعرف الخيرات دافقةً ولا الحياة استمرّت في تراقينا
ولا البساتين أعطت من أطايبها ولا الحقول حبتنا ما يغذي

ولكنّا نعجب من تكرار القافية الواحدة مرّتين في بيتين متجاورين من القصيدة كما يلاحظ القارئ، ولا نجد تفسيراً لذلك إلاّ أن يكون الشاعر أنهى قصيدته دون أن يعيدَ النظر فيها، إذ أنّ مثله لا يرتكب هفوة كهذه وهو من هو سعة باعٍ شعرياً ولغوياً.

ولا يُعتدّ بأنّ القصيدة ظلت بين يديه أكثر من سنة قبل أن "يُفرج عنها" ويسلمها للنشر (فرغ من نظمها، بحسب التاريخ الذي ذيل به مخطوطتها، في ١١ نيسان ١٩٧٨، ونشرها لأول مرة في أواخر آب ١٩٧٩)، فكانت له فسحة كافية من الوقت لكي

يراجعها مستدركاً نقائصها، إذ إنَّ شاعرنا مكثراً مدراراً، تطلع في كلِّ يومٍ من بنائاته قصيدة يودعها أدراجها ولا تتسنَّى له مراجعتها من بعد.

على كلِّ فإنَّ هذه الأبيات الثلاثة تلتقي مع آيات متعدّدة في كتاب الله.. منها: "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حَبّاً فمنه يأكلون، وجعلنا فيها جَنّاتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ وفجّرنا فيها من العيون"، ومنها أيضاً: "ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جَنّاتٍ وحَبّاً الحصيد، والنخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد، رزقاً للعباد".

وعندما ينتقل الشّاعر في قصيدته من الأرض إلى الجنّة التي وعد الله بها المتّقين تظالعنا وحدة الأسماء والأوصاف والتعابير في كلِّ من القصيدة والآيات المُنزلة: "الكوثر، الظلال، الرياحين وما تشتهي الأبصار":

أَلله، سبحانه، في عرض جنّته في كلِّ زاويةٍ بثَّ الرياحينا
وكوثر وظلال لا نظير لها وكلُّ ما تشتهي الأبصار يدعونا
مآدبٌ دونها كسرى وعزّة دون ما شهدت مصر الفراعينا

فلنستعرض، بالمقابل، بعض ما أنزل الله على رسوله بهذا المعنى: "فأما إن كان من المقربين فروحٌ وريحانٌ وجنّاتُ نعيم (سورة الواقعة)، "إنَّ المتّقين في ظلالٍ وعيون، وفواكه ممّا يشتهون" (سورة المرسلات)، "... وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين" (سورة الزخرف).

أمّا "المآدب" التي ألمحت إليها القصيدة ولم ترد بهذه التسمية في القرآن أفلا تنبئ عنها آياتٌ من مثل: "يُطاف عليهم بصحائف من ذهب وأكواب"، و"كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون، متكئين على سُرُرٍ مصفوفة؟" وما عساها تكون تلك المآدب التي لم يشهد مثلها كسرى والفراعين إن لم تكن هي التي يصفها لنا كتاب الله؟

ولكن.. من مباحج الجنان وصور الخير الدافق ينتقل الشّاعر إلى مشاهد الشرِّ على الأرض، كأنّه أراد أن يختم قصيدته بالمرور على حقائق الحياة المريعة،

هذه التي نعيش في كنفها شئنا أن أبينا.. فإذا بها تُبعدنا عن التقلب في منام
الرضوان الإلهي لتلقي بنا في مهالك الدنيا القذرة قبل أن تتلقفنا مهالك الآخرة
عُبَّ يوم الحساب:

نَجَّاكَ رَبُّكَ مِنْ أَرْضٍ لَقِيتَ بِهَا رُقُطَ الْأَفَاعِي وَأَصْلَالَ ثَعَابِينَا
مِنْ كُلِّ عَاهِرَةٍ أَوْ عَاهِرٍ نَسِ فَاَلْبَسُوا الْعَهْرَ أَزْيَاءً وَتَلَوِينَا
شَرَوْا بِكُلِّ نَفِيسٍ حُلَّةً بَخَسَتْ وَأَفْسَحُوا كُلَّ صَقْعٍ لِلْمَرَابِينَا
فَسَخَرُوا الْكُذْبَ وَالرَّجْسَ الْفَظِيعَ وَقَدْ بَزَوْا بِمَا فَعَلُوا سُودَ الشَّيَاطِينَا

إنَّها خواطر عرضت لنا في سياق قراءتنا هذه القصيدة التي خاضت موضوعاً
يصعب الخوض فيه شعرياً، فتمكنَّ الشاعر رغم ذلك من المحافظة على النَّفسِ
الشَّعْريِّ ولو أنَّها أوغلت في الفكر والتعمُّق، وعلى النسيج الرفيع المأثور عن
حياكة بولس سلامة.

بين "مصرع بزرجمهر" لخليل مطران و"شمشون" الياس أبي شبكة

أُقيمت في قاعة محاضرات مطرانية بعلبك للروم الملكيين الكاثوليك بدعوة من نادي الشبيبة الخيرية في المدينة.

"مصرع بزرجمهر" و"شمشون" قصيدتان قصصيتان تروي أولاهما مقتل حكيم فارس على يد كسرى إثر نصيحة وجهها إليه، وتروي الثانية سقوط الجبار العبراني في الخطيئة ومحاكمته التي انتهت بتقويضه صرح الهيكل على رأسه ورؤوس أعدائه معاً.

القصيدة المطرانية تسرد الحادثة وتستخلص منها العبرة: الملك يقتل وزيره بغياً وعدواناً، والجموع الحاضرة مشهد الإعدام تعرف ذلك ويستعر غيظها في الصدور، ولكنها تكتم هذا الغيظ خوفاً ورهبةً وتتظاهر بالبشر والسرور، ولا تتمرد على الظالم فتوقفه عند حدّه مع أنّها لو فعلت لما استطاع وليّ الأمر أن يبطشَ بطشه لأنّ قوّته مستمدّة من هؤلاء الناس الذين نصبوه ملكاً عليهم وقدموا له الطاعة. فهو صنيعهم وهم مع ذلك يرهبونه، كمّن ينحت صنماً بيده ثمّ يخرّ له ساجداً، وهي نفس القصة التي تدور عليها أيضاً قصيدة "نيرون" لخليل مطران:

قزّمة هم نصبوه عاليًا وجثوا بين يديه فاشمخرا
ضخّموه وأطالوا فيئله فترامى يملأ الآفاق فجرا
منحوه من قواهم ما به صار طاغوتاً عليهم أو أضرا
كلّ قوم خالقو نيرونهم قيصر قيل له أو قيل كسرى

خليل مطران يركّز على الشعب الذي يعاني من ظلم حاكم ليس له من القوة بمفرده قلامة ظفر، فقوّته يستمدّها من المجموع الذي يمنحه هذه القوة ثمّ يشتكي منه في سرّه ولا ينتفض في وجهه. فهو - خليل مطران - في هذه القصيدة وفي قصيدة "مصرع بزرجمهر" يماثل موقف إيليا أبي ماضي الذي يتوجّه إلى هؤلاء الذين يمنحون الغنيّ غناه والقويّ قوّته ثمّ يخشعون أمام عظمة يرونها فيهما من جراء ذلك حاسبين أنّها امتياز من الله، ويُشيدون بغنى هذا وقوة ذاك بإجلال وإكبار جاهلين أنّهم هم المانح والداعم:

وقالوا: "غنيّ كان يسخو بماله"، فقلت لهم: "هل كان أسخى من المطر؟"
وقالوا: "قويّ كان يحمي زمارنا"، فقلت لهم: "هل كان أقوى من القدر؟"
أكان غنيّا أم قويّا فإنّه بمالكُم استغنى وقوّتكم ظفّر

وفكرة الغنيّ الذي غنيّ بجهد البسطاء الذين يسرّوا له بعملهم الثروة التي يمتلكها يعود إليها أبو ماضي بقوله:

أم غنيّ؟ هيهات تختال لولا دودة القزّ بالحياء المبيّج

ودودة القزّ هنا تمثّل الإنسان العامل الكادح من أجل أن يستفيد غيره من جنى يديه.. ثمّ تبهره ثروة هذا الغير وكأنّه لم يقدمها هو إليه طائعاً صاغراً. وبالعودة إلى خليل مطران في قصيدته نجد تحقير ابنة الحكيم المقبل على الموت لتفاهة رجال ليس لهم من الرجولة غير الاسم، فتعبّر عن نظرتها هذه إليهم بظهورها سافرة غير مؤتزرة، وإنّ يستفسر صاحب "الإيوان" عن هذا التصرف مستغرباً إيّاه تجيبه بأنّها لم ترَ في الجموع الحاضرة رجلاً فتستتر منه وإنّما كلٌّ من حولها رسوم وظلال:

ما كانت الحسناء ترفع سترها لو أنّ في هذي الجموع رجالاً

العبرة في هذه القصيدة لا تنحصر بحادثة فردة هي هذه الحادثة، بل هي حقيقة عامّة تلازم التاريخ.. أبرزها خليل مطران من خلال صورة واحدة لها، ولكنّ

المهم في القصيدة أنها ارادت الحادثة بالذات، أنها عنتها كواقعة تاريخية تُقاس عليها سائر مثيلاتها، وهذا ليس حال قصيدة "شمشون" لإلياس أبي شبكة. فإنّ طليعة قصائد "أفاعي الفردوس" ليس بطلها "شمشون" إلا رمزا لشخص آخر هو الشاعر نفسه، وليست حادتها إلا حلّة تاريخية أو أسطورية ألبست بها حال الشاعر. وتظل الحقيقة هنا عالمية لا فردية، ولكن صورتها التي نقيس عليها شبيهاتها هي صورة شمشون والياس أبي شبكة معاً، بينما لا دخل لخليل مطران شخصياً بالحالة التي تعبّر عنها قصيدته "مصرع بزرجمهر"، فهو فيها شاعر موضوعي، أما أبو شبكة في "شمشون" فهو شاعر ذاتي ألبس قصيدته رداءً موضوعياً.

إلياس أبو شبكة، كشاعر أو كرجل، عاش في حياته ظروفًا معينة كان لها تأثيرها على نفسيته، فتقمص في قصيدته شخصية شمشون، وتقمصت حياته وظروفها حياة وظروف تلك الشخصية، فهو شاعرنا نفسه يطل علينا بوجه شمشون ويستعيّره مجرد استعارة.

الحقيقة التي أراد أبو شبكة إبرازها في هذه القصيدة هي حقيقة الإنسان الذي يقع في الخطيئة، ولكنه يشعر في قرارة نفسه بأنّ الإثم لم يلامس جوهره، فهذا الجوهر ما زال كما كان قبل السقوط. إنّ الخطيئة مسّت أطرافه ولم تنفذ منه إلى الصميم، قصّت جانحيه، ولكنّ القوة التي كانت تتبعث منه فتحرّكها ما زالت كامنة في صلبه. إنّ جسده تلوّث ولكنّ روحه باقية على نصابها، وهو ما عبّر عنه في موضعين آخرين من "أفاعيه" بقوله:

كم فتى يسعر الجحيم بعينه وفي القلب للسماء مراق

وقوله:

قيثارتي لم أطّخها بأقذار على طوافي بها في بؤرة العار

وما عبّر عنه نسيب عريضة بقوله:

كم مومس تمضي عنزاً للرّمس

ومن ناحية أخرى فهذا المجتمع الفاسد الذي يدين الخاطئ ويطالب برجمه لا يليق به محاكمة هذا الخاطئ لأنه مثله في الواقع، ولكنه يحجب حقيقته القذرة بالمظاهر البراقة من أروية وعظمة ومقامات:

بؤرة تعبق القذارة منها سئرت بالشفوف والبرفير
أيدى الخاطي جناة صعاليك ويقضي الفجور ننب الفجور؟!

كل هذا مستوحى من حياة خاطئة عاشها الشاعر وتعرض فيها لانتقاد الناس على حقارتهم، وكان يشعر دوماً بأنه "مومس عذراء" تقرب الإثم دون أن ترتكبه:

قد أشرب الخمر لكن لا أدنسها وأقرب الإثم لكن لست أرتكب

ويندخل شمشون التوراة في الموضوع ليمثل دوراً لا أكثر. فهو كان يكتنز في شعره قوة هائلة، فلما وقع في حبال دليلة جزّت له شعره أملاً بتجريده من هذه القوة، لكن روحه لم تتأثر بالتغير الشكلي الذي طرأ عليه، فكان له منها قوة بديل دفعت به إلى زعزعة أركان الهيكل وتقويضه. لقد طال شر دليلة قشرة الجسد ولم يطل الأعماق، فظلت هذه على صفائها، وزودت من ضعف جسده ولكنه ظل جبار روح بالقوة الباطنية الحصينة التي لا تطالها الشرور.

والشاعر العصري الذي عاش في النصف الأول من القرن العشرين كان يشبه شمشون من وجهة معنوية. فهو إذا ما تردى في مهاوي الشر فلأن الإنسان، كل إنسان، معرض لذلك:

إن أكن سقت في غرامك شراً فالبرايا مطيئة للشرور

غير أن معدنه خير في أساسه، حتى أنه إذا تسرب إليه نتن الجيف الجرداء فإنه يتملّئه في باطنه محولاً إياه إلى شهيد من طيب العسل:

غير أنني أجنى من الجيف الجرداء - مهما قنرت - شهيد قفير

وهو إذا التفت صوب الإثم أو انصرف إليه فلا يعني ذلك أنه سلّمه قياده وأباح له نفسه وغدا بين قبضتيه، فهناك فرق بين الانحياز إلى الشيء وبين العبودية له:

هَيْكَلُ الإِثْمِ لَمْ أُبِحْ لَكَ ذُلِّي، شَبَحَ الرِّقَّ لَمْ أَسْلَمْكَ نِيرِي

وهذا الدجل الذي يصطنعه المجتمع في إدانة السّاقط وهو - أيّ المجتمع - في حاجة إلى مَنْ يدينه يجدر القضاء عليه مرّة واحدة:

فَاسْقُطِي يَا دَعَائِمَ الْكَذِبِ الْجَانِي وَكُونِي أُسْطُورَةً لِلدَّهْورِ

إنّ شعوراً، على أثر الخطيئة، بنقاء الجوهر الداخلي الذي لم يُمسّ، وعودةً إلى الاستمساك بالإرادة الخيرة بعد فترة نزوة عابرة وضعفٍ وفتي كان الإنسان خلالهما غريباً عن نفسه، من شأنهما إثبات أن استسلام الشاعر للرزيلة كان حالة طارئة شاذة، وأنّ طهارة الرّوح هي القاعدة بالنسبة إليه. لقد مرّ في مرحلة سُكْرٍ وجد نفسه أثناءها مدفوعاً إلى ما لا يريده، ويستحيل عليه في صحوه أن يتنكّر لأصالته التي هي من معدن الخير. ومن هنا ينبع إحساسه بأنّ الظلام الذي ساد نفسه فترة عاد فانقشع عنها، وأنّ نوره سيضيء من جديد كما كان:

مَحَقَّ اللهُ فِيَّ شَرَّ ظَلَامِي فَلْتَضِيَّ فِي الْحَيَاةِ حِكْمَةُ نُورِي

وإذا كانت الخيانة قد استغلّت طيشه العابر وحياده عن الصراط فانترعت منه قوّته البدنية فإنّ شعوره الذي لم يتبدّل بصفاء عنصره ونقاء سريره هيأ له قوّة روحية سرت إلى جسده وكانت له خير عوض عن قوّته المفقودة. ويعني الشاعر بذلك أنّ رصيده الذي كان له قبل تعرّضه لم يخسره بعد زلّته، لأنّ ما انحدر منه إلى الدرك السفلي هو شخصه الهامشيّ فيما بقيت "أنّاه" الصميمة بعيدة عمّا حدث، ومحتفظة بعنصرها الخالص الذي لا شائبة فيه:

إِنْ تَكُنْ جَزَتْ الْخِيَانَةُ شَعْرِي فِي ضَلَالِي فَقَوَّتِي فِي شَعُورِي

الخلاصة أنَّ هَاتَيْنِ الْقَصِيدَتَيْنِ: "مصرع بزرجمهر" و"شمشون" ركَّزَ كُلُّ مِنْهُمَا على حقيقة عميقة: أولاهما أنَّ المستبدَّ يقوى بنا ليستقوي علينا، والثَّانية أنَّ في الإنسان ازدواجية ما بين شخصية جانبية عرضية وشخصية هي اللبَّ والصميم، فإذا تلوَّثت الأولى تبقى الثَّانية على نصاعتها، تبقى ذاته الحقيقية مسيَّجة بحصانة لا تجنح بها إلى انحدار.

"إلياس أبو شبكة شاعراً وإنساناً"

تقديم الأستاذ جورج سالم في محاضراته عن إلياس أبي شبكة في دار بلدية جونية بدعوة من "مجلس كسروان الثقافي" سنة ١٩٦٥. نُشرت في جريدة "الجريدة" إلى جانب حديث مع الكاتب، وفي عدد ممتاز من مجلة "الرحمة".

وسط اتجاهات المذاهب الشعرية المختلفة، القائل بعضها بأدب اللفظ، وبعضها بأدب المضمون، والمنحاز بعضها إلى عنصر العاطفة وسواه إلى عنصر الخيال، طلع علينا من هنا، من هذا الجوار، صوت شعريّ لو افتقر إلى هذه العناصر جميعاً، وهو لا يفتقر إلى معظمها، لظلّ صوتاً شعريّاً حقيقياً صادقاً.. كلما أعرته أذنًا مرهفة وقعت فيه على كوامن للجمال.

إنّه صوت إلياس أبي شبكة: شاعر لا يصحّ فيه الارتجال، ولا يُستنفد في عجلة، وقد قضى علينا أن نتناوله الآن ضمن حدّين من السرعة والإيجاز. إلّا أنّه ليس بالإمكان المرور به دون الوقوف عنده حيناً يسيراً، كالمؤمن الذي يقف هنيهةً أمام أيقونة في الطريق.. لا يخفّف قصرها من حرارة خشوعه. وهكذا إذا كان علينا أن نذكر الخطوط الكبرى لخصائص شعر هذا الشّاعر قلنا إنّ كان يجد سبيله إلى النفوس بأداءٍ شعريّ لا يخونه أبداً مهما خانتها الفكرة والزخرف وانتقاء الكلمات.. على قلّته ما كانت تفعل.

وهذا الأداء يبلغ من الكمال حدّاً بعيداً.. حتّى ليشعر القارئ أو السّامع بأنّ وقع البيت في نفسه يُفعم أرجاءها بدفقٍ عاطفٍ حارّ. فهي من جهة تستغني بهذا الوقع عن متابعة قصد الشّاعر واستيعاب معانيه، لأنّ الرّعدة الجمالية فيها قد حدثت وانتهى الأمر، وهي من جهة ثانية لا تحسّ بأيّ فراغ وهذا الشّعر يملأ حناياها جميعاً، فلا تتمنّى لهذا القصيد شيئاً بعدُ فيكتمل، وإنّما تتشعر بأنّها في اكتفاء الذي حظي بكلّ ما ينشد، وفي تمام نشوة وارتياح.

أجل، آية الياس أبي شبكة ذلك الرصيد الشعري في نبرة البيت، جاء ذلك البيت غنياً بالمعنى أو فارغاً منه، وجاء مشدّباً ومنحوتاً أو غير مشدّب ومنحوت. فلو شاء أبو شبكة أن يتناول أيّاً من تعابيرنا اليومية المتداولة المألوفة ويصوغه شعراً لجاء على لسانه من رائع الشعر ولو لم يُضِف شيئاً إلى معناه، ولو لم يتصرّف أيّ تصرّفٍ بجوهره.

ومن عناصر الأداء لدى شاعرنا نفس عفويّ منسرح لا تنتسم فيه الإجهاد، ولا تنتفس الصعداء كمّن ضاق صدره حين تنتهي من تلاوته. كلّ ذلك يجعل منه شاعراً أصيلاً كما يسمّي البعض هذه الظاهرة، أو شاعراً مطبوعاً كما يسمّيها البعض الآخر.

شاعر شاعر، كان إنساناً كذلك بهذا القدر؛ إنساناً بروحه الصريحة التي لا تعرف الزيف، وبحبّه العظيم الذي تصلح قصّته موضوعاً يُنسج إلى جانب قصص الحبّ الخالدة، وبألمه الكبير الذي اكتنف سحابة حياته القصيرة كلّها، وبالتجربة الإنسانية الصميّة التي مرّ بها فأغنت روحه بحقائق الحياة العميقة. ويبقى، على سبيل الخلاصة، أنّ هذه الحنجرة التي انقطع رنينها - ولا نقول صوتها الباقي أبداً في الأسماع - قد تفضّلها حناجر أخرى من حيث أنّها صُقلت أكثر، وهذّبت ونُحت معدنها - كريماً كان هذا المعدن أو غير كريم -، ولكنّ فضلها هي على سواها أنّها من ذهبٍ خالصٍ.. نقيّ؛ ولا يهمّ بعد ذلك صُقل هذا الذهب أو لم يُصقل، ومرّ على يديّ صائغٍ جوهريّ أو لم يمرّ.

هذا الشاعر يجري حديثه الآن على لسان أديب غنيّ روحه، واتّسع فكره وشفّ إحساسه بحيث يستطيع أن يرافق أبا شبكة في اللطيف من دقائق فنّه، والبعيد من خفايا ذاته. أديب خمرته ثقافة ضربت عرضاً وعمقاً فكانت شاملة وموغلة في آن، وجاده الغيث من سماء الشعر، فكان له منه عرائس تستطيع أن تتقدّم بجرأة إلى مهرجانات الجمال.. لدى اختيار الملكات. الشاعر جورج سالم يتحدث عن الياس أبي شبكة شاعراً وإنساناً.

لعلّها من نعم الله عليك...

ألقيت باسم مجلس كسروان الثقافي في ذكرى الشاعر الياس أبي شبكة - القصر البلديّ - زوق مكابيل - ٢٧ كانون الثاني ١٩٧٨. نُشرت في جريدة "العمل".

كسروان، وقد أثقلَ هامه بالأسماء الكبيرة التي قدّمها لهذا الوطن؛ للفكر فيه.. وللشعر، وللکلمة في أيّ إطار جاءت وبأية لغة، كسروان هذا يأتيك اليوم.. ووراءه أطياف على رؤوسها التيجان كالمجوس، حاملةً إليك الهدايا وساجدةً أمامك، منها الشدياق ومي، ومنها بركات والخازن ومنها القرم وأبو زيد، فأنت إمامهم دون منازع، وأنت لكلٍ منهم درّة التاج.

كسروان.. بشخص مجلسه الثقافي، هذا الموكل بالإرث الخالد، تارةً يحسن نهوضاً به وتارةً لا ينجو من تعثرٍ وزلل، يقول فيك الآن كلمة الوطن التائه فخاراً ببنيه، ويدخل حرم الزوق منبت النوابع، بلدتك وبلدة قازان، في صرحٍ يا ليتك عشت لتشهده عيناك، وبين قومٍ من مواطنيك ورفاقتك وسمّهم الوفاء يوم توزيع الصفات، وإذا أنت، ككلّ عبقرٍ، في نعمة من معرفة القدر والإنصاف بعد مماتك فقط، أمّا في حياتك فلم تمرّ بغير شقوة العمر.

كسروان، يا إلياس، يطالع وجه ذكراك بين نادمٍ ومستغفر. مستغفرٌ لأنّه أنجبك فذاً في عصرٍ تتعقد الحظوظ فيه لغير الأفضاد، ونادم لأنّه أضاعك في الماضي بين بيتيك المتواضعين في زوقك والمصيف، وبين "المعرض" و"الجمهور" حيث كنت تكتب لتحصلّ لقمة العيش، وحين اهتدى إليك بعد الفوات لم يجد منك غير جثةٍ في جدث.

لقد كانت حياتك قصيرة، والأوطان تتأخّر حتّى تنتبّه إلى عظمائها. فلو عشت لكنت أخذت، ربّما، لقب الإمارة عن سواك. ولكن لا، لو عشت لكان يمكن أن

تقضي وأنت في طريقك إلى الصحيفة التي تعمل فيها، كما قضى غيرك أخيراً من أصحاب عقول ومواهب.. على حاجر أو بطائش من الرصاص، فلعلها من نعم الله عليك أن لم تجاوز في المدى زمنًا كان ما يزال الإنسان اللبناني يموت فيه موت ربّه.

وننظر حوالينا من بعدك لنرى ما خلّفته لنا، فلا نعثر إلاّ بصحائف قليلة وإن نزل ما فيها على أسماعنا نزول البيّنات، ونجد جناحيك اللذين طرت بهما في الآفاق كسيرين مهيضين: ليلاك وغلوائك.. لا تلهمان بعدُ شاعرًا ولا تحرّكان وترًا في قريحة، ويا طالما كانتا للشعر من عرائسه وربّاته، فهل أوجع من أن يحيا مثلك ليشهد هذه النهاية؟

غير أنّ هناك، ممّا تركت، ما لا يشيخ ولا تنطوي له جدّة: تلك الثورة على القوالب التي قفّص فيها عالمنّا. فأيّ زواج في عرفك هو ذاك الذي لا يستند إلاّ على بركة أصابع مع وثيقة مكتوبة؟ لا وإنما "إكليلك" يباركه الحبّ ويحلّه القلبان^(١). وأيُّ حسٍّ هو ذاك الذي يطبّق عليه منطق الأرقام الجامدة^(٢)؟ إنّها لحرب بين الضمير والعقل لا يُخمدّها إلاّ ولادة القلب في النّاس^(٣). أمّا النّصر فيها فلحبّ، والحبّ منتصر دوماً ولو شُبّه للكائدين أنّ بوسعهم القضاء عليه وإزهاقه، يكفي أن تنتصب تلك القوس النورية ما بين مثنوى الحبيبين.. سلّكاً

١ - إشارة إلى بيت أبي شبكة القائل:

بورك الحب حين بارك إكليلاً عينا أحلّه قلباً لنا

٢ - إشارة إلى قوله:

أيّ عقل له على القلب حق؟، أعلى الحسّ تحكم الأرقام؟

٣ - إلحاحاً إلى بيته التّالي:

إنّ بين الضمير والعقل حرباً، قلت: "حتّى يصير للنّاس قلب"

يجمعهما بعد الموت^(١) حتى يكونَ الحبّ قد انتصر ولو ذهب الحبيبان فداءه وقضيا شهيدَي وفائهما والإخلاص.

ويبقى منك، ومن حبيبك، آية البطولة في الكفاح ضدّ الأوضاع.. والأعراف والتقاليد، ومجتمع تجنّد عليكما بقضّته وقضيضه، وها هو اليوم يخشع لأسطورة حبّكما المقدّس، ذاك الحبّ الملهم الذي لولاه لما كانت لنا تلك النفثات الروائع، جنى اللحظات والسويغات الحميمة التي قضيتماها معاً في غفلة من اثنتين: القدر، وصنيعه الإنسان المتذرّع بحقوقه الشرعيّة، وسلطته الزوجيّة. لقد تعدّدت النعوت التي نسبها على القدر من أنّه جائر.. وهازل وظلوم، لكنّ النعت الأكثر انطباقاً عليه.. في معرض تصدّيه سواء لإرادة الشعوب أو لحبّ المحبّين أنّه سخيّف. أجل، سخيّف عندما يظنّ أنّه قادر على الحؤول ما بين إنسانٍ وحقّه، أو ما بين قلبٍ وحبّه. وها أنتَ يا إلياس، بنقلك الثّورة والكفاح إلى أرض الحبّ، وانتصارك فيه على جميع قوى الطغيان، قمتَ شهادةً جديدةً على أنّ الحبّ يصنع المعجزات.

١- إلماحاً إلى بيتيه:

فرأى الناس في الصباح على القبرين قوساً تمتدّ في إشراق
تجمع العاشقين في غمرة الزّهر وفي نشوة من الأشواق

واهبٌ لا يكفّ، ودائنٌ لا يستوفي

تقديم الشّاعر سعيد عقل في محاضرة بعنوان "صفحات من أمجاد لبنان" - مجلس كسروان الثقافي - قاعة محاضرات بلدية جونية - ٦ أيار ١٩٦٥. نُشرت في جريدة "الجريدة" إلى جانب حديث مع الكاتب، وفي عدد ممتاز من مجلة "الرحمة".

إذا كان العطاء إلى حين، والدّين إلى وفاء، فسعيد عقل واهبٌ لا يكفّ، ودائنٌ لا يستوفي.

أُعطِيَ الكثير فأعطاه، وتراكت علينا الذّم، فنحن غرقاها إلى الأبد. أقبل على الصّحافة والمنابر، يشغله فيهما أمر مواطنيه وحالهم، فالقمة تعيش في همّ السفوح.

نزّهه عن السعي لنفسه أنّه لم يعدّ أمامه ما يسعى إليه، هو المترفّ بنعم المجد، البالغ ما لا يُبلّغ.

لكنّا نقول في سعيد ما قيل في سواه..من أنّه لو لم يكن لنا سعيد عقل لوجب علينا أن نوجده.. لو كان من السهل أو المتاح إيجاد مثل سعيد عقل.

والعجيب أنّه، وهو الشّاعر، يتناول معطيات العلم أرقاماً ونتائج وإحصاءات، فيجول فيها جولات الاختصاصي المدقّق. ويظنّ هنا أنّ الشّاعر يتجرّد من صفته الأساسيّة ليتقمّص شخصيّة جديدة، حتّى إذا رأينا سعيداً يفسّر أحداث التاريخ بما لا يستشفّه فلاسفته والمؤرّخون، ويستخلص من الأرقام ويبني عليها ما لا تبرّق بارقة منه في أذهان علماء الاقتصاد والاختصاصيين، وجدنا الشّاعر هو هو، بل أدركنا سرّ الشّاعر الذي تعلق لمحاته على عقل العالم لتعانق رؤى النبيّ.

هل هذا وحده أثر الشاعر في بحوث سعيد عقل؟، لا، وإنما في الحقائق المذهلة التي يسوقها، والتي يغوص عليها مُنقِباً منتقياً من بين ألوف سواها، طُرْفٌ ومُتَعٌ أين منها طُرْفُ الفن ومُتَعُه!

الحقيقة في بحث سعيد كالكمة في قصيدته، كلاهما نتيجة السهر الطويل على حُسن الاختيار.

فإليكم محاضرنا الليلة، هذا الذي ما رأيته يوماً في طلعتة السحرية إلا ظننتُ إلهاً من آلهة الأولمب كسر طوق الأسطورة وأقام بيننا يتنفس ويحيا؛ شعورٌ لا توحى إليّ بمثله إلا طلعة طاغور المشبهة قديسي المسيحية الأولين، إليكم: سعيد عقل.

(بعد انتهاء هذا التقديم عَقَبَ عليه سعيد عقل بقوله: "منذ أن بدأت أعتلي المنابر أخذت سنةً على نفسي ألا أشكر مُقدّمي. إسمحو لي هذه الليلة فقط أن أخرج على هذه السنة لأشكر هذا الأديب الكبير، والإنسان الكبير، الذي قال في كلاماً كان يستحقه هو نفسه").

السيف والقلم في اليد الواحدة

تقديم أمسية شعرية لأربعة ضباط شعراء - نادي ضباط البرزة - بعددا. نُشرت في مجلة "الجيش" - العدد ١٦٨ - السنة ١٥ - نيسان ١٩٩٩.

قديمة في الزمن حكاية اجتماع النقيضين، أو ما سُمّي كذلك. السيف والقلم.. بينهما شراكة متواصلة حين الظنّ، لأوّل وهلة، يذهب إلى أنّهما على طرفي نقيض. وقد أثبتت التجارب عبر التاريخ أنّ القلم له الفعالية نفسها التي للشفار القاطعة، إذ طالما أشعل ثورات، وأطاح بعروش، وقلب أوضاعاً، ورهبه من كان لا يرهب المواجهة في ميادين النزال، وحومات الوغى. وهذه الثورة الفرنسية يُجمع المؤرّخون على أنّها كانت نتيجةً لأفكار فولتير ومونتسكيو وروسو التي بنّتها أعلامهم في العقول، بحيث لم تكن انتفاضة الشعب في ما بعد غير الأداة التنفيذية لهذه الأفكار، وقد صدق الشاعر القائل:

لا فرقَ عند احتدام الرّوع في زمنٍ مَنْ يحمل السيفَ أو مَنْ يحمل القلماً
وإذا كان لنا أن نأتي بأمثلة على الجمع بين الإثنين فالشّعراء العرب، قبل غيرهم، لا يُحوّجوننا إلى بحثٍ مُجهّد في هذا المجال. وأمامنا كتاب "الشّعراء الفرسان" لبطرس البستاني وهو حافل بأسماء أصحاب المواقع التي سالت فيها الدماء.. وأصحاب المواهب، في الوقت نفسه، الذين صوّروا هذه المواقع التي خاضوها أروع تصوير.

ولا يحسبن أحدٌ أنّ الشاعر طارئٌ على مهنة السلاح، فهو من أربابها في الطليعة، وشجاعته في المعامع مضرب مثل. فعنتره العبسيّ لم يكن يهاب الموت في ساح المعركة، كلُّ ما كان يخشاه أن يؤذي الدمع عيني حبيبته حين بكائها عليه:

يا عَبلَ لا أخشى الحِمامَ وإنَّما أخشى على عينيك وقت بُكَاك

ومثله المهلهل الشاعر الفارس، قالت عنه كتب الأدب "إنه كان مولعاً بالملاذ واللّهو، حتّى إذا ما استتفرته النخوة العربيّة للحرب أظهر الغرائب".

وما قولكم بامرئ القيس وقد بلغه خبر مقتل أبيه على يد بني أسد وهو يلهو ويعبث، فأنتم عبثه ولهوه قائلاً: "اليوم خمرٌ وغداً أمر"، ثم أقسم أن لا يأكل اللحم، ولا يشرب الخمر ولا يتطيّب حتّى يقتل من بني أسد مائة ويشوّه مائة؟ أمّا رجال الأدب في الغرب فمنهم شارل بيغي الذي أظهر شجاعةً خارقة في الحرب العالميّة الأولى.. وقُتل وهو يستحث جنوده على الاندفاع والاستبسال. ومنهم بيار لوتي، ضابط البحريّة والروائيّ الشهير، الذي فصل من القوّات المسلّحة لنشره كتاباً عن الإستراتيجيّة العسكريّة البحريّة لبلاده، ثم ربح دعواه على الدولة في مجلس الشورى وعاد إلى رتبته في ملاك قوى البحر.. مرتقيّاً في هذه القوى، وفي المدفعية، إلى رُتب أعلى.

ومن المعاصرين يطالعنا كلود فارير، وهو أيضاً من رجال البحريّة، اشتهر بروايته "المعركة" إذ كانت مواضيع قصصه ورواياته كلّها عسكريّة. وأنطوان دو سانت اكزوبري، الكاتب والطيار المقاتل الذي نجا بحياته من خمسة حوادث جويّة أصابه الأخير منها بشلل جزئيّ وظلّ مع ذلك عاملاً في الطيران الحربيّ الفرنسيّ في الحرب العالميّة الثّانية إلى أن أسقطت طائرته في عمليّة جويّة ضدّ الألمان سنة ١٩٤٤، وقد استوحى من اختصاصه كطيار عسكريّ، ومن التحليق في الأجواء، أروع كتبه: "رُبان الحرب"، "طيران الليل" و"الأمير الصغير".

وعندنا إرنست همنغواي، الذي انخرط متطوّعاً في الجيش الأميركيّ في الحرب العالميّة الثّانية وجُرح على الجبهة الإيطاليّة، وقبل ذلك اقتحم ميادين القتال خلال الحرب الأهليّة الإسبانيّة عام ١٩٣٨ ليُشاهد بنفسه المعارك فتأتى روايته عنها موسومةً بالصدّق والواقعيّة لا بالتخيّلات.

وهناك أندريه مالرو الذي ذهب يقاتل كطيار في صفوف الجمهوريين بإسبانيا في الحرب الأهلية المُشار إليها، ثم اشترك ضمن الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الثانية، وكان من ثمّ مقاوماً ضدّ الاحتلال النازي لبلاده حيث وصل إلى رتبة "عميد لواء"، ومن آثاره الأدبية التي تتناول حرباً قصّته الرائعة "الفاثون" التي ألّفها من وحي الحرب الأهلية الصينية التي اشترك فيها أيضاً إلى جانب صفته كمراسل صحفيّ ينقل أخبارها.

ولا نختم هذه اللَّمحة عن الأدباء والشّعراء المحاربين دون أن نمرّ على رواية "الدون الهادي" لميخائيل شولوخوف. فهناك تحقيقٌ أدبيّ قام به أحد النقاد أفضى إلى أنّ هذه الرواية هي، في جزئها الأوّلين، من وضع ضابطٍ روسيّ قُتل في الحرب واستطاع شولوخوف أن يستولي على مخطوطته فادّعاها. ولمّا لم يكن المؤلّف قد أتمّها فقد اضطرّ شولوخوف أن يختمها بجزءٍ ثالثٍ بينه وبين الجزئين اللّذين هما بقلم الضابط القتل تفاوتٌ كبير من حيث الجودة الأدبية والحركة والحرارة والحياة، وهو ما ساقه الناقد المحقّق برهاناً على أن ليس شولوخوف هو الذي كتب بداية هذه الرواية لأنّ الخاتمة التي هي بقلمه تختلف جدّاً عما قبلها. وعلى كلّ حال فإنّ شولوخوف كان من الأدباء الذي عُنوا بمواضيع الحرب، وله، فضلاً عن "الدون الهادي"، رواية بعنوان "لقد قاتلوا في سبيل وطنهم".

مع هذا التقارب، إذّا، بين السيف والقلم، ووجود أناسٍ امتشقوا السلاحين معاً، لا نتساءل أيّهما الأمضى بالنسبة إلى الآخر، لأنّ اليد التي تُمسك بالسلاح هي التي تُكسبه فعاليّته ومضاءه. فالفرس من وراء الفارس، والسلاح الخفيف في أيدي أولي العزم أقوى من السلاح الجبّار في الأيدي المتردّدة الخائرة. والحمد لله على أنّ في جيشنا اللبنانيّ أرباب قلمٍ هم، في مهمّتهم الأساسيّة كحملة سلاح، ذوو أيدٍ غير راجفة، وقلوبٍ من تلك التي في صدور الآساد.

في تكريم الشاعر خليل أيّوب الحتي

جمعية شبّان الرّحمة - بيروت - أوّل آذار ١٩٦٥. نُشرت في مجلّة "الرحمة" - السنة الأولى - العدد الثّالث - آذار ١٩٦٥، وفي مجلّة "أرزة لبنان" التي يُصدرها الشّاعر الحتيّ.

ما أحسستُ يوماً بشعورٍ من الاحترام عميق مقدار ما يخالجنّي ساعة أرى،
والوقت ليل، والدنيا زمهرير، خليل أيّوب الحتيّ قادماً يجرّ وراءه عبءَ السنين،
وعواديّ الصّحة وتعبَ النهار.. ليحضرَ اجتماع الجمعية التي ينضوي في
عضويّتها مساءً كلّ إثنتين. وإنّني لإخاله يستعيد مرّة كلّ أسبوعٍ شبابه، وما
للشباب من همّةٍ وحيويّةٍ ومضاء، ليتمكّن من الإيفاء بواجبه حيال المؤسّسة التي
ارتضى بذل الجهد في نطاقها بملء اختياره، واجداً في أهدافها وعملها ما يلائم
نزعتَه إلى إسداء الخدمة لذوي الحاجة، وتخفيف المصاب عمّن قد ابتليَ
بمصاب.

هذا المتقدّ الشخصيّ والمتوقّد الذهن، العصبيّ على حلاوة انفعال والغضوب
على طيبة وبراءة روح، كم أستمتع بمحضره ساعة يصمت وساعة يقول، وما
أحبّه عندما يُطلقُ لسجيّته العنان فيفيضُ بالخاطرة المتألّقة ويمورُ بالتوثّب
الداخليّ، حتى لينطبقَ عليه ما قال عن نفسه الأخطل الصّغير:

ولربّما خدعتك صفحة هاديّ منّي وفي الأحشاء عصف رياح
إنّي إذا جئتُ رياح سفينيّتي ذهب الجنون بحكمة الملاح

ويُعجبني منه، وهو الشّاعر، اعتداداً ذاتيّ تبدو مخايله عليه مهما حاول إخفائه،
وترشح دلائله من خلال الكلام. هذا الاعتداد بـ "الأرزة"^(١) المعصّبة بالشعر لا
بالوريقات الخضر، وبصاحبها الخلاق فهو ربّها كما الله ربُّ الأرز، هذا
الاعتداد.. لكم يحقُّ لهذا المكّال بالغار أن يتّيه بمثله. ولعمرك ما أفادت

الخمسون المسلوخة على شفا القصبه ليكون لشعر الشعب مكانة في المكانات؟، وما أفادت الخمس وثلاثون المنقضية سهرًا وتحبيرًا في جوار الآلة الطابعة وفي كنف دويها الهذار؟، ما أفاد هذا الزمن المهدور والعمر المراق صاحبهما غير تلك الفائدة المعنوية التي هي الترضية والتعزية في خضم التضحيات والخسارات؟، أفكثير عليه أن يخرج من هذا الجهاد بزهو المناضل، وفخر المكافح الشجاع؟

خليل أيوب الحتي لم يعد اليوم إسمًا كسائر الأسماء؛ لقد غدا الإسم الذي تتطوي تحت حروفه مضامين غنيّة وعميقة من الموهبة المحروقة في شمس الليالي، والإرادة المنتصبة وحدها في الساحة ولا معين لها من مدد أو مال، وصمود العزيمة على حالها من القوة دون أن يفترها انعدام التشجيع، والكلل الذي يعقب العمل الطويل، إلى ما هنالك من عوامل سنّ وخبرة تفتح العين على الواقع القاسي فتذهب بالبقية من التفاؤل. كل هذه الحقائق المثبطة للعزائم انهارت على صخرة خليل أيوب الحتي، فإذا هو اليوم مثله في اليوم الأول من أيام جهاده إيمانًا بجدوى القضية واندفاعًا من أجلها. ثم يتلفت حواليه، فإذا كل ما هنالك من مكافأة وسام وحفلة تكريم.. منحه إياه وأقامها له من لا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك لأنهم لا يملكون مزيدًا، أمّا من يملك فغافل عن الواجب أو لاه عنه، وفي التجاهل العذر الكبير.

فيا أخي خليل، وسام وعاطفة وحفلة تكريم، هذا كل حظك من أيامك ودنياك. فلتنهأ بها مكتفياً لأنها صادرة عن موقف صادق يعكس حقيقة أصحابه. وهنيئاً لك أيضاً، لأنك، في ذروة جهادك، جمعت من حولك الطيبين.

تموت في الحب، وتموت بدون حب!

تقديم الشاعرة باسمه بطولي في أمسية شعرية، معهد الرُّسل - جونية - ١٥ كانون الأول ١٩٩٥.

عائبةٌ على الزمن باسم جميع العاشقين، تريد منه طويل عهدٍ للحبِّ، ويأبى هو إلاّ اختصار عمر العطاء. وما دام هذا قدرها فلتكن نهايتها على شفّته، ذاك الذي عاهدته على أن تبقى معه حتّى الموت. هناك تنسكب روحها متشبّعةً بأنفاسه، إلاّ أنّها تنسكب شلالً شوق إلى مواعيدٍ آخر. فالحبّ.. وحده بين متّع الدنيا نترع من كؤوسه على غير اكتفاء، ووحدته نشرع به ولا نريده إلى أجل، ولكن.. ثبًا للزمان البخيل.

باسمه الشاعرة ما خفضت جناحًا إلاّ للحبِّ، وما أذلت كبرياءها إلاّ له. هي الشّمس ما دام لا يكشفها نور الحبيب، وهي مجرد ظلّ له إذ يسلّط عليها أضواءه.

هي دنيا على رحبها في اعتدادها الشاعريّ، ومع ذلك فليست إلاّ بعضًا من حبيبها، به تكتمل وتصبح على تمام:

أنا دنيا جعلتني منه بعضًا علّني في يديه أصبح كلاً
خلّطني الشمس يوم كان بعيداً واحتواني فخلّطني فيه ظلاً

ونعجب من اتّصال حبّ الحبّ لديها بالموت^(١)، هي التي وجدت الموت جهلاً لدنويات الوجد.. لا معرفةً بها وغوصاً على حلاواتها:

وغرقت الحياة حتى وجدتُ الموت جهلاً لدنويات الوجد

١- إلماً إلى عنوان ديوانها: "مع الحب حتّى الموت".

ويزول العجب حين نرى طيب الحياة في اعتبارها، لا بل الكثير من الحياة،
يكمن في أن تضمحلّ في دنياه، هو هو.. ذاك الحبيب:

أنا حسبي مدى دنياه حياةً من كثير الحياة أن أضحلاً

تموت في الحبّ، وتموت بدون حبّ، فيا لها من فريسة بين نارين.
عندما صدر ديوانها "مع الحبّ حتّى الموت" كتبتُ عنه أقول: "إنّه مجموعة
خارجة من أدقّ محترَف شعريّ تُشغَل فيه القصائد كما تُشغَل كرائم الحجارة
حتّى تغدو قلائد وحلى".

أجل، لقد التزمت باسمه بالحبّ حتّى الرمق الأخير، ولكن أفليس في جعبتها
غير الحبّ، وحده يهمني عليها وحيه من ربّة شعرها، أو من ربّ قلبها مباشرة؟
بلى وهناك "اللبنانيّات" التي هي الصدق في الوطنيّة. فجرح الوطن نغر عميقاً
في قلبها، وهي تنتظر ولادة لبنان الجديد لتدفئه في مذوده كما الأغنام ادفأت
وليد المذود العظيم:

أنا إن كنت وردة ذات عطرٍ فهنا، في التراب هذا، جنوري
أدّمي في دروب لبنان يجري أم جراحاته التي في ضميري؟
أو كأنّ الشوارع الحمر بعضٌ من عروقي ضاقت بدفق شعوري
علّ لبنان وهو يولد في المذود أعطيه ثوب دفء ونورٍ

وهناك أيضاً حسّها الإنسانيّ وهي تنظر إلى الطفولة البائسة:

لست أخشى عليه غمي النعال بل عيوناً تدوسه في اختيالٍ
إن تحاشت لديه بعض وقوفٍ فهروبٌ يهاب صمت السؤالِ
أو كأنّ الهزال في نهم الأعين عبء على الرؤوس الخوالي
أم لما مرّغته أوحال دنياه غدا حفنة من الأوحالِ
هو لو قيل فيه: "طفلٌ لظنّ القول هزءاً ببهجة الأطفالِ

كيف يعطي الحياة جنتها وهي تردُّ العطاء في أسمال؟
فيولّي.. يذُّ على صدره تبكي وأخرى تثنُّ في التسأل

فالفقير الطفل تدوسه الأعين قبل الأرجل وهي تختال مرّةً به غير أبهة، وقد
أوحل جسده اللدن حتّى لكأنّه غدا قطعةً من التراب، فيمشي في الأرض يدًا
باكية ويدًا سائلة وما من مجيب.

وهل أروع من قولها:

أنا لو دائي لمضني بلسم لتشهيت نفسي كل داء؟
كل داء أجل.. لتفتدي عدد أدوائها من النفوس.

وتستطرد فتقول:

وإذا لم نمض في الأرض كما تنزف الشمعة دفنًا وضياء
كيف نغزو الله نستوهبه علنا نعطيه لذات العطاء؟

العطاء.. نزعة فيها متأصلة، نجد التعبير عنها كيف جلنا في أرجاء شعرها:
- أتوق لو أني أحوّل ضبابًا لأنهل ثم أطل غديرا
- أنا مثل نهدي ولود يجف اندفاقهما حين لا ترضع

وهكذا فحين العطاء استفاد لما نملك.. ترى باسمه في عطائها، على العكس،
دوامًا لما في كيائها من خير تخاف عليه النضوب إن لم يستمرّ في الدفق.
فيا شاعرتي.. هبينا من عطاءاتك الليلة، فإنك كريمة.. ونحن نستحق.

مُلْهَمَةُ الشَّاعِرِينَ

أُلْقِيَتْ فِي مَقَرِّ مَجْلِسِ كَسْرَوَانَ النَّقَافِيِّ - جُونِيَّةٍ تَقْدِيمًا لِلْأَمْسِيَّةِ الشَّعْرِيَّةِ الْمَشْتَرَكَةِ لِلشَّاعِرِينَ شَكِيبِ خُورِيِّ وَفُوزِيِّ عَطُوي. نُشِرَتْ فِي مَجَلَّةِ "الْأَدِيبِ" - يُونِيُو ١٩٧٤ - الْجُزْءِ السَّادِسِ - السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ وَالثَّلَاثُونَ، وَفِي دِيَوَانِ فُوزِيِّ عَطُوي، الصَّفَحَتَيْنِ ٥٣٠ وَ ٥٣١.

حِكَايَةُ الْمُلْهَمَةِ الْوَاحِدَةِ لِشَاعِرَيْنِ، أَوْ لِفَنَّائَيْنِ، لَيْسَتْ جَدِيدَةً، فَحَنَّا هُنَا، مَرَّةً أُخْرَى، مَعَ شُوبَانَ وَدُو مَوْسَى فِي عِلَاقَتَهُمَا بِجُورْجِ صَانِدٍ، أَوْ مَعَ جَبْرَانَ وَوَلِيِّ الدِّينِ فِي عِلَاقَتَهُمَا بِمَيِّ.

وَإِنَّ التَّجَرُّبَةَ لَشَيْفَةٌ بِمَقْدَارِ مَا تُطْلَعُنَا عَلَى الْأَصْدَاءِ الْمَخْتَلِفَةِ الَّتِي يَتْرَكُهَا الْمُؤَثَّرُ الْوَاحِدُ فِي شَاعِرَيْنِ مَتَمِيزَتَيْنِ لِكُلِّ مَنَّهُمَا خَصَائِصُهَا وَلَوْنُهَا رَغْمَ أَنَّهُمَا تَسْتَقِيَانِ مِنْ مَعِينٍ فَرْدٍ. فَالْمَادَّةُ هِيَ ذَاتُهَا، أَمَّا الْإِنْطِبَاعُ فَمَزْدُوجٌ بِازْدَوَاجِ الْفَنَسَيْنِ اللَّتَيْنِ لَمْ تَنْفَقَا إِلَّا عَلَى حُبِّ "تَوَارٍ" وَعَلَى مَبَايِعَتِهَا رُبُوبِيَّةَ الشَّعْرِ.

شَكِيبُ خُورِيُّ الْعَاشِقِ، وَالشَّاعِرُ، الَّذِي تَوَلَّفَ "تَوَارٍ" بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ حِكَايَةَ الْعَمْرِ، حَتَّى أَنَّهُ لَوْ شَاءَ أَنْ يُصَدِّرَ مَجْمُوعَةً شَعْرَهُ لَمَا وَجَدَ لَهَا اسْمًا أَحَقَّ بِهَا مِنْ هَذَا الْاسْمِ^(١)، شَكِيبُ خُورِيُّ، ابْنُ الْعِرَاقَةِ فِي حَبِّهِ هَذَا، أَلَمَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ، فِي الزَّمَانِ الْأَخِيرِ، شَاعِرٌ يَنْزَعُهُ إِلْهَامُ حَبِيبَتِهِ إِنْ لَمْ يَنْزَعِهِ قَلْبُهَا، فَرَفَعَ فِي سَاحَاتِ الشَّعْرِ إِعْلَانًا عَرِيضَ الْخُطُوطِ يَقُولُ: "شَكِيبُ خُورِيُّ هُوَ الْأَصْلُ"^(٢)، وَتَمَسَّكَ بِحَقِّ

١- وَبِالْفَعْلِ أُصْدِرَ لَهُ ابْنُهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مَجْمُوعَتُهُ الشَّعْرِيَّةُ تَحْتَ عُنْوَانِ "تَوَارٍ".

٢- كَمَا كَانَ يُكْتَبُ فِي عَالَمِ الْإِعْلَانِ عِنْدَمَا أَزْدَادَ عِدَدَ مَارَكَاتِ الْأَشْرِبَةِ الْغَازِيَّةِ: "كُوكَا كُولَا هِيَ الْأَصْلُ".

الأقدمية لا يتنازل عنه، وفوزي عطوي، الذي لا يرى في موضوع الشعر حكرًا لأحد، ولا وقفًا على أحد، نادى باشتراكية الإلهام، وجاء بعرائسه تشهد على أنّ وحي "نوار" ينقله جبريل أيضًا إلى غير أسماع شكيب خوري، وكانت المساجلة، وكان الرّابح هو الشعر.. ونحن وهذه الأمسية الحاملة.

أمّا الشّاعران اللّذان سنطيرُ على أجنحتهما اللّيلة فاسمحوا لي أن أوجزَ لكم الفكرة عنهما، من باب التعريف بالمعروف المشهور، والدلالة على الضوء الساطع:

يوم أعطيَ للبنان شاعر اسمه فوزي عطوي كان المعطي سخياً جداً. وللقدر نوبات كرم يسخو فيها ويجود، ثم يقبض يده دهرًا فيصيب الأوطان عقم في الرجال.

إنسان حفلت مائدته العقليّة بالعديد من ألوان المواهب، ومع أنّه دلّلها جميعاً ورعاها إلّا أنّه لم يستطع ألا يكون محابياً لأحدها، فكان الشعر طفله الأثير المفضّل.

ويوم راوحت الشاعريّات ما بين صادقة لم تكتمل لها عدّة الفنّ وزائفة تحجب قصورها بإتقان الصناعة، عرف فوزي عطوي أن يقرنَ إلى شاعريّته الحقّة تجويد المعلّمين، فصحّ منه النسب، وصحّ الانتساب.

جمع المتنبيّ والبحرّيّ معاً، أو جمع شوقي وحافظاً، فكان الغارف والنّاحت، هناك من بحر، وهنا في صخر.

وشكيب خوري.. الفنّان، مبدع الروائع الخالدة من أجنحة الفراشات، وريش العصافير، والمسرحيّ، باعث أمجاد تاريخنا على خشبات المسرح، والقاصّ، مصوّر الريف والقرية ورسول براءتهما وطهرهما إلى العالم الفاسد، شكيب خوري هذا وجد ذاته عندما اهتدى إلى الشّاعر في ذاته، فكان الشعر مولوده الأخير، إلّا أنّ أباه بات يكتنّى به رغم أنّه أصغر الأشقاء.

شكيب، ذو الإضاءات اللامعة في الشعر، زادته "نوار" نوراً على نور، فكان في قصائده العامة شاعراً مرةً، وفي قصائده لها شاعراً مرتين. إنه رهين محبتها لا يبرح معتزله الأخضر، إلا أن مقتحماً جريئاً نغص عليه هناءة خلوته، فكان ما كان، مما سأتركه الآن للقصائد.. تحكيه لكم وتُسهب في التفاصيل.

مقطع من قصيدة "الليكيّة" للدكتور فوزي عطوي في سياق المساجلة:

أَلَيْكِيّة لو مررتُ ببالها لضممتُها وفككتُ عقدة شالها
والليكيّة لو عثرتُ بثوبها لغرقتُ بين عطائها ونوالها
يا شاعري رفقا بلحن هائم عرفتُ "نوار" فيه بعض ظلالها
فاذا غزلتُ للليكيّة الهوى وسريتُ مهتدياً بسحر خيالها
واذا عثتُ بشالها وحبوتها قيداً يجمّل ليليّ جمالها
فالذنب ذنب القلب غلاب الهوى والعذر عذر المنتشي بدلالها

وكان جواب من الدكتور شكيب خوري تحت عنوان "عبق البنفسج":

أَلَيْكِيّة لو مررتُ ببالها ما نلتُ منها غير طيف خيالها
واذا حلمتُ بليكيّ رداؤها لصحوتُ منطرحاً على أذيالها
واذا مررتُ أمام شرفة دارها لا ترجُ لمسة وبرة من شالها
فعطائها لسواك، فاقنع بالتي توحى إليك الشعر من شلالها
يا شاعري لا ترجُ خيطاً في الهوى منها ولا تغزلُ على مغزالها
عبق البنفسج ماج فوق وشاحها سترًا يردُّ الكيد من عُزالها
فالليكيّة ثوبها مع شالها حرمٌ فلا تحلم بطعم نوالها

يتناوبان ولا يتباريان

تقديمُ الشاعرين موسى المعلوف وهنري زغيب في أمسيتهما الشعرية المشتركة، معهد الرّسل، جونية - الجمعة ٢ آذار ٢٠٠١.

إذا بلغ تلميذ مرتبة أستاذه أو فاقها فذلك هو الأستاذ يستطيل قامّةً عبر تلميذه، لأنّ غرسه بالذات هذا الذي نما وأينع واكتسب إسمًا جديدًا، دون أن ينفي ذلك صحّة انتساب الثمرة الناضجة إلى تلك البذرة التي دُفنت قديمًا في التربة التي أنبتت وأعلنت.

ويزوّدنا تاريخنا الأدبيّ بأمتلّة كثيرة على قامات شاهقة عبّرت على الدوام عن عرفانها تجاه معلّمين صقلوا مواهبها، وسدّدوا خطاها على دروب الأدب والشعر. من ذلك جبران في أخذه اللّغة العربيّة عن الأب يوسف الحدّاد، والأخطل الصغير ومارون عبّود في تتلمذهما على شبلي الملائط، ووديع عقل في نهله العلم على يد الشيخ عبدالله البستاني، وإيليا أبو ماضي في درسه على الشيخ إبراهيم المنذر، وأخيرًا، لا آخرًا، أنطون قازان، الذي أصبح عقب الدراسة صنوًّا وصديقًا لمعلّمه جورج غريب، فنسي جورج فضله على أنطون تجاه تلك اللّمة الخارقة التي تألّقت في شخص هذا الأخير، فيما لم ينسَ أنطون أن قلّنته الذهبيّة التي طوّق بها عنق الأدب إنّما لملمها، في بدايته، نثارًا عسجديًا تساقط من بري قلم جورج وسبكها عقود نضارٍ خطفت أبصارنا ببريقها الخلاب.

ونحن الآن، في هذه الأمسية، أمام شاعرين: أستاذٍ وتلميذه، ورث أولهما الشاعريّة عن أبيه، وعن السلالة التي ينتمي إليها وهي من هي في عالمنا الأدبيّ منذ عصر النهضة حتّى اليوم، وولدت لدى الثّاني فطرةً ونزعةً طبيعيّةً

أحسَّ بهما في قرارته، وإنما أخرجهما إلى وعيه قول أستاذ له وهو في نعومة أظفاره أن سيكون شاعرًا، والكلمة التي نطقت بها جدته ذات يوم أمامه عن شاعر مجنون يدعى "بو شبكه"، فكلف هو بالجنون على هذه الصورة وأحبَّ أن يتمثَّل بهذا المجنون العبقرى.

موسى المعلوف هو الأستاذ الذي توسَّم في هنري زغيب مخايل الشاعريَّة وهو بعدُ في الصفوف الدنيا وفي طراوة العود، وهنري لم يخيب أمل أستاذه به، فتجاوز في تحليقه الغمام الملامس الأرض والغيوم المتوسِّطة في الفضاء إلى حيث السحب الممعة في البُعد يجد في رحابها سكناه، حين كان أستاذه بالأمس وصديقه اليوم قد سبقه إلى تلك الأعالي، وإنما هو السبق في الزمن فقط، أمَّا في حقيقة الأمر فهما فرسا رهانٍ لا تتافس بينهما وكلُّ مليء من ذاته لا يخشى عليها مزاحمة، ويعترف الواحد منهما للآخر بحقه كما يفعل الكبير الذي سما روحًا وخلقًا عن عنعنات الصغار في محاولتهم بناء مجدهم على أنقاض صروح الآخرين.

شاعر "عليلة الورد"، وشاعر "صديقة البحر" و"أنت ولتنته الدنيا" وأخواتهما المجموعات العديدة، يتناوبان الآن على هذا المنبر ولا يتباريان. يتشاركان في سكب الجمال، ويصفق كلُّ منهما لزميله من صميم قلبه: الأستاذ يميل نيتهاً وفخرًا بالنبئة التي تعهَّدها ورعاها، والتلميذ ينتشي مرتاحًا إلى أنه كان في يد أستاذه حبلاً متيناً لا ينقطع بجذبه إياه، بل يسير معه إلى حيث أراد أن يُبلغه، إلى حيث هو الآن.

معكم الشاعران موسى المعلوف وهنري زغيب.

لا زلفى ولا مجاملة

مقدّمة ديوان "كحل المحابر" للشاعر إبراهيم سمعان.

"أعذب الشعر ما صدق"، عبارة ختامية لقصيدة من ديوان "نداء القلب" للشاعر الياس أبي شبكة، ذلك الإنسان الحرّ، الذي لم ينظم بيتاً من الشعر غير صادر عن رأيه ومعتقده، وعن عاطفته الحقيقية ومشاعره الصادقة، قاله ردّاً على قول متداول مأثور: "أجمل الشعر أكذبه".

أجل، آية الشعر أن يكون صادقاً، لا زلفى ولا مجاملة، ولا وليد رهبة أو رغبة. فلا بدّ إذ ذاك، والنفخ فيه لهب الأتون المشتعل في النفس حبّاً أو حميّة أو إيماناً، من أن تكون حرارة نبرته، وحدّة تدفّقه، الناشئين عن حماسة صاحبه للفكرة التي تشكّل مضمون قصيده، شافعاً في صحّة انتسابه إلى الشعر.. لأنّ هذه الصفات هي من مقوماته. وإذا فالشعر الصادق له من مياسم الجمالية الفنية أكثر من العذوبة. فقد يكون مجلجلاً هادراً، وموسوماً، على كلّ حال، بالعفوية والطبيعية لأنّ منشأه تجاوب الشاعر فعلاً مع موضوعه، ممّا يجعله بعيداً عن التكلّف الذي يفسد الشعر. فلولا إيمان الفرزدق العميق بشخصية الحسين بن عليّ لما جاء ردّه على من حاول الانتقاص من قدره مفعماً بتلك الحرارة الصادقة التي جعلت من قصيدة "هذا الذي تعرف البطحاء وطأته" من عيون الشعر العربيّ.

وهكذا يكون الصدق ضماناً للشعر الحقّ، لأنّ كلّ نابع من القلب يجري متدفّقاً طوعاً، خلاف الكلام المغصوب، الذي يأتي مجهّداً متعثراً.. كما الكاذب يفضح نفسه بتلعثمه وارتبأكه.

ونحن الآن أمام مجموعة شعريّة قِلت فرائدها في أشخاص آمن القائل باستحقاقهم للكلمة يرسلها فيهم، وهي ثمينة هذه الكلمة بمقدار ما أنّ صاحبها رعى حرمتها ولم يُرخصها يوماً أمام كبيرٍ كائنًا من كان، حتّى ليصُح فيه قول أمين نخلة:

كم في الملوك معصّبٍ أغرى فمي وأبيّت، أني بالقريض معصّب

فإذا كان شعر المديح التقليديّ، كما عرفناه في ادبنا القديم، قد أضفى على كلّ إشادة بفضل، أو اعترافٍ بجميل، أو إكبار لموقف صفة المبالاة والتبخير، أو التملُّق والمداينة والمداجاة، فإنّ هذه الفكرة المسبّقة لا تنطبق على ما بين أيدينا من شعرٍ هو فلذات من قلب إبراهيم سمعان، اقتطعها من هذا القلب فريق من الناس وجد الشاعر في نهجهم ومناقبهم ما يتلاقى مع مثاليّته ونشده انسانيّة الصّافية يبحث عنها بمصباح ديوجين، فصاح مبتهجًا بلفيّه، وانعكس صدى ابتهاجه شعرًا يقطر صدقًا وإخلاصًا للحقيقة كما يراها.. ممّا سوف نلمسه لمس اليد في هذه المجموعة.

فإذا تساءل الشاعر: "لم لا؟"، مستفسرًا عن المانع في أن يكون الشعر من نوع المديح الصادق المصادف أهله، فإننا نجيبه على تساؤله مُطمئنّين إيّاه إلى أنّ أحدًا لن يعارضه في اعتباره أنّ كلمة "المديح" ليست ذات معنى سلبيّ دائمًا، إذ إنّ الثناء يأتي أحيانًا في موضعه بتوجّهه إلى أناسٍ يوحون الثقة ويستأهلون أن تُقال فيهم كلمة خير.

ألا بشرى لهواة الشعر بولادة المديح في شعرنا العربيّ من جديد، على أنّه بريء، هذه المرّة، من المصانعة، وموجّه إلى من يستحقّه، إلى من تشرف الكلمة بأنّها قِلت فيه كما تشرف بأنّها صادرة من قلب وقلم إبراهيم سمعان.

"خمر الحنين" والوثبة الجديدة

مقدمة كتاب "خمر الحنين" لجورج أبي شبكة. نُشر في مجلة "النهار العربي والدولي"، العدد ٥٥٧، ١١ - ١٧ كانون الثاني ١٩٨٨ - السنة العاشرة.

خطوته الثانية هي، في سلسلة الخطوات التي يعتزمُ صاحب هذه المجموعة أن يبلغَ بها إلى نهاية لا يقبلها أدنى من الذروة.

أجل، فالعصاميّة لا يقف في وجهها شيء، ولا تتردّد أمام صعوبة. فالكاتب الذي لم تقوم عود قلمه ثقافة منهجيّة أو مطالعات، ولم يستمدّ إلهامه إلاّ من تجاربه الشخصية واختباراته، ولم يلقَ تشجيعاً إلاّ من نفسه، مثل هذا الكاتب يشقّ طريقه إلى النجاح حفراً بأظافره، ويقطع مسافة الألف ميل سيراً على قدميه.. لا يسأل عما دون الوصول إلى الغاية من عرق ودمع ومشقّات، ولا يستجد بأية عدّة خارجيّة لمساعدته على النفاذ إلى قلب القارئ وإعجابه.

ورُبّ سائل عما عساها تكون هذه المساعدة الخارجيّة، فهل نجعل كم من المؤلّفات حقّق انتشاراً بفضل ضجّة إعلاميّة رافقت صدوره، أو بفضل مساهمة في مواضيعه للاتّجاهات السائدة في حينه أو بفضل البراعة التجاريّة في العرض والتوزيع؟ أمّا كاتبنا فيدفع بمقطوعاته كما جاءت وخطرت له غير ملتفتٍ إلى "احتياجات السوق"، واضعاً إيّاها برسم من يُقبل طوعاً على قراءتها غير مدفوعٍ إلى ذلك دفعاً وغير موجّه إليها من غيره، رأسماله قفزة سجّلها في إنتاجه الجديد هذا بالنسبة إلى محاولته الأولى التي أصدرها منذ سنوات، ولسان حاله أن على القارئ أن يأخذ هذا التقدّم بعين الاعتبار، وأنّ المحاسبة المتشدّدة على قيمة عطائه ينبغي ألاّ تتمّ على أساس تجربة أولى وثانية، بل على أساس

ما يمكن أن يتوصَّلَ إليه هذا الإنجاز في الحلقات اللاحقة من السلسلة، ما دام تطوّر يراعة الكاتب في مجال التجويد هو حقيقة ثابتة لا غُبار عليها.

جورج أبو شبكة أراد أن "يشيخَ فنيّاً" منذ إطلالته على عالم الأدب، فلم يقدّم الدليل إلاّ على طراوة عوده. أمّا دليله اليوم فيقدّمه على نضجِ قرْبِه بعض المسافة من حكمة الشيخوخة، وعندى اليقين بأنّه، في المستقبل، سيتخطّى هذه الحكمة نفسها ليعانقَ التفوّق والإبداع.

مادّته الكتابيّة استقاها من أحداث حياته، من علاقاته العاطفيّة وما صادفه فيها من توفيق أو صدمات، وقد رواها بصدق لم توشحه غلالة الفنّ والغموض، ولم تزوِّره محسّنات العبارة واللفظ.

وبدت جعبته غنيّة حافلة، فلم تدعْ له مغامراته وقت فراغ، ولم يُضِعْ عمره سدى. وخبراته تتعدّى هذا النطاق إلى سائر مجالات الحياة، فإذا المادّة دسمة والذاكرة ملأى، وليس ما يصقلُ الشخصية ويُنمّيها، في الحقيقة، غير ما مرّت به من تجارب واختبارات.

"خمر الحنين"، كتابه الحاليّ، جاء انعكاساً لهذا الغنى الشخصيّ، فإذا بمقدوره أن ينفَعَ قارئه بثمار ما جنى، وأن يعرضَ له مشاهد من الحياة هي من صميمها وتتركّز على نواحيها الأكثر مصادفةً للإنسان.

ويبقى أنّا ننتظرُ من هذا الكاتب وثبةً مستقبليةً تجعلُ قدمه أشدّ رسوخاً في تربة الأدب، وتضيفُ إلى حصيلة الثروة الشخصية التي وفّرتها له المعاناة تألقاً أبهى في الأداء، ونضارة أنقى في التعبير، وهو ما لا أشكُّ في أنّه بالغٌ إليه.

"من الشائع إلى الأصيل"

كلمة اللجنة التحكيمية لجائزة الأب الشهيد بطرس أبي عقل في احتفال منح الجائزة للقاضي الدكتور غالب غانم على كتابه "من الشائع إلى الأصيل"، قاعة محاضرات معهد الرسل - جونية، ٢٤ أيار ١٩٩١.

أن يقرن اسم الشهيد باسم مستحق هذه الجائزة ليس من قبيل الاقتران ما بين إسمي ميتٍ وحيٍّ. إنه الخلود يعقد بين مَنْ ولجَ بابَه، وما قيام هذه الجائزة تطوي السنين على اسمه إلا واحداً من مظاهر خلوده، وبين مَنْ هو مقبل على رسوخ ذكر في الزمن بعطاءٍ أدبيٍّ وعلميٍّ متالِقٍ ليس الكتاب الذي نحتفي به الآن إلا هبةً من هباته السَّالفة والآتية.

أن يبذل إنسان نفسه أو أن يبذل من نفسه واحدٌ هو الأمر، ولا إخال الأحمر القاني الذي سال من جسد الشهيد مختلفاً عن الأسود السائل من شباة يراعة حاملاً عصارة فكر وممتزجاً بعرق الجهد والسهر الطويل.

فالكتاب الذي بين أيدينا ما كان ليبصرَ النور لولا موسوعية مؤلفه التي جعلته محيطاً بمجرى الأدب والشعر على مرّ العصور.. وما اكتنف هذا المجرى من نشوء قوالب جاهزة رسّخها الاستعمال فسدت الطرق على التجديد، قابلتها محاولات لكسر هذا الجدار انحرفت أحياناً إلى تحرُّر فوضويٍّ أين منه تحجُّر المحافظة والتقليد، وما اكتنف هذا المجرى كذلك من غزواتٍ وتعدّياتٍ شنها الأُدعياء على الأصلاء، وبروز لغةٍ محكيّةٍ ألقت عنها أثقال الأصول والقواعد، كلّ هذا إلى رسم الطريق السويّ بين مظاهر الشطط في الجانبين: جانب التزمّت الضيق، وجانب التقلّت من جميع الضوابط والأحكام.

لا، لم يَقم غالب غانم، في كتابه هذا، بنزهة على طريق الأدب، بل نفذَ أشغالاً شاقّةً أصدر، وهو القاضي، الحكم بها على نفسه بنفسه. ونحن الذين نستمتع اليوم بالثمرة الشهية التي قدّمها لنا يجب علينا ألاّ نغفلَ عمّا اقتضاه انعقادها على أغصان شجرته من عناية صابرة بالغرسه وتعهّد لها حتّى آتت أُكلها. أمّا المكرّم غائباً، وقد انطوى في غياهب الثرى، فهو منَ خدم العقل حيّاً وميتاً. لقد رعى الأب أبي عقل عمليّة التنشئة للجيل الجديد معلّماً وموجّهاً، وعندما أوَفَدَ إلى حيث لقيَ نهايته قضى سنواتٍ يُنمّي المعهد الذي أوكلت إليه مسؤوليته، وأنشأ له مجلّةً لو قيّضت له فسحة إضافية من العمر لكان جعلها في مستوى الصحائف الأدبيّة الغرّ.

لكن هناك، وعلى الصورة التي تعرفون، هو المربيّ المؤمن برسالته، وبقيناً أنّه، وهو يعاني سكرات الموت، توزّع همّه ما بين معهده ذاك القابع تحت أنظار سيّدة البحار والمعهد الأمّ المتكئ على سفح جبل حريصاً^(١) وتحت أنظار سيّدتها، وحمل معه، وهو يرحل، صورة تلامذته الذين كان يطمح إلى مزيد من الخدمة لهم، غافراً لأناس فعلوا به ما فعلوا وعذرهم في ذلك أنّهم لم يتلقّوا التربية على يديه.

روح الفداء هذه كأنّها متأصّلة في العائلة، فها هو شقيقه يهتف، عندما بلغه النبأ المريع: "أرخصناه وهو الأعلى، لأنّ الوطن الذي ذهب فداءه لا يغلو عليه شيء، والرسالة التي قضى دونها تستحقّ مثل هذا العطاء.

"أرخصناه وهو الأعلى في العائلة، يحيطه الأهل والأشقاء برموش الأعين ويرون فيه كبيرهم وعميدهم، لكنّهم لم يستكثروه على اثنين: جمعيّته التي أصبحت عائلته الثّانية، ولبنان الذي عمل له ثمّ وهبه حياته".

إنّ جائزة الأب أبي عقل رُصدت لتُعطى لكلّ حامل مصباحٍ يضيء به جانباً من عتمة الطريق. فهو لم يكن يجلّ من الناس إلّا من استنار عقلاً وأُتار، ولعلّ من أسباب تشبّئه بالبقاء حيث لقيَ مصيره أنّه كان يعتبر ذا العقل قادراً على

ترويض مَنْ لا رأسمال لهم سوى قوّة لا تسعفها نباهة وإدراك. لذلك كان واثقاً من نفسه على هذا الصعيد، إلاّ أنّ نورَ العقل يخفت أحياناً أمام نار الهمجية كما يخفت صرير القلم إزاء دويّ المدافع، وهذا ما لم يحسب له الرّاحل الشّهيد حساباً.. فذهب ضحية ثقتة المفرطة بالشرارة المتّقدة في دماغه.

فباسم الإنسان الذي يرمقنا الآن من عليائه في ما نعمل استلهاماً من ذكره، نرّف إلى عالم الأدب عروساً مجلوة هي كتاب "من الشائع إلى الأصيل" للدكتور غالب غانم مستحقاً لجائزة الأب الشّهيد بطرس ابي عقل، وهي المرّة الأولى التي تُمنح فيها هذه الجائزة.. فكانت باكورتها لكتاب هو الآخر بكر في نظريته النقدية وذائقته الأدبية، مهنئين عظام الشّهيد في مرقدها لأنّ جهده التربوي لم يذهب بدداً، فقد خلف تلامذة بررة عرفوا مبلغ تعبهم فوسعوا إلى إيفائه بعض فضله على مثال واهب هذه الجائزة.

إنّ الوفاء لا يزال بخير، والقيم الحقيقية لا تضيع، لذلك نحن وإياكم هنا، فأهلاً وسهلاً بكم.

١- كان الأب الشّهيد مسؤولاً عن معهد "قدموس" في صور حيث الكاتدرائية المارونية هي على اسم "سيّدة البحار"، وقبل ذلك كان مديراً لمعهد الرسل في جونبة، المدينة التي يُشرف عليها جبل حريصا حيث "سيّدة لبنان".

مذكرات، لا بل تاريخ

كلمة اللجنة التحكيمية لجائزة الأب الشهيد بطرس أبي عقل في احتفال منحها للرئيس شارل حلو.

من ميدان القلم والفكر انطلق إلى عالم السياسة والقيادة، فبفضل قلمه وقلم ميشال شيحا أصبحت جريدة "لو جور" منبراً عالياً من منابر التوجيه السياسي والعالم.

الرئيس شارل حلو، المحامي، والنائب، والوزير، والسفير.. واللبناني الأول هو، قبل كل ذلك، الكاتب الكبير، والصحفي اللامع الذي حبّذا لو جمع افتتاحياته ومقالاته كما جمع مذكراته.. إذاً لكان لنا منها ثروة فكرية وأدبية لا تقدّر بثمن. وهو، قبل أن يكون للبنان قائداً رسمياً من موقع الرئاسة الأولى، كان له أبا روحياً من موقع القيادة الفكرية المستشفة الرائية. وليست صفة الأب الروحي هذه بمستغربة بالنسبة إليه، فقد طالما رمزت الصحافة إلى شخصه بتعبيرها الكاريكاتوريّ بالباسه ثوب كاردينال. نعم، إنه من كرادلة هذا البلد على قلّتهم، بمعنى الأركان الكبار الذين يُلتفت إليهم في الظروف الحالكة والبدور التي تُفتقد في الليلة الظلماء.

واليوم، وبعد جولة العمر الطويلة التي قضاها في المراكز التي نوّنها عنها، يتحفنا الرئيس حلو بحصيلة اختباره في الميادين المتعدّدة ليكون لنا منها فائدة وعبرة. فهي إذا كانت تضيء لنا جوانب من الماضي الذي عشناه دون أن ندرك تماماً خلفياته وملابساته، إلّا أنّها، على ضوء ذلك، ترسم لنا أيضاً معالم طريق المستقبل، وترشدنا إلى السلوك الأنسب لتفادي العثرات التي اعتورت طريقنا في السابق وأدّت إلى ما أدّت إليه.

إنّ تاريخ المرحلة المصيريّة في حياة لبنان الحديثة هو تاريخ الحقبة التي تكلم عنها الرئيس حلو في مذكراته، ومن هنا أهميّة هذه المذكرات فضلاً عن قيمتها بصفتها صادرةً عن هذه البراعة المبدعة. فقد كان قدره أن يتولّى قيادة هذا البلد في أعقد الظروف التي مرّت عليه وأصعبها، فاستطاع، بحنكته وطول باعه السياسيّ، أن يحدّد من انعكاساتها ويوجّل ما كان لا بدّ من وقوعه لأنّ الخيار في قبوله أو رفضه لم يكن عائداً للدّاخل اللّبنانيّ وحده، وهذه حقيقة ينبغي أن تُعرف إنصافاً للرئيس حلو وعهده.

فجائزة الأب الشهيد بطرس أبي عقل، إذ تذهب هذه السنة إلى الرئيس شارل حلو على مذكراته، فإنّما تكون في صدد تقدير وثائق تاريخيّة ثمينة كتبها صاحبها من موقع المطلّع المباشر على الوقائع التي تتضمّنّها، والمرافق لهذه الوقائع والعامل جاهداً كما ذكرنا على توجيهها الوجهة التي تقي لبنان ما أمكن من عواقبها وآثارها.

إنّ رابطة خريجي معهد الرسل، واللّجنة التحكيميّة لجائزة الأب الشهيد بطرس أبي عقل، تشعران بالفخر لاقتران هذه الجائزة باسم فخامة الرئيس شارل حلو. والشهيد الذي أريد من الجائزة تخليدُ ذكراه، وأحيائها سنةً بعد سنة، هو ضحيّة من ضحايا الفترة الجائرة التي كُتب على لبنان أن يجتازها والتي جاءت مذكرات الرئيس حلو تضع النقاط على الحروف في ما خصّ حقائقها الصميّة ومقدّماتها وذيولها.

كلمات تقديرية سنسمعها الآن نتناول هذه المذكرات، فلنستمع إليها تضيء على جوانب من هذه الصفحات التاريخيّة التي ستضمّ إلى تاريخ لبنان.

الخطابة في المحاكم

كلمة اللجنة التحكيمية لجائزة الأب الشهيد بطرس أبي عقل في احتفال منحها للدكتور دياب يونس على كتابه "الخطابة القضائية".

الشهادة، وقد ساحت الدماء في لبنان مدى عقدين من السنين، غدت فيه كالخبز اليومي الذي يعيش عليه. تقديم الأضحيات لم يعد حدثاً استثنائياً، بل كاد أن يصبح من الأمور المألوفة. فالقرايين قُرِبَت للمذبح، بل للمذبحه، ألوفاً مؤلفة. تبرُّغ بالدم لا لمرريض محتاج، بل لتربة الوطن كي تنمو غراسها وتبسق. ولكن، على الرغم من هذا السخاء في بذل الأرواح، يظلّ لاستشهاد أناسٍ معيّنين معنى خاص، منهم من تصادف اليوم ذكرى سقوطه على أرض ساحلنا الجنوبيّ.

الأب بطرس أبي عقل، في خضمّ الأتّون المشتعل، أبى أن يُحرّم أبناء منطقة من لبنان من تحصيل العلم، فتذهب سنوات من سنّ الدراسة لديهم هدرًا، فتحدّى الوضع القائم في أخطر بقعة من الوطن الملتهب بأسره ومشى بمعهده كأنّ الأوضاع المتفجّرة حوله هي في سيرها الطبيعيّ العاديّ. هدوءه ورباطة جأشه الشخصيّان جعلهما ينعكسان على الحالة السائدة وهي ليست كذلك، فكان التصادم ما بين النفس الساكنة الشجاعة رغم دويّ النيران في الأسماع.. والعاصفة الهوجاء المكتسحة كلّ شيءٍ في طريقها. فجرفته العاصفة التي ظنّ أنّها لن تقوى عليه، وخارت قوّة العزيمة وصلابة الروح أمام القوّة الغاشمة العمياء التي لا توفر حتّى من يُحسن إليها ويغامر بنفسه من أجلها.

التعليم لم يكن، بالنسبة إلى الأب أبي عقل، مجرد واجب يقوم به من ضمن مهمّاته كراهب في جمعية تملك معاهد للعلم، بل كان دعوة دُعي إليها من ذات

نفسه كدعوته الكهنوتية. لله نذر نفسه، ولتعميم الثقافة بين الناس. ولما كان، في نطاق المدرسة، لا يستطيع أن يوزع المعرفة إلا على طلابها، فقد كان يعتزم إصدار مجلة ثقافية يتعدى انتشارها المحيط المدرسي، وقد فاتحني في هذا الموضوع طالباً مني المساهمة فيها، وكان على وشك تنفيذ مشروعه عندما قضت عليه يد الغدر.

لذلك فإنشاء جائزة ثقافية تحمل اسمه لم يكن بادرة تهدف فقط إلى إحياء ذكره، بل كان تنميماً لإرادة ضمنية لديه.. كان على وجه التأكيد أوصى بتحقيقها عوضاً عن مجهوده الشخصي في إشاعة المعرفة لو حدس بأن نهايته ستكون قريبة وستحرمه من متابعة رسالته التعليمية والتنقيفية.

واللجنة التحكيمية للجائزة، عندما تختار الأثر الجدير بأن يتوج باسمها، إنما تفعل ذلك وكأنها تقف أمام طيف الأب أبي عقل مؤدية له حساباً وآملة أن يبارك اختيارها. وهي اليوم ترضي روحه، ولا شك، بانثقائها أثراً فريداً يلج باب القضاء والمحاماة لا من الوجهة القانونية الصرف، المفيدة ولكنها غير مشوّقة، بل مضيفاً على المادة الجافة طلاوة وتشويقاً بتحدثه عن المرافعات والمطالعات القانونية التي تجمع بين العلم الحقوقي والطرافة والبلاغة، فجاء كتاباً ممتعاً دون أن يتخلّى عن جدية الموضوع ورسائلته.

تهنئة للمؤلف الفائز من اللجنة التحكيمية الحريصة على كرامة الجائزة بمنحها لمثل هذا الأثر القيم، عسى يكثر أمثاله في مكتبتنا اللبنانية، فيظل تراثنا الوطني يزداد ثراءً على دسامته، واكتنازه، وغناه.

غُرِّرُ أُضِيفَتْ إِلَى الشَّعْرِ

في العام ١٩٦٢ أجرت مجلة "الانطلاق"، لصاحبها الشاعر ميشال نعمة، مباراة شعريّة لاختيار أفضل ثلاث قصائد، وذلك لقاء ثلاث جوائز قيمتها مجتمعة ألف ليرة لبنانيّة قدّمتها رابطة خريجي معهد الرسل - جونية. وتألّفت لجنة تحكيميّة للنظر في القصائد المقدّمة للمباراة من الشيخ عبدالله العلايلي والمحامين الأدباء عبدالله لحود وإدوار حنين وأنطون قازان، ومثّل الرابطة مانحة الجوائز في اللّجنة صاحب هذا الكتاب.

وقد أسفرت النتيجة عن فوز الشاعر جورج غريّب بالجائزة الأولى، والشاعر بولس الشرتوني بالجائزة الثّانية، والشاعر وديع المعلوف بالجائزة الثّالثة. ونوّهت اللّجنة بقصيدة باللّغة العاميّة للشاعر جوزف فهد الغصين، دون أن تمنحه جائزة لكون المباراة محصورةً بقصائد اللّغة الفصحى.

ويوم توزيع الجوائز، في بيت الأستاذ ميشال نعمة ببيروت، ألقي جان كميد كلمة باسم اللّجنة التحكيميّة والرابطة مانحة الجائزة هذا نصّها، وقد نُشرت من بعد في مجلة "الانطلاق"، وفي مجلة "الرابطة" العائدة لرابطة خريجي معهد الرسل، وجريدة "الحديث"، ومجلة "الصّحافة اللبنانيّة" الصّادرة عن نقابة الصّحافة:

إذا كان الشّعْر صلاةً في حرم الجمال فندوةٌ للشّعْر تُقام هي إذا صلاة الجماعة المفضّلة على كلّ صلاة، أمّا مَنْ يؤمّنُ فيها اليوم فهو - بالإذن من الشيخ عبدالله العلايلي - الأستاذ ميشال نعمة.

هذا رجل لم يكتفِ بأنّه، شخصياً، من ذوي اللّهاث العَطر والأفواه المطيَّبة، بل أنشأ مجلّة ينشر فيها مطويّ الشّعْر على النّاس فكان بذلك شاعراً مرّتين. لأنّ الشّعْر بالنسبة إلى الجمهور يولد يوم يُعرف لا يوم تنتظم قوافيه، وما أظنّ شعراً قاله شعراء مجهولون، في عصرنا أو في ماضي العصور، ولم يأخذ مكانه إلى جانب الشّعْر الذي نعرف ونتدارس، شعراً في حكم الموجود.

ولكنّ صاحبنا لم يقنع بانتظار ما يُقال حتّى يطلع به على النّاس، بل أراد فوق ذلك استدراجاً للشّعْر الذي لم تتمخّض به القرائح بعد، فأقام هذه المباراة التي تتوّج اليوم وكان بذلك شاعراً ثلاثاً.

أمّا الإخوان الفائزون فلن أسميهم المحظوظين خلافاً لما دُرّج عليه في مثل هذا المقام، لأنّهم ما كانوا أصحاب حظّ بل أصحاب استحقاق؛ والأساتذة الكبار أعضاء اللّجنة التحكيمية يذكرون كيف أنّهم، والقصائد تُتلى عليهم دون أن يعرفوا من أصحابها الأسماء، ميّزوا بسهولة صدق النبرة الشعريّة في القصائد التي وقع عليها اختيارهم فما كانت موضع خلاف؛ وعندما كُشفت الأسماء لم تستغرب النتيجة، لأنّ مثلها لأمثالهم.

وبعد، لا مجال للتحدّث عن عطاء من جانب رابطة خريجي معهد الرسل، فهي لم تعطِ بل أسهمت في خلق المناسبة ليكون من أهل الشّعْر عطاء، ويُسعدّها أن تكون المحاولة قد أثّرت هذه القصائد الجميلة التي سنستمع إليها الآن.

إنّ رابطة خريجي معهد الرسل تهنّئ الشّعْر بغرر أضيفت إليه، وتشكر الكبار أعضاء اللّجنة التي نظرت في القصائد، هؤلاء الذين أحسن ميشال نعمة اختيارهم وأحسنوا هم الاختيار، كما تعترف أخيراً لميشال نعمة بالفضل.

وأما "الانطلاق" فنرجو لها الانطلاق بعيداً، وما ذلك عنها ببعيد.

من قصيدة الفائز الأوّل بالمباراة الشّاعر جورج غريب بعنوان "غرفتها":

أَيْنَ النِّعِيمِ، وَابْنِ الْحُبِّ وَالْخَفَرِ؟ سَعْفَايَ بَعْدَكَ لَا كَأَسٍّ وَلَا سَمَرٍ

أدنو، على البُعد، من شوق أحاذره فتستبذ بي الأوهام والذكر
يا غرفة لزمان الوصل باقية في كل زاوية منها لها أثر
دفع هنا، وهناك العري مبترد، في الدرج عقد، وفي شباكها الزهر
عينان في دهش، يا خضرة تعبت، وحول خصر أنيق ساعد خدر
حفان في عبق والصدر في وهج، صبح برافعة النهدين يأتزر

ومن قصيدة الفائز الثاني الشاعر بولس الشرتوني بعنوان "عطر المنادل":

عني لا يشغل شاغل، بك هذا القلب أهل
صفرت كفي من الدنيا فما عادت بطائل
وخلت دربي من الأحباب واغتالت غوائل
وأناجيك، أناجيك شريد اللب ذاهل
ضارباً وحدي بهذي الأرض في تيه المجاهل
كل حُسن حال في عيني إلى وهم وباطل

ومن قصيدة الفائز الثالث الشاعر وديع المعلوف بعنوان "إلى مهاجري لبنان":

بددتهم في الدنى ريحٌ بغي، هل يردُّ الركب موجٌ عبقرٍ؟
أم، ترى، طاب رحيل غارُه تيه أمجادٍ وبأسٍ ملحمي؟
هذه الرَبواتُ في لبنان قد مسَّها الهجرُ بتشواق خفي
تقل العتمة أضنى نورها، هل يُزيح الفجرُ أثقالَ العشي؟

عندما رثى زكي المحاسني مهدي العبيدي حيًّا

نُشرت في جريدة "الشرق الأوسط" الصّادرة في لندن.

الدكتور زكي المحاسني من أدباء الشّام المعدودين، له في الشّعْر والدراسة الأدبيّة والترسّل آثار جمة يطبعها أسلوبه بميسم خاصّ، ويضفي عليها فكره من العمق ما يجعلها طليعة بين المؤلّفات في أدبنا الحديث.

وهو وإن لم تصدر له في حياته مجموعة شعريّة سوى "أساطير ملهمة" التي روى فيها أساطير الإغريق بشعر عربيّ مبين.. فإنّ له وفرة من القصائد المتنوّعة المواضيع منشورة في الصحف والمجلّات العربيّة وتشكّل مادّة ديوان نرجو أن تبادر أسرته أو إحدى دُور النشر إلى جمعه وإصداره بعد أن انتقل صاحبه من هذه الفانية قبل أن يقيّض له العناية بهذا الأمر.

ذلك أنّ الدكتور المحاسني كان، قبل كلّ شيء، من علماء الأدب، وباحثًا ألف كتبًا من مثل "أبو العلاء ناقد المجتمع" و"شعر الحرب في أدب العرب" و"إبراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب" و"نظرات في أدبنا المعاصر" إلخ...، أمّا الشعر فقد كان ينشره متفرّقًا في مجلّات منها في لبنان "الأديب" و"الرسالة" و"الرحمة" و"أصداء"، منصرفًا، في اهتماماته الرئيسيّة، إلى التدريس، وإلى العمل في وظيفته كعضو لجنة تخطيط التعليم العالي بدمشق أو كملحق ثقافي لدى السفارة السوريّة بالقاهرة، وقد خصّ مجلة "الهلال" المصريّة، تبعًا، بقصائده التي نشرها في ما بعد تحت عنوان "أساطير ملهمة".

ويمكنني القول إنّ شعره، وإن لم يظهر مجموعًا في ديوان، منشور كلّه في الصحف والمجلّات، بحيث لا يقتضي جمعه أكثر من الانكباب على أعدادها

بحثاً عنه تمهيداً لضمّه في كتاب، إلا قصيدة واحدة من قصائده بقيت مخطوطة ولها نسخة وحيدة عندي أرسلها إليّ الشاعر لنشرها في مجلة "الرحمة" التي كنت أُرأس تحريرها، ثمّ عاجلني ببرقيّة يطلب إليّ فيها التوقّف عن نشرها، وعندما لقيته شخصياً بعد ذلك ألحّ عليّ بإتلاف نسختها. وقد لبّيت رغبته بعدم نشر القصيدة، إلا أنّني خالفت رغبته الثّانية بإتلاف نسختها. فاحتفظت بها، وما إنني أنشرها في سياق هذه الكلمة.. مع قصّتها الطريفة التي قلّما يحدث مثلاً.

تفصيل الحادثة أنّ الدكتور المحاسني توطّدت بينه وبين الأديب العراقي مهدي العبيدي صداقة بالمراسلة على أثر جفاء سوف نعرف قصّته مروية بقلم المحاسني نفسه، وقد كان هذا على طيبة ووداعة في خلقه تجعلانه لا يحفظ في نفسه غلاً ولا حقداً. فلما نُمي إليه خطأ، بعد زمن، أنّ العبيدي وافته المنية تأثّر جداً وفاض خاطره بقصيدة رثائيّة نابعة من قلبه أرسلها إليّ لنشرها في "الرحمة"، وقبل صدور العدد الذي كان مفروضاً أن يتضمّن علم الشاعر أنّ صديقه حيّ يرزق وأنّ نبأ وفاته جاء وليد التباس، فأرسل إليّ على الفور برقيّة معجّلة يطلب فيها سحب القصيدة من النشر، ولما وافى لبنان بعد مدّة طلب مني بإصرار أن "أشّقّها" (أي أن أمزّقها) تفادياً للإجراج الذي تسبّب له تجاه المرثي القابع على قيد الحياة، وتجاه الرأي العامّ الأدبيّ عند اطلاعه على رثاء شخص حيّ. لكنني، وأنا الضنين بنفثات المحاسني الشعرية والنثرية، عزّ عليّ دفع هذه القصيدة إلى الهلاك، وكأنّما تراءى لي يوم لا يعود فيه هذا الشاعر يدفع القصيدة تلوّ القصيدة للنشر، فتغدو مخلفات قلمه عزيزة ونادرة، وهكذا لم أنزل عند طلبه بإتلاف القصيدة، فطلّت بين أوراقٍ لتري النور لأوّل مرّة في جريدة "الشرق الأوسط" بعد أن مضى على وفاة صاحبها عدّة سنوات.

وحكاية الجفاء ثمّ غسل آثاره، وقيام الصداقة بين المحاسني والعبيدي، ذكرها الأوّل في مقدّمة للقصيدة أرسلها إليّ مرفقة بها وواضعا إيّاها على لسان إدارة التحرير في المجلة لتكون بمثابة تعريف عن مناسبة القصيدة وملابسات نظمها.

المقدمة

حين أصدر الدكتور زكي المحاسني سنة ١٩٦٢ كتابه "نظرات في شعرنا المعاصر"، وقد وقفه على الأدب في سوريا ومصر فحسب، تصدّى له الأديب العراقيّ الأستاذ مهدي العبيدي، يرحمه الله، بنقد عنيف عاتب نشره في مجلة "الآداب" ببغروت، فنهض للدفاع عن الدكتور المحاسني الكاتب العراقيّ الأستاذ عبد الخالق عبد الرحمن وردّ على الناقد بأنّ الدكتور المحاسني كان كتابه هذا مقصوراً على الحياة الأدبيّة في مصر وسوريا، وهو لم يغادر ساحةً إلّا أشاد فيها بأدب العراق، وإنّ له في العراق قنبلاً من الأدباء والشعراء وأهل الفكر يغالون بصدافته وأدبه ومؤلفاته السائرة، وإنّ كتابه الكبير "شعر الحرب في أدب العرب" يدرّس في جامعتها، وإنّ له سوابق في البحث والدراسة والمقال عن الشعراء الشببيي والرصافي والزهاوي وسواهم من الأدباء والكتاب العراقيين المعاصرين.

ثمّ جرت مراسلة بين المرحوم العبيدي وبينه كانت غسولاً.. وكان بعدها ودّ مستديم. ثمّ توفيّ الأستاذ العبيدي، فأثّر غيابه عن دنينا بصديقه المحاسني، فأرسل إلينا بهذه الخاطرة الرثائيّة المؤثرة ننشرها شاكرين لصديقنا الغالي الدكتور المحاسني، ونحن نشاركه في الرثاء والذكرى. "الرّحمة".

وهذا نصّ قصيدة الدكتور زكي المحاسني:

أسعفيني بدمعة من فؤادي هي سكبٌ من لوعتي وحدادي
غاب عني مهدي العبيديّ لما أذن الصفو باللقا والوداد
نقدتني آياته الغرّ حيناً فتبيّنت في لظاها رشادي
قال لم أذكر العراق بآدابي وكتبني فكيف ضلّ سداي؟!
وأنا العاشق العراق ومن فيه وطيف العراق ملء رقاوي

يا خليلي قرأتُ منك كتابًا كان وجدًا وحرقةً في السهاد
 بثّني فيه نبل قلبك حبًّا ووفاءً وشكوةً للأعادي
 فتلوتُ الكلام وهو لهيب يغتلي في العيون والأكباد
 صاح.. من دجلة نضحتُ غرامي وبللتُ الهوى على الأبعاد
 إن لي في الضفاف قومًا كرامًا عرفوني بغير ما أحقاد
 ولقد عشتُ أكتوي بكنودٍ وعَنُولٍ ومعشرٍ حُساد
 ما أفاد البيان فيهم وقد صغتُ لهم مدحاً بسحر مداد
 لا تداوِ الحسود.. فالمتنبّي كان طبًّا بكاذب الأجراد
 يا نديمي أدركْ كؤوسي نجوى لستُ أسلو فيها نزول العوادي
 وشرابي على الفراق مديم، راجع الذكريات رغم البعاد

ليس يبقى في الأرض غير وفاءٍ وصديق يعيش طيَّ الفؤاد
 ضلَّ مَنْ فضّل الحبيب على الخُلِّ وكان الخليل وفق المراد

سعيد تقي الدين الأديب الساخر بامتياز

نُشرت في جريدة "الحديث".

هو أشدّ الأدباء اللبنانيين سخريةً وظُرفاً في كتاباته، حتّى غلب عليه لقب "الأديب الساخر". وكانت فكاهاته تظهر في أدبه كما في أحاديثه. وبدأت ملامح طبعه الفكّه منذ حدثته، فهو يروي عن نفسه أنّه عندما كان طالباً ذهب مع رفاق له للاستحمام في البحر. وكان أحد الرفاق لا يجيد السباحة، فغرق ومات دون أن يستطيع رفاقه إنقاذه. فأسقط في يدهم وحاروا كيف يُبلغون أهله الخبر، وصار كلّ منهم يرمي هذه المهمة على الآخرين، إلى أن طلع عليهم سعيد تقي الدين بقوله: "أنا أذهب فأخبر أهله". وذهب سعيد يقرع باب أهل الصبيّ، ففتح له والده، وجال بنظره مستغرباً ألاّ يجد ابنه معه. فسأله عنه، وأجابه سعيد بجرأة: "عمّو، إبنك غطّس راسو بالبحر ثلاث مرّات ونَبَزَ مرّتين".

هذا عندما كان سعيد لا يزال فتىً طريّ العود. وظلّ هذا الطبع الهازل مرافقاً إيّاه في أدبه، فعندما طلب منه أحد الكتاب الناشئين مقدّمةً لمجموعته القصصيّة التي هي باكورة إنتاجه قرأ سعيد المجموعة، فوجدها خاليةً من كلّ مقوّمات الفنّ القصصيّ وأصول كتابة القصّة، فاستهلّ مقدّمته بقوله: "حين أنت تلج بيت القصّة فتجد "فلاناً" من ساكنيه لا تسله كيف وصل إليه. إنّهُ لم يدخل من الباب، ولم يقفز من النافذة ولا من الطّاقة، لقد هدم حيّطان البيت الأربعة ودخل".

وحضرتُ مرّةً حفلةً أدبيّةً في "نادي الأدب والرياضة" ببلدة كفرشيمّا، وكانت برعاية أحد وجهاء البلدة المدعوّ أديب الفتى، وكان سعيد تقي الدين أحد

خطبائها. فبدأ كلمته راوياً بعض ذكرياته عندما كان مغترباً في الفيليبين، ومنها حكاية قُبعة كان يلبسها، فطارت وغطت، وأضاعها ثم وجدها، ثم لعبت هذا الدور وذلك، وراح يتفنن في روايته مُورداً عن القُبعة أشياء غريبة ومطيلاً الحديث عنها، وكل ذلك بخفة روح وظرافة، حتّى حار المستمعون في علاقة هذه القُبعة بالحفلة التي يحضرونها، وإذا بسعيد ينهي حكايته بقوله: "لو كانت هذه القُبعة معي الآن لرفعتها احتراماً لرجل يدعى أديب الفتى". هكذا أراد سعيد، بهذه الطريقة الظريفة، أن يوجّه تحيته إلى راعي الاحتفال.

وكان سعيد يكتب سوانح وخواطر وأفكاراً في مجلة "الصياد" تحت عنوان "رقة جناح"، فكتب مرّة: "أيّ أدب رفيع حرّمنا قراءته عندما حظّرنا طبع الشتيمة".

وفي مقالاته المطوّلة بـ "الصياد" ابتكر إسماً وهمياً لشخص من قرية غير موجودة وهو: "شمدص جهجاه، من المديلة"، فصار يُلبس هذا الاسم لكل من يريد زكركته بدون أن يسمّيه، مُلمحاً، بطريقته اللبقة، إلى هويّة هذا الشخص بحيث يعرف القارئ من هو المقصود.

وكان يكتب أحياناً مقالاتٍ مشتركة مع تقيّ الدّين الصّلح بتوقيع موحد: "سعيد تقيّ الدّين الصّلح"، وكان يصف عمله الكتابيّ بـ "السعتقة" مشتقاً إيّاها من اسمه.

ومما كتبه في "الصياد" ردّاً بطريقة مبتكرة وظريفة على كاتبٍ مصريٍّ شابٍ يدعى أنور المعدّاوي انتقد بعض قصص سعيد ورواياته. فأراد، في رده عليه، أن يصوّره ولداً غرّاً يتناول على الكبار، فروى أنّ أسرته، آل تقيّ الدّين، كانت تربطها صداقة بأسرةٍ مصريّة هي آل المعدّاوي، وأنهما كانتا تتزاوران، فتحلّ الأسرة المصريّة ضيفةً على صديقتها اللّبنانيّة وبالعكس. ويوماً اعتزم آل تقيّ الدّين أن يقوموا بالزيارة التقليديّة لأصدقائهم، فبدأوا يختارون الهدايا التي عليهم اصطحابها معهم، فينتقون منها الغالي والنفيس، ويذهبون لابتياعها إلى

أرقى المحلات، ويحرصون على حُسن تزيينها حتى لا يلحقها أذى في السفر، ولم ينسوا، في هذا كله، أن يأخذوا لعبةً جميلةً لصغير آل المعداوي أنور. ومن قفشاتِه أنه كتب مرةً: "لو كانت الملابس تُفصل على قدر العقول لاكتفى الرجل بإزار يستر عورته، أما المرأة فكانت كما نشتهي أن نراها".

وعندما انتمى سعيد إلى الحزب القومي السوري أعلن انتسابه بما يشبه "المانيفست" نشره في جريدة "النهار"، موضحاً فيه لماذا اختار انتماءه هذا بعد جولة فكرية على جميع الأحزاب والتنظيمات السياسية في البلاد، فقال من جملة ما قال: "ورأيت أحزاباً كصواني المعابد يُطاف بها لاستجداء المال"، وختم بيانه بأنّه وقف خاشعاً أمام موقف هذا الرجل الذي ركع بشجاعة لتلقي الرصاص وقال لجلاديه: "شكراً"، قاصداً زعيم الحزب القومي أنطون سعادة الذي قال ذلك للمكافئين إعدامه.

وفي حفلة كفرشيما التي سبق ذكرها كان بين الخطباء الأستاذ الياس ربابي الكتائبي المعروف.. حين كان سعيد تقي الدين قد انتسب إلى الحزب القومي السوري. وكان عريف الاحتفال الصحفي جورج اسكندر سليم، فأخذ في كلمته "يحركش" النزعة الحزبية عند سعيد والياس لاعباً على تناقضهما العقائدي. ولما جاء دور سعيد تقي الدين في الكلام بدأه بقوله: "دخلت إلى هذه القاعة وأنا والياس ربابي صديقان، ثمّ جاءنا الأخ أبو اسكندر جورج سليم أو جورج أبو اسكندر سليم.. لو طول شوي كنّا علقنا"، إلا أنّ الياس ربابي عقّب على قوله هذا في كلمته بأنّ الصداقة لا تعكّر صفوها الاختلافات السياسية والعقائدية.

ولكنّ سعيداً لم يهنأ في أواخر حياته، إذ قوبل انتماؤه هذا بردة فعلٍ عائلية عنيفة وصلت إلى حدّ التبرؤ منه. فاضطرّ إلى الهجرة من جديد، وإلى كولومبيا هذه المرة حيث مات قهراً في سنّ السادسة والخمسين للوضع الذي آل إليه، فخرس فيه أدبنا لوناً جديداً غير مسبوق سوف يعيش طويلاً بين ألوان الأدب المعروفة. ورؤي عنه أنه قال وهو يغادر إلى مغتربه الجديد: "لقد تفرّقت بأحلامي".

الوجه الآخر لشارل قرم

نُشرت في مجلة "الصياد" وفي جريدة "الحديث".

شارل قرم لن نحاول أن نعيد ذكره إلى الأذهان عن طريق استيعابه شاعراً ومفكراً وفناناً، هو صاحب "الجبل الملهَم" الذي أقعده مكانةً شعريّةً عالميّة، بل سنمرُّ في هذه اللمحة على الجوانب الطريفة في شخصيّته التي اجتمع فيها الكثير من شذوذ العباقرة.

فقد عُرف عنه أنّه كان مخصّصاً غرفةً مظلمةً في منزله تحتوي على نعشٍ وجمجمةٍ وعظام، وذلك لساعات التأمل في الحياة والموت التي كان يقضيها في هذه الغرفة، معتبراً أنّ إبقاء طيف الموت ماثلاً أبداً في وعي الإنسان هو خير وسيلة لإيقاظ ضميره وعدم انسياقه مع الغرائز والشهوات.

ومن هذه النواحي في شخصيّته أيضاً أنّه لم يكن يضع ربطة عنق أبداً، بل فراشةً، على ياقته، وبسؤال زوجته عن السرّ في ذلك أجابت بأنّه كان يحبّ الأشياء الصّاعدة، فيكره، بالتّالي، ربطة العنق المتدلّية، الرامزة إلى الهبوط.

وزوجته هذه لم يرضَ بها أقلّ من ملكة جمال، فهي سامية بارودي ملكة جمال لبنان للعام ١٩٣٥، وقد لفت نظره فيها، علاوةً على جمالها، حماسها للبنان، ورغبتها في الاطّلاع على تاريخه والعمل على إعلاء شأنه. وقبل أن يعرفها ما خطر له إطلاقاً أن يتزوَّج، إذ كان قد قرّر أن يتنسّك لخدمة القلم ولبنان. إلّا أنّه، في صباه الأوّل، كان له، باعتراف زوجته، مغامرة عاطفيّة مع جارية له تكبره سنّاً، وهو حبٌّ بقي وفيّاً له طوال حياته. ويكفي لنعرف السنّ التي كان فيها يوم هتف قلبه لهذه الجارية أنّها، وهي الأكبر منه، توفيت دون العشرين ربيعاً.

كما كان منظماً أوقاته بصورة غريبة، فالنهار للمطالعة والليل للكتابة، أما النوم فما بين الثالثة والتاسعة صباحاً، ومطالعته، في معظمها، كانت في علوم الآثار والفلك والطبيعات.

وكان يحب والدته حباً جمّاً، وله في هذا الحبّ البنويّ فلسفة خاصّة، فإذا سألته فتاة عن رأيه بخطيبها يقول لها: "أنظري كيف يعامل أمّه، فإذا كانت معاملته لها حسنة فهذا دليل على طيب عنصره.. وإلاّ فهو شرير".

وكما كان ذلك الإبن المحبّ كان أيضاً أباً محبّاً، وصوره العائليّة كثيرًا ما بدا فيها حاملاً ولداً من أولاده على ذراعيه أو كتفيه، حتّى أنّه ظهر في صورة مع أمين الريحاني ومي زيادة وهو يحمل ولداً له على كتفيه.

وإيمانه الدينيّ كان ذا تجلّيات طريفة، فقد كان يحبّ كهنة القرى بصورة خاصّة، هؤلاء الذين خصّهم بشيء من إرثه في وصيّته.

وهو، إلى شاعريّته، كان صحافياً وفناناً.. وسياسياً في أوّل عهده، وقد برز كصحفيّ في "المجلّة الفينيقيّة" التي أصدرها، وهو كان يُعنى كثيراً بالمواضيع الفينيقيّة ومن ذلك تأليفه كتاب "الفنّ الفينيقي". وكان فناناً رسّاماً، ولا عجب في ذلك إذ إنّ والده هو الرّسّام الشهير داود القرم، وشقيقه هو الرّسّام جورج قرم. أمّا في حقل السياسة فقد أسّس في زمن شبابه حزباً ضمّ نخبة كبيرة من المواطنين، وأصيب مرةً برصاصة في رأسه في إحدى التظاهرات، وكان ذلك في العام ١٩١٨، ولا تزال قبّعته التي اخترقتها الرصاصة محفوظةً لديه.

وإنّه يُعتبر، مع ميشال شيحا ويوسف السودا، الأب الروحيّ لأصحاب فكرة القوميّة اللبنانيّة التي دانت بها أحزاب وتنظيمات سياسيّة في ما بعد، إذ إنّ معظم المبادئ النظرية لهذه الأحزاب والتنظيمات مستوحى من تعاليم هذا المثلث الفكريّ.

وكان من بين الأدباء والصحفيين الذين حكم عليهم بالإعدام من قبل الأتراك في الحرب العالميّة الأولى واستطاعوا النجاة من حبل المشنقة، إمّا بفرارهم إلى

خارج البلاد أو باختبائهم في قرى الجبل، وعاد بعد الحرب يدعو إلى الاستقلال والتحرر من نير الاستعمار.

ولم تقتصر أعماله على النواحي الأدبية والفكرية والسياسية، بل تعدتها إلى الميدان الزراعي باستقدامه إلى لبنان آلات الزراعة الحديثة من جرّارات وحاصدات عرفت بها هذه البلاد للمرّة الأولى على يده. فهل تكون عنايته بهذا الحقل، البعيد عن اهتماماته أصلاً، مظهرًا من مظاهر شذوذ وطرافة شخصيته؟ لا، وإنما هي مظهر من مظاهر وطنيته وحبّه للفلاح اللبناني الذي أراد أن يساعده على استثمار أرضه وجني غلاله على أحسن وجه.

حتى أنه اهتم بالاقتصاد اللبناني عمومًا، ودفعه ذلك إلى قبول تكليف الحكومة اللبنانية إياه، في العام ١٩٣٨، تولّى مركز مدير الجناح اللبناني في معرض نيويورك الدولي، حيث عُرضت الصناعات اللبنانية الشعبية كأدوات المائدة الجزينية، والحريز الزوقي (الديما)، وصناعات بيت شباب الفخارية والنحاسية، إلى جانب الصناعات الحديثة التي كانت ما تزال ناشئة في لبنان في ذلك الحين. وعلى أثر اختتام هذا المعرض اتخذ حاكم نيويورك قرارًا باعتبار شارل قرم مواطن شرف في المدينة، وسلّمه مفاتيحها الرمزية في حفلة رسمية، كما منحته الحكومة اللبنانية وسامًا رفيعًا. ونذكر، بهذا الصدد، أن مجلة "الدبور" البيرونية، لصاحبها المرحوم يوسف مكرزل، كانت تشنّ حملات متعاقبة على شارل قرم لخلاف بينه وبين صاحبها، ولما أُعلن عن منحه الوسام، الذي تدعوه العامة "نیشان"، نشرت "الدبور" النبأ على الشكل التالي: "قررت الحكومة اللبنانية أن تُنشيّن شارل قرم"، أي أن تدعمه كما هو المعنى العامي لها التعبير، لأن كلمة "نیشان" تعني بالعامية العلام الذي يسدّد إليه الرصاص في التمارين على الرماية، و"نِيشَن" تعني، بالتالي، إطلاق الرصاص على "النیشان".

ولكنّ شارل قرم الذي لم يمت إعدامًا مات من فرط هواه للبنان؛ مات وحبّ هذا الوطن يأكل من قلبه. ولم يرافقه إلى مثواه الأخير سوى كاهن واحد (بحسب

وصيته ربّما) وأفراد عائلته، فكان مأتمه أبسط المآتم مظهرًا وإنّما أغناها بكبره المعنويّ.

والتكريم الذي جرى له بعد وفاته كان إصدار مجلّة "الحكمة" عددًا خاصًا عنه، وإلقاء الشّاعر أسعد سابا، مواطنه الغوسطاويّ، قصيدة زجلية في موضوعه خلال حفلة أقامتها مجلّة "صدى الأرز" في قاعة بلدية جونية لتكريم ذكرى بعض أدباء كسروان الذين كان منهم الياس أبو شبكة ويوسف الخازن وداود بركات، وكلمة عنه ألّفها كاتب هذه السطور^(١) في قاعة القصر البلديّ بزوق مكابيل خلال حفلة مماثلة لتكريم أدباء كسروان أقامتها مجلّة "كسروان" وكان من المكرّمين فيها مي زيادة وداود بركات وفؤاد أبي زيد والياس أبو شبكة وأنطون قازان، مع شخصيّة من خارج النّادي الأدبيّ هي الرئيس فؤاد شهاب.

يبقى أن نقدّم للقارئ شيئاً من "الجبل الملهم" الذي وُصف بأنّه "سفر تكوين لبنان الحديث"، والترجمة الكاملة لهذا الديوان بالشعر العربيّ المنثور هي للأب اسطفان فرحات، إذ إنّ سعيد عقل كان قد باشر ترجمته شعراً منظوماً ولكنه توقّف عن ذلك بعد إنجازه قسمًا من هذه الترجمة.

ولعلّ من الشيق أن نُثبتَ مطلع قصيدة "بعلبك" من الديوان بترجمة الأب فرحات النثرية ثمّ بترجمة سعيد عقل المنظومة، إذ إنّ في ذلك مقارنةً لمدى النجاح في كلّ من الترجمتين ثم لأفضليّة الترجمة النثرية على الشعرية أو بالعكس.

قال شارل قرم بلسان الأب اسطفان فرحات.. الذي لم تخلُ ترجمته من السجع وإن خلت من الوزن والقافية:

"... وأنتِ يا بعلبك،

معقل نفوسنا الحصين من قديم الزمن،

١ - منشورة في كتابنا "سياحات مع الأدباء والشّعراء والفنّانين"، دار نعمان للثقافة، ٢٠١٠.

أشرفي اليوم على مجلسٍ نعده
تحت الشرائع والسنن.
فكم من سهولٍ مخصصة
هي اليوم مجدية،
وأنت، العقيمة،
فيك الدنيا مقيمة.
إنما أنجبت محض الرجال
يمدون إجماع أيدي الأبطال،
وهم منتصبو الهيئات
لاقتحام المغامرات.
ففي غيرك تُنتبت الأرض خضرة وعشبًا يزول،
أما فيك فتنتبت الأعمدة مدى الفصول".

وقال بلسان سعيد عقل.. في قصيدة متعدّدة القوافي لا تجمع القافية الواحدة غير
بيتين من الأبيات:

"... ويا بعلبك، حمى أمانيّ تلك العهود،
حنانًا على العرس يعقدنه فيك منذ الوجود.
فكم خضرة صوّحت هشيماً على أرجلك،
وأنت، اليتيمة، تفتّر دنيا على أنملك.
ولدت الرجال الألى تهادوا برفدٍ أغرّ،
وبالنخل من قامة يصدّون وجه القدر.
هنالك أرض تموّج بالعشب لا يُجتنى،
هنا عمْدٌ نابتات على الدهر من أرضنا".

إذا حرت، قارئ، في أيهما الأجل والأفضل بين هاتين الترجمتين فتذكر أن
الأجل الأجل هو هذا الشعر باللغة التي ورد فيها، أي شعر شارل قزم كما
جاء على لسانه بالذات.

الأخطل الصّغير صحافيًا

أُلقيت، تمثيلاً لنقابة المحرّرين، في تكريم ذكرى الأخطل الصغير بدعوة من "الحركة الثقافية" - أنطلياس. نُشرت في مجلّة "الصيّاد"، وفي مجلّة "الصّحافة اللّبنانيّة" الصّادرة عن نقابة الصّحافة، وفي جريدة "الحديث" الصّادرة في جونية.

أُطلّ الأخطل الصّغير على لبنان والعالم العربيّ شاعرًا وصحافيًا معًا. أصدر جريدة "البرق" وهو في الثّالثة والعشرين من عمره.. لميله الباكر إلى الصّحافة. ولمعانه في الحقل الصّحافيّ كاد أن يطغى على صفته كشاعر، حتّى أنّ كبيرًا في ذلك العهد، عندما سُئل عمّن هو في نظره شاعر لبنان، أجاب: "الشّاعر في لبنان هو الشيخ اسكندر العازار، واتركوا بشاره للصّحافة يبرّر فيها". إلى هذا الحدّ كان نجاح الأخطل في الصّحافة، ولكنّ الرّأي المجحف بحقه كشاعر أسقطه الشاهد الأصدق وهو الزمن، فإذا الأخطل الصّغير أمير للشعر، وإذا بشاعر مصر الكبير علي الجارم يقول عندما سُئل عن رأيه في الشعراء اللّبنانيّين: "ما فيش شاعر في لبنان إلّا بشاره وسبيك من الباقي". أمّا الشيخ اسكندر العازار فقد أصبح ذكرى تاريخيّة نمرّ عليها في سياق استعراضنا لتطوّر النهضة الأدبيّة في لبنان، كما نمرّ على الأسماء المتعدّدة التي مثّلت في وقتها مرحلة من مراحل هذه النهضة وهي اليوم مصنّفة في سجلّ المحفوظات. ظلّت النزعة الصّحافيّة قويّة في نفس الأخطل حتّى بعد احتجاب جريدته. وهذه النزعة أصيلة في العائلة، فشقيقه نخلة الخوري كان يُصدر جريدة بالعربيّة في المغترب. والأخطل نفسه انتُخب نقيبًا للصّحافة عام ١٩٢٥، وظلّ حتّى وفاته عميد نقباء الصّحافة اللّبنانيّة.

جريدته "البرق" لم يوقف إصدارها طوعاً، بل عطّلها المفوض السامي الفرنسي بمرسوم ألغى امتيازها على أثر تمثيل صاحبها لبنان في تأبين الملك فيصل الأول ببغداد عام ١٩٣٠ وإلقائه قصيدة وطنية في المناسبة دعا فيها إلى الحرية وطالب باستقلال لبنان والبلدان العربيّة، فذهبت "البرق" ضحية النزعة الاستقلاليّة لدى صاحبها ودعوته إلى حرية بلاده واستقلالها وسيادتها.

وظلّ الأخطل، منذ تعطيل جريدته، يتوق إلى إعادة إصدارها. وظنّ أنّ الفرصة سنحت لذلك عندما تولّى سميّه الشيخ بشاره الخوري رئاسة الجمهوريّة، فهنّاه بقصيدة من عيون شعره، ثمّ راح يطالبه بإعادة الترخيص لجريدة "البرق" بالصدور، فما عطّله الانتداب ينبغي أن يعيده الاستقلال. لكنّ الحكومة لم تستجب طلبه مختلفة له الأعذار، ممّا أوجد نوعاً من الجفاء بين بشاره الخوري الشّاعر وبشاره الخوري الرئيس، ولم يعدّ الصفاء إلى علاقتهما إلّا عندما التقيا صدفةً في مطار بيروت بعد تخليّ الشيخ بشاره عن الرئاسة، إذ كان الرئيس السّابق موجوداً هناك لاستقبال إحدى الشخصيات العائدة من الخارج، بينما كان الأخطل الصّغير في استقبال نقيب الصّحافة آنذاك عفيف الطيّبي العائد هو الآخر من السفر، فتصافحا بحرارة، وقال الشيخ للشّاعر بلهجة النّادم على عدم إسداء الخدمة إليه في عهد رئاسته: "كلّ الدول بتدول إلّا دولتك"، إشارة من الشيخ الرئيس إلى انتهاء عهده بالحكم وبقاء عهد الشّعْر إلى غير انتهاء.

ويلفتنا هنا اهتمام الأخطل الصّغير بالذهاب إلى المطار لاستقبال نقيب الصّحافة وهو الذي عزف عن التّقلّ كثيراً في تلك الفترة من حياته.. لكونه دليل استمرار علاقته بالصّحافة والقيّمين عليها من منطلق شعوره بدوام صفته الصّحافيّة وكونه نقيباً سابقاً للصّحافة وعميداً دائماً لنقبائهما.

كما يلفتنا اهتمامه، في عهد رئاسة الشيخ بشاره الخوري (١٩٤٣-١٩٥٢)، بإعادة امتياز جريدته الملغى منذ العام ١٩٣٠، فهو دليل قويّ على بقاء حنينه إلى الصّحافة معتملاً في نفسه حتّى بعد تلك الحقبة الطويلة من الانقطاع عنها.

ولا ننسَ أنَّ الأخطل ظلَّ في ريعانه يرفض جمع قصائده في ديوان قائلًا: "إنَّ الصَّحافة اللَّبنانيَّة والعربيَّة هي ديوان شعريّ، فقصائدي كلّها منشورة فيها، وهي خير مرجع للاطلاع عليها". وهو لم يقبل بطبع ديوانه "الهوى والشباب"، ثمَّ مجموعته الثَّانية: "شعر الأخطل الصَّغير"، إلَّا بعد أن تقدَّمت به السنّ وبناءً على إلحاح شديد من قادريه ومريديه.

وكانت نزعتَه الصحافيَّة مجردة عن الغاية الماديَّة، لأنَّ تجربته في الصَّحافة أُنقِنته بأنَّها ليست السبيل إلى جمع المال. فلمَّا التقَّيته لأوَّل مرَّة بعد ثورة العام ١٩٥٨، التي أدَّت إلى احتجاب مجلَّتي "الرسالة" بسبب إقفال الأسواق العربيَّة بوجهها في تلك الأحداث، قال لي معزّيًّا: "لا تأسف على العمل الصَّحافيّ، فهو كالشَّعر لا يُطعمُ خبزًا".

ولكنَّ هذا الذي كان ينصح غيره بعدم التعلُّق بالعمل الصَّحافيّ ظلَّ آسفًا على احتجاب جريدته وساعيًا باستمرار إلى إعادة إصدارها.

وعلى سيرة أكل الخبز من معجن الصَّحافة أروي النادرة التالية، وهي أنَّ بدلات الاشتراك في جريدته "البرق" من جانب المغتربين اللَّبنانيِّين تناقصت كثيرًا حتَّى شحَّت واردات الجريدة جدًّا. فإذ شكَّا مرَّةً أزمتَه هذه أمام صديقه الصَّحافيّ الكبير إميل الخوري اصطحبه هذا الأخير إلى وادي شحرور ليكون حلَّ هذه القضيَّة على يد "قبضاي" تلك الأيَّام سليم مقصود الفغالي، وكان هذا الحلُّ أن يُطلق سليم رصاصتين من مسدَّسه على سترة الأخطل الصَّغير المعلَّقة على كرسيٍّ ثمَّ تُلقط صورة لها وهي مثقوبة على هذا الشكل، وتُنشر هذه الصورة في "البرق" مع خبر بأنَّ الأخطل تعرَّض لمحاولة اغتيال نجا منها بأعجوبة، إذ أصابت الرصاصات سترته في جانب منها ولم تنفذ بعون الله إلى صدره. فأدَّى هذا الخبر مع الصَّورة إلى موجة استنكار عارمة في أوساط المغتربين لدى تلقِّيهم العدد، وانهالت برقيَّات التهنئة على الأخطل بنجاته من "المحاولة الآثمة" مشفوعةً ببدلات الاشتراك بقيمة اشتراكات المناصرة، ولولا

هذه الحيلة اللطيفة لتوقّفت "البرق" عن الصدور قبل أن يوقفها قرار المفوض السامي.

غير أنّ ما أنقذته رصاصات سليم مقصود أصابته رصاصات الحاكم المنتدب إصابةً قاتلة. فانطفأ "البرق" وكفّ عن لمعانه، دون أن يطفئ بريق الحنين إلى الصحافة في عيني الأخطل الصغير.

إنّه داء الصحافة لا يفارق من أصيب به مهما بعدَ به العهد عن مهنته المحبّبة، رغم تحقّقه من أنه جهاد عاقّ يبحث فيه المرء عن المتاعب والعشاء، في النهاية، كما يقول المثل العامي.

هكذا عاش الأخطل الصغير صحافيًا عاملاً في أوّل عهده، وصحافيًا بروحه وأشواقه في الهزيع الثاني من حياته، ومات أميراً للشعر وعميداً للصحافة، فهنئاً به للدولتين.

غابي حدّاد... أو التناقض الشيق رحلة خائفة من القصر إلى الكوخ

كان في الأصل مقالين، نُشر أحدهما في مجلّة "الصيّاد" والثاني في مجلّة "الرحمة"، ثم دُمجا في مقالٍ واحدٍ نُشر في مجلّة "الصّحافة اللبنانيّة" الصّادرة عن نقابة الصّحافة.

من عرف غابي اسكندر حدّاد ككائنٍ بشريّ، وعاشه وجالسه وحادثه، أدرك إدراكاً حسيّاً كيف يكون إنسانٌ مجمع تناقضات: كيف يتجاوز السخف والذكاء، والطيبة والشرّ، وابن النعمة المرفّه.. والمتشرّد النائم في الغرف الكائنة تحت سلالم البنايات، والشاعر الزّاجل.. والمنقّب عن الألفاظ في المعاجم حتّى لا يَلَحَن في فصحاء، وكيف يطلع الشّعْر، زجلّيه وفصيحه، من سلّة الرياضيات والهندسة والاقتصاد، وكيف يكتب بلغة القرويين ربيب القصور في أحياء العاصمة الأرستقراطية التي تجهل لغة بلادها ولا تتكلّم إلا بلغات الإفرنج.

غابي حدّاد.. هو الشخص الذي كلُّ بواده وتصرّقاته ناشئة عن عوامل نفسيّة. ولعلّ عقدة هذه العوامل تكمن في أنّه "عزيز قوم ذلّ" و"غنيّ قوم افتقر"، فهو، عن ذلك، في عملٍ تعويضيٍّ مستمرّ. لكنّ هذه ليست كلّ حقيقته، فإنّه، في البدء، انحدر طوعاً من "عليائه" إلى رعيّل "البروليتاريا" كرهاً منه، وهو الشّاعر، في قراراته، لتلك الحياة الزّائفة في وسط الأغنياء، وسط الطبقة المتكبّرة حتّى التألّه دون أن يشفع لها بذلك غير غناها.

إلاّ أنّه احتفظ دوماً بشعوره بمستواه الأصليّ، وظلّ يحزّ في نفسه الحرمان من الرغد القديم.. رغم أنّه لا يطيق صبراً على العيش في الجوّ الذي وُلد فيه. حتّى لتخاله نادماً على فقدان ماضيه وغير نادم، يعيش في اليؤس بإرادته، ويشدّه الحنين، في الوقت ذاته، إلى أيّام ريش النعام وملاعق الذّهب.

وهكذا تنازعت العوامل المختلفة، وتجاذبت المشاعر المتناقضة، فكان لنا منها غابي حدّاد الذي عرفناه.

لقد كان مجموعة غرائز ونزوات فالتة من عقالها، ومجموعة من الحركات التمثيلية ولكن الطبيعية لا المصطنعة، كأنّ ما يتكلّفه سواه تكلفاً يصدر منه عن طبع وسجيّة. وقد عانق السخف، باعترافه، في بعض من "ثمره" التي كان يلهو بها مع من يصادفه، إلاّ أنّه ظلّ ذلك السخيف الذي يعرف أن "يستلم" الغير ولا "يستلمه" أحد.

وهو إذا أقرّ، من ناحية، بلؤمه وذنبية طبعه فإنّما يستدرك قائلاً إنّ اللؤم هو ما أعدّه لعالم لا يصلح له غير ذلك، عالم هو نفسه لئيم، وليس لك فيه من خيار إلاّ بين أن تكون ذنباً أو فريسة للذئاب.

لكنّ هذا "اللئيم المتذائب" ترى منه شعوراً إنسانياً عميقاً عندما ينتفض لرؤية خادمة المنزل تغسل له رجله - أيام حادثته -، فيخاطبها باستغراب: "تقبريني، لماذا تكونين أنت غاسلة أرجل وأكون أنا ممّن تُغسل أرجلهم؟"، وهو السؤال الذي كلّفه صفقة قويّة من والدته أطاحت به أرضاً وقلبت إبريق الغسيل.. وطسته والكرسيّ.

طفل تلك الأيام المشفق على بسطاء القوم غدا، في ما بعد، مُهيناً وجارحاً في كلامه، كأنّها لديه سادية من نوع جديد أن يتلذّد بروية الناس يتألّمون من لواذع قوله فيهم. وأفرغ إبليسيّته في شعره:

أنا شيطان، روعي جهنميّه، بقلب الزنبقه زرعت الخطيّه

ثمّ أبقى إلاّ أن "يترجم" هذه القصيدة إلى الفصحى، فأنت ناصعة الديباجة، صحيحة الأداء، مختارة الألفاظ، علائقية السبك والتركيب.

ومع الشّعْر راح يعلّم الرياضيات في المدارس، فهو مُجاز فيها وفي الهندسة المعماريّة. كما راح يحرّر الصفحات الاقتصادية في الصحف، بينما يتعاون مع

خليل قرداحي على نشر مجلة زجلية أبعد عنها كل راغب بالإعلان فيها، ولو جبراً لخطر صاحبها، بطلبه ثمن الإعلان المؤلف من ثلاثة أسطر في إحدى زواياها ما لا تطلبه جريدة يومية كبرى لصفحة كاملة بارزة من صفحاتها، أو مجلة أسبوعية مشهورة لصفحة غلاف.

ثم إذا به يترك المدارس التي يعلم فيها، أو تتركه هي، فيروح معلماً ابتدائياً إلى مدرسة شرتون.. بتدبير من صهره زوج شقيقته توفيق حسن الشرتوني، الأديب ذي الثراء الذي كان يمدُّ غابي في عسره.. وينتشله ممّا يقع فيه من وهاد. في تقلباته كلها ظلّ، على كل حال، متميّزاً بثلاثة: ذكاء حادّ، وقوة شخصية وشاعرية لا شكّ فيها، وما عدا ذلك فبوهيمية.. وتسكّع ما بين المطبعة التي تُطبع فيها مجلّته الزجلية ومقهى الحاوي في ساحة الشهداء، حيث يرصد الجنس أنوثته وذكره ويهذر مع رفاقه وعليهم.

هذا في النهار، أمّا ليله فيؤوب، في الهزيع الأخير منه، إلى غرفة كائنة تحت أسفل السلم المؤدي إلى إدارة مجلة "الأديب"، وهي غرفة لم تكن لتعطى له مسكناً لو أنّ ناطور البناية ارتضاها مهجعاً لنفسه. والسبب في هذه "الإقامة" هو أنّ غابي كان مبتعداً عن زوجته وطفله، وكونه، إذا تأخّر عن دفع بدل الإيجار، لا يطرده صاحب المُلْك لأنّه لن يجد غيره مستأجراً لهذه الغرفة.

وأخيراً، في سنّ لم تتجاوز الشباب بكثير، أُصيب بالمرض، فانطفأ الكيان الذي كانت تلتهم بوارقه الذهنية من خلال همومه وضناه الذي لم يكن يُفصح عنه. أجلّ، خبا الشهاب الثاقب مخلفاً آثاراً تنطق بمواهبه وبعوض ملامح شخصيته، على أنّ شخصيته بتمامها لن تخلد إلا في ذاكرة خلطائه وعشرائه، هذه الشخصية التي كانت أعظم من شعره ونبوغه، بل كانت، بحدّ ذاتها، شعراً أو ملهمة شعر.

المفارقة العجيبة في شخصية غابي حدّاد أن يكون ابن المدينة، بل ابن العاصمة بالذات.. والحيّ الأرستقراطيّ فيها بالتحديد، غدا شاعراً بلغة أهل الجبل، بلغة أبناء الريف القرويين، وهو الذي لم ينشأ نشأتهم، ولا طُبع في أسرته وفي محيطه على ما طُبّعوا عليه، ولا تأثّر بما تأثّروا به، ولا كان له في بيئته الطبيعية عين ماء، وجرارٌ رائحةٌ غادية، وأبقارٌ ودوابٌ تمسّق في أعناقها الجلال، وصفصافةٌ ناعسةٌ عند الغدير وجرس كنيسةٍ رنان.. يستوحي منها زجله السّاحر. ولمن يستغرب نظرتي هذه أقول إنّ الزجل اللبنانيّ كان دائماً في القرية لا في المدينة، ولدى الطبقة الشعبية من النّاس لا طبقة "الذوات" التي ينتمي إليها غابي حدّاد عائليّاً، وعلى الأخصّ من هؤلاء فئة أصحاب البنوك الذين كان والده منهم.

أجل، كم يكون غريباً لو طلع شاعرٌ شعبيّ من آل سرسق أو بسترس أو فريج، وهي الأسر التي كانت أسرة غابي عشيرتها وإحداها! وعلى قدر هذه المفارقة غرابة كانت المفارقة الثّانية؛ فقليلون يعرفون أنّ غابي حدّاد الشّاعر باللّغة العاميّة كان أيضاً شاعراً وناثراً بالفصحى، وأنّه في فصحاء كان "قاموسياً" لا يَلْحَن أبداً.. ويكتب بديباجةٍ عربيّةٍ أصيلةٍ لا يداخلها أثرٌ غريب بداعي التجديد والتطوير. فهذا الكاتب والشّاعر "الأصوليّ" كان منبته أسرة لا تتكلّم حتّى العربيّة الشّائعة في بيتها ومحيطها، بل تتنطق بالفرنسيّة، وبلهجةٍ باريسيّةٍ لاثغةٍ فيها بحرف الرّاء.

في هاتين المفارقتين كان غابي حدّاد ظاهرةً فريدةً لا مثيل لها، وإن يكن غير نادر المثل في المفارقة الثّالثة وهي أنّه كان الشّاعر الذي يحمل دبلوماً في الهندسة المعماريّة ودبلوماً في الاقتصاد، والذي كان أستاذاً للرياضيات ومحرراً اقتصادياً في الصّحف.

ثمّ تكون المفارقة الأعجب، وهي أنّ وليد القصور وربيبها انتهى بأن أصبح نزير غرفةٍ من الغرف التي تقع تحت سلاّم البنايات، كما انتهى الاقتصاديّ

المهندس معلّمًا ابتدائيًا في مدرسة من مدارس القرى، وهو عمل "دبره" له صهره الأديب المتمول الذي كان يُنجد بهماله من غائلة الجوع، ثم سعى له بهذه "الوظيفة" في ابتدائية مسقط رأسه.

هذا وغابي حدّاد، المنتقل من حالٍ إلى حالٍ في تقلّب المصائر، يروي كلّ ذلك وكأنّه يروي حكايةً غريبةً عنه، ولا يحمل أثرًا ظاهرًا لنفسية "عزيز قوم ذلّ" ولو كانت ربّما تعتمل بصورة لاواعية في ذاته، إذ لا يمكن أن تكون تصرفاته الغريبة خاليةً من أثرٍ لها.

وهذا الإنسان كان مؤلمًا، حادّ الإيلام، في تعاطيه مع الناس، تشعر بأنّه يخزك عندما يكلمك، غير أنّ هذا الطبع فيه كان لا يبدو مطلقًا أنّه نتيجة نقمة على الدهر والأيام. وإذا كانت نفسه قد عمرت بالمرارة والألم فهما لم يتولّدا لديه بفعل ما آلت إليه حاله، بل كانا يمازجان روحه وهو بعد راتع في أحضان النعمة، وربّما كانا من الدوافع التي جعلته يخلع عنه هذه النعمة ويعيش عيشة التشرد والقهر.

أجل، لم يكن المحلّل ليستطيع أن يلمس لدى غابي أثرًا للندم على ما ساق نفسه إليه، بل كان موقفه عبارةً عن هزءٍ بحالتيه الحاضرة والغابرة معًا. وإذا كان يحلو له أحيانًا أن يُلْمَح إلى سابق عزّه فذلك على هامش اعتزازه بجرائته الكلامية أو بمواهبه العقلية، أي، بالنتيجة، اعتزازه بـ "عظمته" الشخصية، كالرواية التي يرويها عن تصدّيه لأحد رجال السياسة اللبنانيين عندما رآه يرتقي سلّم إدارة الصحيفة التي كان هو - غابي - يعمل فيها وكأنّه ليس كائنًا من البشر يسير على الأرض، فإذا به ينتفض في وجهه ويواجهه بقوله: "هذه اعملها مع غيري، فإذا كنت أنتَ فلانًا فأنا غابي حدّاد، وأنتَ تعرف فضل أبي على أبيك".

قد يكون في أعماق نفس غابي ألمٌ دفينٌ بتأثير انقلاب الأيام عليه، وتأثير خلافه مع زوجته وابتعاده عن فلذة كبده، غير أنّه لم يكن يدع لهذا الألم، إذا كان

موجودًا، مجالاً للظهور. وأغلب الظن أن عدم الاستقرار الذي كان يتّصف به كان يبذل شعوره إزاء ما هو فيه، فيراوح ما بين رضّى عن نفسه وبين تحسّر على الماضي تبعًا لتقلّباته النفسيّة، فيظلّ هكذا دون موقف ثابت من الوضع المأسويّ الذي آل إليه. ولا ننفي عنه، من ناحية أخرى، عدم الاتّزان الذي ساهم، طبعًا، في تدهوره المادّي وحصول الخلاف العائلي، غير أنّه لا يمكننا أن ننسبَ هجره لوسطه الرفيع إلى عدم الاتّزان هذا، بل إلى كرهه لتقاليد هذا الوسط وقيوده. فهو لم يكن ينظر نظرة احترام إلى المقام الذي تنبّأه أسرته ليأسفَ على تخلّيه عنه، بل كان يستخفُّ به وبها. لقد كان ديمقراطيًّا في صميمه، ومُحبًّا للحرية والانعقاد.. لا يطبق أن يُحصَرَ في ربقة "البروتوكول" الذي استنته أسرته ومثيلاتها لنفسها.

لقد كان يتكلّم عن أشقائه، فيتحدّث عن كبريائهم بما يجعلك تفهم قدر مقام عائلته من جهة، وبلهجة المنقذ لهذه الكبرياء من جهة ثانية. وما تنثيته على مقام عائلته تلميحًا إلّا لإرضاء مركّب العظمة في نفسه، لأنّ غابي كان شديد الاعتداد بشخصيته وذكائه وشاعريّته. وكان قويّ الشخصية فعلاً، يتحجّن الفرص لفرض هذه الشخصية وإظهار طغيانها على سواها.

وقد تطوّر عدم الاتّزان لديه إلى نوع من الشذوذ، ومن مجالي شذوذه "الفصل" الذي عمله مع شريكه في تحرير المجلة الزجلية التي كانا يُصدرانها معًا، وهي مجلة متواضعة كانت تفتقر إلى كلّ ما يجعل للإعلان فيها قيمة وفائدة، فكان حظّها من الإعلانات ضئيلاً بالطبع. ومرةً سعى زميل غابي سعيًا جاهدًا للحصول على إعلان لها، فظفر به بعد لأيّ وبعد أن أراق ماء وجهه في سبيل الحصول عليه، وكان شرط المعلن أن يحتلّ إعلانه صفحةً من صفحات الغلاف لقاء.. خمس وعشرين ليرة فقط، ممّا اعتبره شريك غابي فوزًا باهرًا أحرزه. ولكنّ غابي تسلّم الإعلان، فاختصره على غفلة من زميله جاعلاً إيّاه ثلاثة أسطرٍ وضعها في زاوية من أسفل إحدى الصفحات، ولمّا اكتشف زميله الأمر

طار صوابه وصاح به كيف يفعل ذلك، فكان ردُّ غابي قهقهةً عالية: "أنا مطرحك أفهم المعلن أنَّ هذه الأسطر الثلاثة في مجلَّتنا توازي مئة ليرة لا خمسًا وعشرين".

وبعد.. فغابي حدّاد، صاحب هذه المظاهر من الشذوذ، وصاحب هذا الاستخفاف بالناس، كان صافيًا في قراراته يحاول الظهور بمظهر اللؤم. "أنا لنيم".. قال لي مرّة، "بل أنا ذروة في اللؤم، لأنَّ الحياة تتطلَّب لؤمًا"، ولكن بدا لي من كلامه أنَّه يحاول إقناع نفسه والغير بما ليس فيه حقيقةً، أو هي النفس البشريّة جامعة المتناقضات، وقد اجتمعت في شخصيّة غابي حدّاد على أعجب وأطرف ما تكون.

"الصورة" في عدسة جورج مغامس لم تُنشر سابقاً.

ليست صورة، بل صورٌ، ولا وجهًا، بل وجوه. نماذج من أفراد هذه الطبقة الشعبية تجلو طبائعهم، تعرض نفسيّاتهم، تُبرز ملامح من حياتهم، حياتهم اليومية كادحين لتحصيل رزقهم وقوت عيالهم، لا يرضونه إلاّ حلالاً يكسبونه بعرق الجبين، والنسوة منهم هنّ على مثال "أمّ شامل": "قديسات البساطة، بساطة القلب والروح، بساطة الحياة التي على بركة الله".

أمتشابهون كلّهم.. ومتشابهات؟ كلاً، لكل شخصيّة. فالمعلّم الياس ذو دوافع من نفسه لا تعمّ كلّ أُنذاده. إنه يرصد في زاروب بيته كلّ مجيء ورواح، ويلتقط كلّ كلمة يفوه بها عابر سبيل.. لا بل يرسم صورته في ذهنه، ثمّ يُفيض بما رأى وسمع، غير غافل عن حرصه على عدم نقل الكلام عن لسانه، فهذا الذي صار، "والحكي بيناتنا".

أمّا "الرئيس" فالإليك هو متّخذاً وضع "الذوات": سيكار في الفم، وملفات على المكتب وأدوات اتّصال. ويتكلّم انطلاقاً من وضعه هذا: يشرئبّ، يبسط ذراعاً وأخرى، ينفث دخان سيكاره إلى أعلى.. حتّى لكأنّه "نسخة منسوخة عن واحد من أباطرة الرومان".

وتتعدّد عند جورج مغامس الصور والمشاهد.. لا هويّة لها إلاّ أنّها لبنانية. فقد بحثت فيها عن لون محليّ، كسروانيّ مثلاً، فلم أجد. ضيعة "المقدّم" هي كلّ ضيعة في هذا الجبل أو هذه السواحل، خلاف أقاصيص أنيس مسلّم "الزحلاويّة" بامتياز، أو مثيلاتها عند صادق مكّي التي لا تعدو أن تكون لوحاتٍ ورسوماً لقريته الجنوبية، تلك التي لا شبيه لها في أواسط لبنان وشماله.

وإنِّي لأعجب عنده من "سنيور" مطربش، فهذا اللَّقب يُطلقه النَّاس على المغترب العائد، يَلْكُنْ بِـ "الإسبانيولي" في كلامه ويعتمر القَبْعَة لا الطربوش وإلاَّ لا يكون "أميركاني". ولكن يظهر أنَّ "سنيورنا" هذا لم تطأ قدماء أرض الغرب، فهو "زرّاع أرض، وهاوي شتل وقطف"، فلماذا إذاً هو "سنيور"؟!

وتتوالى الصور لا يُفَلَّتْ منها طراز من النَّاس: أديب الثرثار، شهيد ذو الطباع الحادّة وضيق الصدر، إلاَّ أنَّه لا يتشدّد سوى على المتساهلين في دينهم وغير المستقيمين في دنياهم. أمّا الشيخ "إدمون" فهو مثال لكثيرين من رعيّل آبائنا والجدود، يؤمن بالخرافات، ويخاطب الجنّ محاولاً فك الرصد عن مخابيّ الذهب، وكم كنّا نسمع من هذه الحكايات في صغرنا.

جورج مغماس.. بدا في كتابه "الصورة" مستعرضاً النماذج البشريّة كما تتراءى في مجتمعنا على الأقلّ، وهي في الحقيقة نماذج عالميّة. وطريفة عنده النماذج النسويّة: أحاديث النساء في عوائلنا.. ما عساها أن تكون غير قيل وقال، مع هموم البنين والبنات، وأخبار الأفراح والأتراح، والمصائب التي هي فوائد عند آخرين؟

ومثل الخرافيّين من الرجال خرافيّات من النساء: "رفقة" تعتبر أن رشّ الماء أمام بابها في الليل مجلبةً للجنّ والشياطين، وتَحَذَر من الآبار المكشوفة ليلاً لأنها تصير مأواها وملجاها. إعتقادات رأينا لها أشباهاً في قرانا حيث صبيّة العين، و"كبس" المواليد من قِبَل العزّاب والعازبات، وكذلك كبس دود الحرير فلا يعود ينسج شرنقات. إلى ذلك يُضاف شؤم انكسار المرأة، وخير كبّ القهوة، وشؤم صباح الأكلط والجرّة الفارغة، وعدم دفع المال في أوّل الأسبوع.. خوف أن "تكرّ السبحة" في التّالي من أيّامه، ناهيك عن التّشاؤم بالرقم ١٣، والحذر من السفر يوم الجمعة وتفصيل الأثواب يوم الثلاثاء.

ولكنّ أجمل ما في كتاب "الصورة" ذلك الأسلوب الشعريّ في السرد والوصف، وهو ما تفتقده قصصنا الملتزمة الأصول الكلاسيكيّة في حبك العقدة

ثم الانتهاء بالحلّ، حتّى إذا كانت ترسم مشاهد وتصور أناساً فلا يكون رصيدها من جماليّة التعبير أكثر من إيفاء اللوحة حاجتها حتّى تعطي الفكرة المطلوبة.. مع براعة انتقاء التشابيه والاستعارات، ولكن دون العبارة الجارية على أسلوب مكوكب أو منمنم، أو مرصّع.. أو مجنّح هفهاف.

فالعبرة عند جورج مغامس مسكوبة في قالب، مضيئة مشرقة، تمضغ فيها حلاوات القول، وتستطيب الطعم قبل أن تعي المعنى:

"ساعة تراها تهبط الدرج المعلق على نواتي من قنطرة وجدار.. فكأنك ترى سرورة تتهادى على أكمة ما بين رياح وظلال".

"تلك البنت المقدودة من لون جذوع السنديان، وتخطر خطرة الدوريّ والخوري والشمّاس، وفي صوتها مثل حفيف القصب في طنين النحاس، عاشت صباها على عزّ التتورة القصيرة، وغنجت بها وزهت وما همّها قبل وقال".

"أديل، السيّد التي أزهرت شامة في ظلّ من ظلال وجهها المعتقّ بالتجارب، هي تزهر شامات مثل طيب القطائف في شجر القلوب".

"لما أدركته مفاتن المدينة، وأصابته منه مكامن الهوى، انفتح وريده للحسان والدنان، وأبلى البلاء الذي لا يجارى، فجرّ على نفسه جريرة، واستجرّ له كثيرون". وهذه "السّحبة" من أناقة القول، فوق ما هي عليه من ذلك، ترينا القرويّ المكبوت الغريزة بفعل جوّ الحياة في القرية المحافظة كيف أفرغ كلّ ما لجمه حتّى الآن دفعة واحدة عندما دخل في أجواء ليس فيها للعب و"الهيئة" و"الجُرصة" نصيب.

وخاتمة الروائع في هذا الكتاب، لا بل رائعة روائعه، هي ما جاء فيه عن "أبو جميل الخطار": "هذا المهفّف، وشارباه دقيقان معقوصان إلى فوق كصنارة. أنوف هو، وقد لا يُعجبه العجب. لا يغضّ الطرف عن شميم الطيب في عرق حبق أو عطر أو وردٍ جورّي، يقطفه من دارته التي كدارة القمر، ويمضي به مشرباً النقلة نافض المذيل.. إلى حيثما تسهيل من الله، ومن رضى الضمير

حيناً والهوى أحياناً". صدقت يا أخي جورج: للهوى دائماً حصّة الأسد، وللضمير الفضلات.

جورج مغمس، القصصيّ الشّاعر، زواج ما بين القصّة والشّعر، وهو الشّاعر الرّيق في عدّة من كتبه وبينها ذاك الذي تناولناه في مقالنا التّالي الذي يعقب هذا المقال.

"بين قلبي وربّي" والشعر على قلم جورج مغامس لم تُنشر سابقاً.

بين قلب جورج مغامس وربّه أخال الأمور تجري كما تكون دالّة الصغير على الكبير. فالله تعالى عشير الياف لجورج، وجورج يخاطبه، ويخاطب المسيح والعذراء، كأنه ابن البيت، وبين أهله.

ولكن دعنا من ذلك ولندخل في صلب الكتاب:
إنجيل الميلاد للقديس متى لو شاء احد أن يعيد كتابته شعراً لما جاء هذا الشعر أجمل وأروع من النشيد الذي بدأ به جورج مغامس كتابه هذا.
سمّيته نشيداً لأنه جاء شعراً ولو لم يُردّه صاحبه كذلك، فقد أبى قلمه إلا أن يستجيب لروحه الشاعرة حين لم يكن هو يخطّه بهذا القصد:

في المغلق أنا
أبدًا في كهف الخيال
يراودني الضوء
وينكسر على حدّ الزوال
أفسحوا في المجال
أفسحوا في المجال
ها إنَّ انتظاراتي تختنق
ويختنق فيّ السؤال

دعاني هذا وسواه في الكتاب إلى طرح سؤال على نفسي لم أطرحه عليها في السابق، وهو: أَيْكون تعريف الشُّعر لا ينطبق إلّا على ما يخضع للمقاييس الخارجيّة، الحسابيّة، كما يقيس الخيَاط طول الرداء وعرضه بالماسورة، أم نهتدي للُقيا الشُّعر بوقعه في النَّفس، بالهلهلة التي له في انسكابه، والنَّغم الذي يبعثه في الأذن؟ إذا كان الأمر كذلك فما رأي القارئ بما سقناه إليه أعلاه على سبيل المثل لا غير، وهناك في الكتاب ما هو أطيب وقعًا، وأكثر موسيقيّةً وأسهل انسيابًا؟:

قم اسمع

يا صابرًا على الجرح

والجرح فوّار

قم اسمع.. لا تَمُتْ

غداً تشرق شمس

يندلع زهر

تصفو لك الأقدار

قاومه هذا النعاس

ما عرفتك يُنِيخُك وَهْنٌ

ولا يلويك إعصار

وهنا كنتُ أتمنى لو كانت العبارة الأخيرة: "أو يلويك إعصار" ، لأنّ "لا" كان يجب أن تتردّد في المقطعين المتواليين هذا والذي قبله مثل "لا هذا ولا ذاك"، أمّا بالشكل الذي وردت فيه فإنّ النفي حصل بـ "ما عرفتك" ولا حاجة بعده لـ "لا".

والأحلى أنّه ينقل العبارات الإنجيليّة أكاد أقول بحذافيرها ولكن دون أن تبدو وكأنّها استعارات، فالإطار الذي أدرجت فيه يُبعد عنها هذه الصفة ويجعلها من صميم النص.

ونجري في الكتاب مستطلعين.. علَّ ما ورد فيه ممَّا يقرب أن يكون شعراً (إذا لم يُعجب البعض أن أنعته بالشَّعر الخالص) قد جاء صدفةً دون أن يفرض طابعه هذا على الكتاب برمته، فإذا هو على تشابه وانسجام تامٍّ في سياقه كلّ، لا تتدُّ منه لفظةٌ أو عبارةٌ ففتبو به عن سلسلة الشَّعر في جريه:

يا أُمَّ العزاء

يا أُمَّ الرجاء

يا أجمل هديّة

جادت بها السماء

على دروب أمانينا

يا أُمَّ الرحمة

يا أُمَّ النعمة

يا وجه الحبِّ

يا حبًّا جمًّا

يا ألقى أغانينا

أو هذه:

تُسدلُ وجهها

وفي عُبيّ تُخبّي النجوم

ويدًا من دفء القدر

سرُّ الحبِّ في شفتيها

ومن شفتيها

تبسم الدنيا

ويفتّر الشجر

وقد ساعدت القافية على إضفاء طابع الشَّعر على هذه "المنمنمات" أو "الحُببيات" التي قطرها لنا جورج، فجاءت متحديةً للمتعارف عليه في هذا المجال. وأُقرُّ

بأنني كنتُ من السالكين المتشددين في دروب الشعر بحسب مفهومه المؤلف، حتى قرأتُ ما جادت به هذه القريحة الجريئة المغامرة فزعزعت يقيني ودعتني إلى إعادة النظر في موقفي، دون أن تنال التجربة التي خاضها المؤلف من صحة التعريف التقليدي للشعر الذي مازلتُ أسلم به، بل هي تقدّم لنا لوناً جديداً من الشعر تضيفه إلى ما هو سائد حول مقومات الشعر وميزاته دون أن تهدم هذا الأخير لتحلّ لونها مكانه.

وربّما قائلٌ إنّ النمط الذي سار عليه جورج مغامس هو نمط الشعر المنثور الذي نقرأ منه الكثير في هذه الأيام لأنه شاع وانتشر، فأجيبه بأنّ أيّاً من العطاءات التي صبّت في هذا القالب ظلت كذلك ولم تشارف الشعر بمعناه الحقيقي مثل هذه المنعمات شبه المنظومة والتي تكاد تنتظم في سلّم موسيقيّ:

حدّثني يا بيار

عن فتى

كان قوس المنابر

أغدق الروح

أضواها

أعلى علاها فوق المنائر

أكبّد أوركنت على جرحه

افتقرت لها راحات الضمائر

ساورت سماها مريمات الحبّ

تناهدت

طاب الشروق

وشعّ وردًا في السرائر

أمّا إذا أردتم جورج مغامس الشاعر كما نعرف الشعر في الأساس فإليكم هو في "نشيد معهد سيّدة اللويزة" و"نشيد زوق مصبح". من هذا النشيد الثاني:

يا تراب الزوق، يا عطر السماء، متحف التاريخ في سفّر الضياء
 من حكاياتٍ بـماضٍ ما انطوى، سوف نُعلي في مغانينا البناء
 في تلال الشمس أسلاف لنا أوقفوا للعلم خيرات الحصيد
 من تُفاهم، من رؤاهم والجنى، عرسُ أمجادٍ قديمٍ وجديد
 كم غزاةٍ أحجموا دون المنى عند نهر صائه الوعر العنيد
 فاهتفي يا مصبح الزوق بنا: "هَيِّئُوا للغد أجيالاً تُجيد
 غزل خيط العزّ والعيش الرّخاء"

لقد قصرتُ كلمتي على إظهار جورج مغامس شاعراً تفرع مقاطعه باب الشعر،
 وفي عُرفي أنّها ولجته ولم تقف عند حدّ العتية، وهذا وحده يُغني عن الخوض
 في مضمون كتابه الذي، من هذه الناحية أيضاً، يُطلُّ برأسه غير هيّاب.

ناجي نعمان: نفسٌ أسدلت عليها الستائر لم تُنشر سابقاً.

"ما حدّا بيَعْرِفَنِي مِثْلُ ما بَعْرِفَ حالي، وأَدَيِّشَ بِجَهْلِ حالي"^(١).
عبارةٌ وردت على لسانه وسجّلها في مجلّده "الناجيات" تُشكّلُ مفتاحَ شخصيّته.
قلتُ: "مفتاحها"؟، وأيُّ بابٍ يَنْفَتَحُ عليها هذه الغائرةُ في سراديبٍ ودهاليزٍ أين
منها مغاورُ الطّبيعةِ وأعماقُ اللّججِ؟!
هذا الوجهُ الطّلقُ، النّشوشُ، الَّذِي يُوحِي بأنَّ صاحِبَه "مكشوف"، يُنبئُ ظاهرُه
عن باطنه، ما أشقَّ الرّحلةَ في مطاوي ذاته، وما أخطرَها في مهاوي عالمه، أو
عالمه الدّاخِلِيّةِ.

وإذا كان الشّاعر، في عُرْفِه، غيرُ مَوْجودٍ، بل هناك مُحاولٌ فقط، فكَمَ ينطبقُ
ذلك على مَنْ يَريْدُ الوُلُوجَ إلى أغواره ليستطلعَ "أناه" العميقة، الصّميّة، هذه
الَّتِي يحجبُها عن عين البصيرة انسراحٌ في الإطالة الخارجيّة، وروحٌ تبدو
مرتاحةٌ لا تعقّدُ فيها، ولا طبقاتٌ فوق طبقات.

ناجي نعمان، هذه النّفسُ الَّتِي تجتمعُ فيها كلُّ وراثات الأجيال: من وثنيّة التّعبدِ
للأرض والجدود، إلى روحانيّة دِيانات الشّرق البعيد، إلى مسيحيّة المحبّة
والتّسامح، إلى حرارة الإيمان في الإسلام، إلى الإنسانيّة ومَساعيها الوحدويّة،
كَمَ يكونُ فيها من الغنى، ولكن، كَمَ يكونُ فيها، أيضاً، من التّركيب، والألوان

١- ترجمةُ القَوْلِ باللُّبْنانيّةِ، من أصلِ أربعين ترجمةً وردت في "الناجيات"؛ وأمّا الأصلُ
العربيُّ ف: "لا أحدٌ يَدْرِكُ نفسي كما أدركُها، وكَمَ أجهلُ نفسي" ("الرّسائل"، طبعة أولى، ١٩٩٥).

المتعدّدة، والشخصيّات المختلفة التي تحاولُ الائتلاف. فكيف للمتجرّئ على الولوج إلى حناياها أن يجتلي خطّ مسيره، وفي أيّ ميناءٍ من موانئها سيرسو مركبُه إذا استطاعَ الإبحارَ في مجاريها المملّأ بالمنعرجات، والمخيّمة عليها ظلمةٌ لا تدعُ للمقتحم المغامر أن يتبيّن شيئاً ممّا وصلَ بعد الجهد إليه؟

وهل أغرب من أن يندمجَ المتناقضان: العدم والوجود.. في صومعته؟! وهل أعجب من أن يفتشَ عن شيءٍ جديدٍ بعد العدم والوجود، وهما كلّ ما خلّق الله؟! إنَّ معه كلّ الحقِّ بأنَّ يجهلَ نفسه طالما أنَّها غابَةٌ عذراء، ومجاهلٌ تتلوها مجاهل، نبتَ فيها العوسج والوزّال، وأمّا بحارُها فأشدُّ قتامةً من بحر الظُّلمات.

والعذرُ، كلّ العذر، للغير، ما دام هو يفتشُ عن الحقيقة فلا يعثرُ إلّا على الوهم؛ يفتشُ عن الواقع، فلا يقعُ إلّا على الخيال. سِرْقَتِيس، الإنسانُ الذي عاشَ بلحمه ودمه على الأرض، يغدو في عينيه شبحاً، ودون كيشوت، الشخصيّةُ الأسطوريّة، يرتسمُ أمامه حقيقةٌ مجسّمة.

العلمُ ما زال يكشفُ في الكون سرّاً بعد سرٍّ، وأمّا أسرارُ النفس البشريّة فموطنها داخل الكائن في تلك القرارة المُمعنة في البُعد والعمق.. كموطن الكرة الناريّة في قلب كوكبنا.

وهو دائماً له مفاهيمه الخاصّة بعيداً عن التعريفات الكلاسيكيّة: فالأنبياء والرُّسلُ والقديّسون في عرفه ليسوا أولئك الذين نعرفُهم بهذه الأسماء فقط، وإنّما، أيضاً، رُسلُ العلم والمعرفة والثقافة.. وكلُّ إنسانٍ عاشَ إنسانيّته. وإذا كان لا بدّ من معجزة ليُصنّف القديسُ قديساً فإنَّ معجزة من ذكرنا تكمنُ في أنَّ الإنسانَ على أيديهم يولّد مخلوقاً جديداً خلافاً ولادته الأولى. فمن صُقلَ بالإرث الحضاريّ الذي هو كلّ رصيد هذه الإنسانيّة، هو غير المولود الخام الحامل في رأسه صفحةً بيضاء، أو الذي لم يكتسب من الحياة إلّا ثقافةً تجاربه الخاصّة، ومذخور المعرفة الشعبيّة التي ما زالت في الطوابق السفلى من صرح الثقافة الشامخ.

لقد أُقبلتُ على آثار ناجي نعمان وفي ظنيّ أني سأقعُ على ساحاتٍ رحبةٍ ممهّدةٍ ليست ذات تعاريج ومنخفضات وقفن، وإذا بي أصادفُ من ذلك ما يعصى عليه السير. فهممتُ بأن أُقلّ راجعاً، ولكنّ كثرة العقبات أغرتني بتحدّيها ومحاولة تذليلها (وأنا من رأيهِ في أن ليس بمقدورنا في أيّ عملٍ إلّا أن نحاول محاولةً)، وكثرة الأفعال والمغاليق أثارت فضولي وحفزتني على الإصرار في السعي لحيازة مفاتيحها، فما عدتُ من جولتي بحصادٍ وفير، ولا وفقتُ إلى فكّ الرصد وحلّ الألغاز. فكنتُ كلما أوغلتُ بُعداً أرى نفسي ضارباً في التيه: كلُّ بابٍ وراءه أبواب، وكلُّ نافذةٍ لا تطلُّ إلّا على منظرٍ غائمٍ ورؤيةٍ غبشاء.

ها هو في المعرفة المطلقة والحقيقة الكلية.. مُنطلقٌ إلى حيث الجديد وما هو فوق بشر اليوم والغد. إخاله ذا نفسٍ كونيةٍ هذا الكائن، نفسٍ تريدُ أن تضمَّ تحت جناحيها كلّ ما يحتشدُ في العوالم كافةً من مُتجانسٍ ومُتناقضٍ، من مُتشابهٍ ومُتنوّعٍ، من مُتناسقٍ ومُتنافرٍ؛ فإذا أنت دخلتها وحالفك الحظُّ بأن تجولَ فيها على وضوحٍ في الرؤية عاينت "العالمَ الأكبر" الذي تحدّثَ عنه الشاعرُ منطوياً في هذا "الجرم الصّغير"^(١)، أي في هذه النفس التي اختصرت كلَّ ما قالَ له الله: "كن" فكان.

"الله في خلقه شؤون": قولٌ يجدُّ مصداقه في شخص ناجي نعمان الذي هو مجموعة شخصيّاتٍ غير مُستنسخةٍ الواحدة عن الأخرى. ففيها من المُتناقضات ما بين صحارى إفريقيا وتلوج القطب، ما بين غابات الأمازون ومروج الزّهر في البلاد الواطئة، وما بين وعر الجبال والسّهول المُنبسطة الفساح. وتبقى النفسُ البشريّةُ صندوقاً مقفلاً، ومقماً.. نادراً ما يطلعُ منه مارده ليُخبرنا عمّا في داخله. هذا القمقم وحده لا يحضرُ نزيله فوراً لدى استدعائنا إيّاه ليقولَ لنا خاضعاً: "لبيك، عبدك بين يديك".

١- وتحسب أنّك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ

هل يجفُّ الأديب؟ يحيى حقّي يقرع ناقوس خطرٍ من نوعٍ جديدٍ نُشرت في مجلة "الصِّيَاد".

تصريح خطير للأديب المصري الدكتور يحيى حقّي هو ذلك الذي أعلن فيه إفلاسه الأدبي.. وبكلمات واضحة صريحة لا تترك مجالاً لتأويل. لقد سئل صاحب "أم هاشم" عن سبب توقُّفه عن الكتابة منذ خمس سنوات توقُّفاً تاماً دون كتابة حرفٍ واحد.. فأجاب:

"قلتُ كلَّ ما عندي، ولا أجد في نفسي شيئاً جديداً أقوله. أنا أبلغ من العمر الآن اثنين وسبعين عاماً، وبعد أن وصلتُ إلى هذه السنِّ المتقدِّمة أشعر بأنني انتهيت، أفلست، نضبت. أعرف أنها كلمات قاسية، ولكنها الحقيقة التي لا مفرَّ منها".

كلام يحيى حقّي هذا، على كونه نطقاً فريداً لم يتفوّه بمثله أديبٌ من قبل، يطرح قضيةً من أهمِّ القضايا التي يجدر بالباحثين التوفّر عليها ودراستها، وهي: "هل ينضب معين الأديب والشاعر فعلاً.. فلا يجدان، بعد، ما يقولانه للناس؟، وهل "بضاعة" الأدباء وأهل الفكر ذات "كميّة" محدودة.. إذا نفذت ينبغي أن يعتزلوا العمل ويُحالوا على "المعاش"؟

مسألة إحالة الأديب على التقاعد هذه لم ترد حتّى اليوم في سلسلة الإحالات المماثلة: إحالة الموظّف، والمحامي، والمهندس والصحفيّ. فلقد كان ينبغي وجود أديبٍ في مثل جرأة يحيى حقّي وصدقه ليُصدرَ "حكم الإعدام" على نفسه بهذه الصورة المبرّمة التي لا تدع مجالاً لمراجعة.

أما أن يكون يحيى حقي من أهل الصدق، وقائلي الحق ولو على أنفسهم، فهذا ما يعرفه قراءه المدمنون على مطالعة إنتاجه، أوليس هو القائل.. في حديثه ذاته: "يعلم الله أنني كنت صادقاً مع نفسي ومع قرائي في كل كلمة كتبتها، ولم أكذب في حرف واحد؟"

لكن الأسئلة التي يطرحها إعلانه عن جفافه ونضوبه كثيرة، وكل منها يؤلف عنواناً لبحث أدبي ونفسي تتوقف على نتيجته الإجابة على السؤال.

الأول من هذه السلسلة يطرح قضية يحيى حقي من ناحية كونها ظاهرة فردية تتعلق به وحده أم ظاهرة عامة عرفها غيره أيضاً من الأدباء، لكن العوامل البشرية التي تتحكم بسواد الناس منعت الإفصاح عنها والاعتراف بها، فظل الأديب الناضب يجتر نفسه، أو ينقل أو يترجم عن غيره، أو يطوف بشيء واحد كتبه من مكان إلى آخر يلقيه أو ينشره في كل مرة وكأنه عمل جديد.

أما السؤال الثاني فيروح إلى العمر.. يستنطقه عما إذا كان هو المسؤول عن نضوب الأديب أم أن المسؤول هو كون هذا الأديب محدود القدرة على الخلق والإبداع، فما يكاد يفرغ ما في جرابه حتى يكون قد استنفد نفسه ولم يبق في جعبته زيادة لمستزيد.

الجواب على هذا السؤال ليس في مصلحة يحيى حقي، لأننا نعرف أدباء ظلوا يُعطون جديداً حتى في سنهم المتقدمة، لا بل لم يبلغ إنتاجهم قمة نضجه إلا في أواخر عمرهم.. لأن التطور عندهم كان عملية مستمرة تتواصل على مدى الزمن.

والعطاء المحدود، في المجال الأدبي، ليس من شهود كثير عليه، إذ أن الكاتب، عادةً، يظل، مهما كتب، يجد في نفسه شيئاً لم يقله بعد، ويحار كيف يوقف حبل الصور والمعاني والأفكار المتدفقة عليه، ما أن يعبر عن دفعة منها حتى تنهال عليه دفعات. وإننا لنخال أمثال يحيى حقي ممن أعطوا كل ما عندهم وارتاحوا

طرفاً.. يقابله في الطرف الآخر أولئك الذين يعطون ويعطون ثم ينتهي بهم الأمر إلى أنهم "لم يقولوا كلمتهم بعد".

وثمة سؤال ثالث يطرح نفسه باستغراب.. وهو: "كيف يكون الأديب صاحب أشياء جاهزة في داخل نفسه.. لا مستوحاة يومياً من الحياة المتحركة المتغيرة؟". فزعم الأديب أنه لم يعدّ عنده ما يقوله يوحى بأنّ ما يعطيه هو من ذات نفسه فقط، ولكن أهذا هو الواقع؟ هل الأديب يعطي من "عنديّاته" أم يستمدّ من ينبوع الحياة الذي لا ينضب.. والذي فيه كلّ يوم جديد؟

إنّ ما تُلهمنا إيّاه الحياة اليوم لا نخالها كانت تُلهمنا إيّاه من قبل؛ ذلك أنّ وحيها يسير مع حركتها المتطورة، ولا نظنّ أنّ أديباً يستطيع الادّعاء بأنّ الحياة هي الأخرى يمكن أن تعطي كلّ ما عندها ثمّ يخلو منها الوفاض. قصارى ما يمكن أن يقوله هذا الأديب أنّه هو، في مرحلةٍ معيّنة من عمره أو من إنتاجه، فقدّ القدرة على الاستلهام من الحياة، من الطبيعة، من المجتمع ومن الكون، لأنّ عينه لم تعدّ تُبصر في الأشياء ما كانت تُبصره في السّابق، لم تعدّ ذات رؤيةٍ غير عاديةٍ تظهر لها من خلالها المنظورات كما لا تظهر لغيرها، أو على الأقلّ تتراءى لها من زاوية لا تنتظر منها الأعين العادية لسائر النّاس، وأنّ تُصاب عين الأديب بمثل هذا العمى لمّا يؤسف له حقاً.

وختام الأسئلة التي يوحى بها "إعلان" يحيى حقّي له طابع التعليق أكثر من طابع السؤال. فإنّه من المعروف في عالم الأدب أنّ الأديب أو الشّاعر لا يستطيع أن يعطي من نتاج قريحته ساعة يشاء، بل إنّ الإلهام يفيض عليه في أوقاتٍ لا مواعيد لها وربّما فاجأته مفاجأة. وهذا ما عبّر عنه الشّاعر الياس أبو شبكة في مقدّمة ديوانه "أفاعي الفردوس" عندما ردّ على نظريّة "الشعر الصّافي" للأب هنري بريمون الذي كان يقول إنّ الشّاعر صاحب صنعةٍ مجوّدةٍ متى امتلك ناصيتها أصبح في إمكانه أن يُنتجَ فيها متى شاء.. وبحسب الطلب، فإذا بأبي شبكة، في معرض تناوله هذا الرّأي، يقول ما مفاده أنّ قريحة الشّاعر تمرّ

أحياناً في ساعات خدر يستعصي عليه فيها العطاء.. حتى لكأنه، في هذه اللحظات الباهتة، ليس هو نفسه، إلا أن هذا الخدر الموقت أو العابر ليس له معنى القحط أو الجذب.. بل لا تلبث روح الشاعر أن تتقمّصه من جديد.

وإننا لنجد عند نزار قبّاني، في مقدّمة ديوانه "طفولة نهد"، ما يشبه هذا الرأي، فهو يُخبرنا أنه كثيراً ما اتخذ للشعر "وضعيته"، فأمسك قلمًا وورقة وجلس وراء طاولة وأحرق أكثر من دُخينة (لغافة) دون أن يتساقط عليه، مع ذلك، شيء من ديم الشعر، حتّى إذا كان يسير وسط زحمة الشارع وضجيجها، أو يستقلّ الترام أو يعقد مجلساً مع الناس تروح فيه الأحاديث وتغدو بعيداً عن الشعر وشجونها، أخذت الألفاظ والقوافي تنهمر عليه حتّى لا يستطيع لها دفعاً أو تأجيلاً.

هذا، كلّهُ، كان معروفاً في عالم الشعر والأدب، أمّا الجفاف النهائي.. وتوديع الحياة الأدبية على مثال ما فعل يحيى حقّي، وذلك دون أن يكون الأديب في حالة من الوهن العقليّ مردّها إلى السنّ أو إلى الاعتلال، أو دون أن يعتزل الكتابة بمحض إرادته عن كسلٍ أو قرفٍ أو نشدانٍ للراحة مع بقائه قادراً على العطاء لو أراد.. بل لأنّه "لم يعدّ عنده ما يعطيه"، فتلك بدعة أطلّت علينا مع يحيى حقّي لا سابقة لها عند غيره، ونرجو أن لا يكون لها من تالٍ في المستقبل. فنحن، بمقدار ما نضنّ بحبيبي حقّي على حياة العزلة والفراغ لأنّنا مؤمنون بصدق موهبته وقيمة إنتاجه، نضنّ بالأدباء الآخرين أن يحذوا حذوه، ونخشى من يومٍ آتٍ نشهد فيه تأسيس "جمعية محاربين قداماء" في ميدان الأدب على غرار جمعية المحاربين القدامى في القوى المسلّحة.. وهو ما لا نتمنى حدوثه بحالٍ من الأحوال.

هدنة على السّاحة الثقافيّة

كُتبت في مجلّة "الصّيّاد" في أيّام الحرب.

اليوم نقدّم لقراءنا الذهب بدلاً من الفضّة^(١).. فماذا يريدون أكثر؟
اليوم نقدّم لهم الصمت، لا لأننا نُؤثّر العافية، ونصون اللّسان في الظروف
العصبيّة، بل لأنّ الحدث الثقافيّ والحدث السياسيّ الخطير، أو العسكريّ، على
علاقة عكسيّة واحدهما بالآخر، يتضاءل الأوّل أو يغيب كلّما اشتدّ الثّاني أو
ازدادت "نشاطاته"...

فالكلمة الآن ليست لليراع، تبعاً للقول المأثور: "عندما تتكلّم البندقيّة يسكت
القلم". فكيف والبندقيّة نفسها بات عليها أن تسكت، وإلاّ ضاع صوتها بين
أصوات "الأسلحة المتطورة" التي صغرت أمامها البندقيّة حتّى صارت بحجم
القلم، طبعاً إذا قيسَ حجمه بالمقياس الماديّ.

نحن اليوم، إذاً، نقدّم للقراء هذا الذي نعتّه الشّاعر بأنّه زين وسلامة^(٢)، فنحدّثهم
عن اللّاشيء، عن الفراغ السائد على السّاحتين الأدبيّة والفنيّة، حيث لا "حشود"
من المحاضرات والندوات، والاحتفالات والمعارض، وحيث لا يشتعل "لهيب"
الشّعْر، ولا "شرر" الريشة والإزميل ولا "نيران" الفكر بوجه عامّ.

اليوم يكتب من يكتب بالقذائف والرصاص، وقد جرت العادة، زمن "المراجل"
الحلوة، أن يكتب مَهرة الرماة أسماءهم بالرصاص على لوحة خشبيّة "يدرزونها

١- القول المأثور: "إذا كان الكلام من فضّة فالسكوت من ذهب".

٢- بيت الشعر القائل: "الصمتُ زينٌ والسكوتُ سلامة".

درزاً" بالتقوب على شكل أحرف الإسم، أمّا الآن فالمعاني الكثيرة والبليلة تُكتب بالقنابل والصواريخ، والمهم أن يكون هناك من يُحسن التقاط هذه "الشيفرة" الفذة ويفقه رموزها ودلالاتها.

ثمّ من قال إنّ أصوات الطلقات النارية والمتفجرات ليست ذات موسيقى خاصّة وسحر فنيّ؟ فكم من الآثار الأدبية استمدّت روعته من وصف المعارك والبطولات!، وكم من اللوحات الخالدة أبدعت في رسم الملاحم الحربية ومشاهد الفروسيّة!، وكم من السمفونيات العالمية كان أجمل مقاطعها تلك التي صورت جلبة المدافع ودوي الانفجارات!

ومعروف، كذلك، أنّ للنار سحرها ونشوتها، كما للكأس.. والجمال وبدائع الفنّ. فالجنديّ، والمقاتل عموماً، يُرهبه جوّ المعركة في البدء، فيجفل ويخاف، ثمّ ينتهي به الأمر إلى الانسجام مع هذا الجوّ حتى لا يستطيع له من بعد فراقاً، وذلك بتأثير "الانتشاء بالنار".

على كلّ.. إذا اكتفت الأحداث المستجدة بإخلاء الساحة الأدبية والفكرية مجرد إخلاء يكن لها على الأدب والفكر فضل ومنة، فهكذا يخرج هذان من المعمة "لا لهما ولا عليهما". إذ إنّ الأحداث السابقة لم تكتف بشلّ النشاطات الثقافية، بل أتلفت خزائن الفكر في البلد أو أفرغتها من محتوياتها، طمعاً، على الأرجح، بكمية الورق التي فيها لأنّ "الإفراغ" جاء على أيدي من لا يمكنهم تجاوز الورق إلى ما خطّ على صفحاته. فشهدنا تخريب مكتبة العلامة سليمان البستاني، ونهب مكتبة الشيخ عبدالله العلايلي بما فيها مخطوطات معجمه الثمين، ودمار مكتبة العلامة الحقوقيّ شكري القرداحي وهي ثروة علمية تتعدّى نطاق القانون بكثير، وإتلاف مكتبة الدكتور خليل الجرّ بما فيها بطاقات قاموسه الفلسفيّ الذي كان يتوفّر علي وضعه، بطلب من جامعة السوربون، منذ العام ١٩٥٣، وبعثرة مكتبة إدوار حنين في كفرشما، وسرقة مكتبة يوسف ابراهيم يزبك في الحدث، ومكتبة قيادة الجيش في النادي العسكريّ المركزيّ، وتعطيل قسم من محفوظات

دار الكتب الوطنية وبيع القسم الآخر، ولا ننسَ تحطيم أو بيع كنوز آثارنا التاريخية التي كان يضمها المتحف الوطني.

وفي أحداث تالية، ليس بعيداً زمنها، خسر الرحابنة مخطوطات أروع مسرحياتهم وأوبراتهم الغنائية الجديدة التي أعدوها للموسم الفني العتيد، وهي تُعتبر ذروة إنتاجهم الشعري والمسرحي والموسيقي على الإطلاق، يومها كتبت "الصياد" الخبر تحت عنوان "حزن الرحابنة".

هذا وإنَّ التاريخ ليشهد على ضياع كنوز فكرية وعلمية لا تُقدَّر بثمن بفعل موجات العنف من حروب وثورات وغزوات، من إحراق مكتبة الإسكندرية إلى إقامة جسر على نهر دجلة من الكتب التي أُلقيت فيه منتزعةً من مكتبات بغداد على يد الفاتح المغولي، حتى نسف جناح من قصر فرساي مؤخرًا يحتوي على أثنى المجموعات الفنية من عهد نابليون.

كلّ ذلك ولم نذكر بعد تدمير الصروح الفنية النادرة، كإحراق قصر التويلري في باريس، وتدمير أوبرا "الأسكالا" في ميلانو بفعل الغارات الجوية في الحرب العالمية الثانية، فضلاً عن عددٍ من الكاندرائيات الرائعة ذات الفن القوطي وغيره.

ومن الخطأ الاعتقاد بأنَّ إصابة معالم الفن في الحروب هو عمل صدفة أو تصرف برابرة متخلفين، أو متعصّبين حاقدين، ذلك لأنَّ من صلب مبادئ العلم العسكري ضرب الصروح العزيزة على قلب الشعب العدو لارتباطها بأمجاده التاريخية وذاكراته، أو بمعتقداته الدينية ومقدّساته. ففي عُرف واضعي هذه القواعد أنَّ إصابة مثل هذه الصروح هي إصابة للشعب نفسه في الصميم، وتحطيم لمعنوياته ولكلِّ ما لديه من عزمٍ ومن إرادة صمود.. عن طريق صدمه صدمات عاطفية قوية لا يتحمّلها، وهكذا تعانق التكتية العسكرية "الراقية"، التي تعمل بعقلية القرن العشرين، أحطّ الموجات الهمجية الغازية التي عرفتها عصور التاريخ الأولى.

من هنا نرى، في بعض الحروب، استهدافاً متعمداً للأنصاب التاريخية، والمتاحف، والمعابد والآثار، ومع ذلك نُحسِنُ الظنَّ، بسذاجة، بـ "الدول الراقية المتمدّنة" .. غير عالمين أنّ هذه الدول رفعت الوحشية البدائية إلى مصافّ التفكير العلميّ الحديث، إلى المستوى الذي يُدعى بفخرٍ ومباهاة: "عقلية العصر".

كيف يمكن، إذاً، للتحضّر الحقيقيّ أن ينتصرَ على هذه القوى الغاشمة، سواء منها تلك التي ما زالت تصدر عن جهالةٍ وتخلفٍ أو الأخرى مستخدمةً العلم في أبعد ما توصّل إليه أسوأ استخدام؟ القلم، قلنا، هو أخو البندقية في التواضع، لا بل أضعف منها بكثير من حيث قوّته المادية، إلّا أنّ فعاليّته ليست مستمدّة من هذه القوّة، ويا طالما كانت القوى الهائلة بحاجةٍ إلى دفعٍ منه، أو إلى نور هدايةٍ يضيء لها السبيل أو إلى رسم عقيدةٍ وهدف. القلم، هذا، هو مضرّم الثورة الفرنسيّة إذ كان في أيدي روسو ومونتسكيو وفولتير، ومضرّم ثورة أوكتوبر الحمراء إذ كان بين أصابع تشيكوف وغوركي ومُشعل كلّ عاصفةٍ ناريةٍ خيريّة.. إلّا إذا أسيءَ استغلالها وحُوّلت عن قصدٍ لاحقاً. القلم هذا سوف يكون، مرّةً أخرى، هو المنتصر، وسيُبدّل الفراغ الموقّت في ساحتنا الثقافيّة بامتلاء دسم، مفرغاً ساحة المدفع والقاعدة الصّاروخية والدّبابة من "دُماها"^(٣) ومعيداً إليها طابعها المفقود، طابع الحقل أو الكرم أو البستان المعطاء، الذي يُنبِت القمح.. والعنب والثمار^(٤).

٣- ألعابها.

٤- هذه المنتجات مكنّى بها هنا عن مولّدات العقل ونتاج القرائح والمواهب.

وأخيراً عرف ألبير أديب الإنصاف

كُتبت في مجلّة "الرّحمة" يوم أقيمت حفلة تكريم لصاحب "الأديب"، ونُشرت أيضاً في جريدة "الحديث".

بادرة العرفان التي بدرت من أدباء الدول العربيّة تجاه ألبير أديب، ولو بعد مديد زمنٍ من الإغضاء والتناسي والإهمال، كانت تعزيةً له وللبقيّة الباقيّة من الأوفياء، لأنّ محنة أصحاب الوفاء أن لا يجدوا في عالمهم غير الجحود، وعذاب قلوب المخلصين هو أن يُضطروا إلى الهتاف كما هتف أمين ناصر الدين: "يا ضيعة الإخلاص".

ألبير أديب، الذي كان منصبه في مديريّة الإذاعة في الماضي وفقاً على خدمة الأدباء والفنانين، ثمّ أصبحت مجلّته، ذلك المنبر الأدبيّ الرفيع، وفقاً على إظهار المواهب الطالعة وتشجيع الناشئين من الكتاب، ألبير أديب هذا لقيَ من بعض الذين أفضلَ عليهم مبادلةً بالمضرة والأذى، "أخذاً بثأرهم منه" لأنّه صنع منهم أدباءً وكتّاباً، ولقيَ من البعض الآخر صدوداً أو إشاحةً عنه بعد أن استتوا على أرجلهم وأصبح بإمكانهم السير بمفردهم دون مساعدة منه.. ودون الاتكاء على عكازيّته.

ويتقدّم العمر بصاحب "الأديب"، ويغدو فقيراً بعد أن هدر ثروته كلّها على مجلّته التي لم يلتفت إليها أحدٌ بدعم، كما يغدو مريضاً وشحيح البصر، فيلقي نفسه وحيداً وقد انفضّ الجميع من حوله إلاّ قلةً ضئيلةً تكادُ تُعدُّ على أصابع اليد، ومع ذلك يمضي في جهاده أعزلَ مجرّداً من السلاح، عُدتّه إيمانٌ لم يحوِّله العقوق والتتكرُّ إلى كفر، وصبرٌ لم يؤلِّ به مصير صاحبه إلى نفاذ، وهكذا

عاشت "الأديب" على هذا الجهد الفرديّ، جهد الفقير المريض الشحيح البصر، وتحدّت الزوال المتربّص بها والذي كان مصير كثيرٍ من المنابر الأدبيّة، عاشت على هذه الصورة بقوة وفاء صاحبها لعمله ورسالته، ووفائه لنفسه ولنهجه في الحياة، هذا الوفاء اليتيم، الوحيد في الدنيا يتلمّس نظيره فلا يجده.

إلى هذا النظر أدعو نفسي وأدعو الأدباء والقراء، لأنّ خبز الوفاء هو وحده الذي يستطيع أن يعيش عليه الناس دون مُسْعِفٍ من غذاءٍ آخر، ولأنّنا كلّنا مهذّون بأن تلقى مصير البير أديب، ونذوق طعم وحدته وعزلته، إن لم نتعاطف ويرفد بعضنا بعضاً بالدعم والمساعدة أو على الأقلّ بالتنشيط المعنوي. إنّ كلاً منّا يحتاج الآخر، ومن لا يسدّ حاجة أخيه لن يلقى من يسدّ له حاجته. فبادرة الوفاء الأخيرة تجاه البير أديب يجب أن تتحوّل إلى بادرة إنصاف، أي إلى حملة لدعم مجلة "الأديب" وتزويدها بوسائل البقاء، لأنّ في غيابها خسارة للأدباء والقراء جميعاً، وفي بقائها مصلحتهم فضلاً عن مصلحة الأدب والفكر بوجهٍ عامّ.

إنّنا، في هذه المناسبة، نوجّه إلى الزميل الكبير تحية الوفاء والإجلال لعمله وجهاده المحفوفين بالإيمان والصبر، كما نوجّه إلى "أديبه" الأغرّ تحية رصيفة له^(١) تأتّم بهديّه وتسير على غراره، وترى في بقائه ضماناً لبقاء المنابر المخلصة.. والأصوات الصّادقة لهجةً وطويّة.

١- مجلة "الرّحمة" التي كان الكاتب رئيس تحريرها.

كان إخلالة أديب واعد

نُشرت في جريدة "الدفاتر اللبنانية".

كالنَّسم مرَّ خليل الأشقر في دنيانا، والأمل الكبير الذي كان معقوداً عليه تبخرَ مع نهاية عمره القصير. إنطفاً قبل أن يبلغَ الثلاثين.. وقد ملأ اسمه الصحف والإذاعات، ومنابر الخطابة والتعليم. كان قلماً مضيئاً.. لو أنَّ الحياة ضنَّت بشبابه وموهبته وما سخت به باكراً على الموت.

قصصه القصيرة، ونفده الأدبي ومقالاته حظيت بالنجاح والتقدير، وقد حفلت بها المجلَّات والصحف اللبنانية.. فضلاً عن أحاديثه الإذاعيَّة. في تدريسه لمادَّة الأدب أخذ بنظريَّة "الأدب العالمي" وطبعها في عقول تلاميذه. وعالميَّة الأدب في عُرفه لا تعني تجاوزه في شهرته وانتشاره حدود بلاده إلى الخارج، بل تحرُّره من الطابع المحلي ليغدو إنسانياً يتجاوب معه النَّاس في جميع الأصقاع.. ويلقى صدًى في كلِّ نفس.

باكورتته في القصَّة الطويلة كانت "لذَّة الحرمان": قصَّة عاطفيَّة تنتهي نهايةً سلبيةً، فيجد العاشق في حرمانه لذَّة تفوق لذَّة بلوغه مشتهاه.

قصَّته الطويلة الثَّانية "أبناء قايين" كانت بداية إنتاج في مستوى الروائع، فلم يتيسَّر لها أن تمثِّل بالطبع لوفاة صاحبها قبل دفعها إلى النشر.

سيناريو للسينما خلفه أيضاً، بطلته "جنين": شخصيَّة غير عاديَّة وإنَّما تعبَّر عن أدقِّ العوامل والأحاسيس التي تعتمل في نفس المرأة عموماً، وتتحرَّك باندفاعات المرأة حين تتجرَّد من كلِّ صفة إلا صفة الأنثى.

خليل الأشقر.. كان إطلالةً أديبٍ واعدٍ لم يتيسر له أن يفِي بوعده في تقديم عطاءاتٍ تُحلُّه المنزلة التي تستحقها مواهبه، وقد كان يطمح إلى تجسيد نظريته في الأدب العالميّ بأثارٍ تتحقّق فيها هذه الصفة.

هجر التعليم إلى الصحافة، ثم هجر كليهما ليتفرّغ للإنتاج الأدبيّ الصّرف، فيكون بذلك أديباً محترفاً لا هاويَ كتابةٍ على هامش مشاغله الأساسيّة؛ إذ كان ينظر إلى الأدب نظرة جدّية يرى معها أنّ الوصول إلى درجة العطاء الأدبيّ الحقيقيّ لا يتمُّ إلاّ بتمرُّسٍ طويلٍ طويلٍ، وحياسة ثقافيّة غنيّةٍ شاملةٍ تحيط بأدابٍ مختلفٍ الشعوب.

وفي أوج هذا الاستعداد الطّموح انطفأ نجمه، فقد عاجله المرض وهو في الثامنة والعشرين من العمر. وسراعاً ما دخل مطاوي النسيان، فلم تُقَم له ذكرى، ولم يهتمّ أحدٌ بنشر مؤلّفاته المخطوطة.

خليل الأشقر.. كان الأسبق في سلسلة أدبائنا الذين غابوا في عمر الشباب وبقيت آثارهم القيّمة دفيئة مطويّة. ومخطوطاته كانت في عهدة أخيه الذي قال لي إنّ الحرب ذهبت بها منذ مطلع الأحداث، فلم تترك لنا هذه البواقي من قلم الأديب الذي كنّا ننتظر منه الكثير.

رسالة إلى الدكتور جورج كلاس

نُشرت في جريدة "النهار".

لأوّل مرّة، عقب قراءتي لمقال، أراني مدفوعاً إلى الكتابة لصاحبه إكمالاً لمعلومات وردت فيه. فقد اهتممت بما طالعتك لك في "النهار" بتاريخ ١٩٨٧/١٠/٢٣ عن المرحوم كلود نوري مراش، لأن هذا الإنسان رأيته مرّة في حياتي ولم أعد أسمع عنه شيئاً من بعد، حتّى كان مقالك حاملاً نبأ وفاته وملقياً ضوءاً على جوانب حياته وعمله.

ناحية أغفلتها في مقالك أثارت استغرابي بالنظر لعلاقتك الوثيقة بهذا الشخص كما تذكر والعمل المعجمي المشترك الذي قمتما به. فكلود مراش حافظ الآثار الأدبية لأفراد عائلته ومحبي ذكرهم (كتاب "غابة الحق" لفرنسيس المراش ومقاله عنه في مجلّة "الكلمة" - ديوان "نفحة الورد" لمريانا المراش)، وكلود مراش المسؤول الإعلاني في "النهار" و"تمام" و"ميديا برس" والمجلّة الإعلانية "آراب آد"، وأحد واضعي "قاموس مصطلحات الإعلان" بالاشتراك معك، تظهر نواحي شخصيته هذه من خلال مقالك، ولكنّ الناحية التي لا تظهر منه هي كونه شاعراً بالفرنسية وصاحب مجموعة شعرية: "وجوه النسيان"، أو "وجوه من النسيان" "Visages de l'Oubli" .. التي صدرت عام ١٩٥٥.

وبما أنّ وجه الشّاعر يجب أن يكون غالباً على وجه الوثائقيّ والعامل في حقل الإعلان، فقد عجبْتُ من عدم الإشارة إلى ذلك في المقال من جانب زميل له عرفه حق المعرفة وعاشه وعمل معه سحابة خمس سنوات.

أمّا معرفتي أنا بكلود مراش الشّاعر فتعود إلى المرّة الوحيدة التي رأيته فيها وحصلت منه على ديوانه، وكان ذلك في معهد عينطورة خلال احتفال بيوم

الخريجين السنوي، حيث طاف على الخريجين المجتمعين في جمعية عمومية شابّ وسيم، تشوب ملاحه وجهه "آكلة" نامية عند أنفه، عارضاً عليهم شراء كتاب يحمل نسخاً منه بين يديه. ولما وصل إليّ سائلاً هل أريد شراء الكتاب سألته بعفوية: "لمن هو؟"، فأجابني باعتداد ظاهر: "إنه لي". واشتريت منه الكتاب أسوةً بزملائي الخريجين، فإذا هو مجموعة شعرية بالفرنسية قرأتها بشعور من اكتشاف شاعرٍ جديداً، وقد كتب مقدّمها فيليب ماس الذي ذيل توقيعه بعبارة "رئيس معرض الشعراء"، وزانها بالرسوم أ. رمبو وجوزف تردجان.

وصرتُ، في ما بعد، أنتظر مزيداً من إنتاج هذا الشاعر، ولكنني لم أره في الاحتفالات اللاحقة للخريجين في معهد عينطورة، ولم أعد أسمع عنه أو أقرأ له شيئاً. إلا أنني ما زلتُ أحتفظ بكتابه الشعريّ المذكور، الذي يحتلّ مكاناً في مكتبتي بين دواوين الشعراء اللبنانيين باللغة الفرنسية. وأسمح لنفسي بترجمة مقطوعات من هذا الديوان إلى العربية أرفقها بكلمتي هذه:

على الرَّمْل

سَطَرْتُ اسْمَكَ على الرَّمْل، وكتبته على الرِّيح،
وغالباً ما شبكتُ إسمين، لجعلهما غير منفصلين.

لقد رَدَدْتُ اسْمَكَ المشتَهى، وصحتُ به في وجه السيل الجارف،
وعقدتُ ما بين إسمين في الزمن ليرتعا مَعاً عاصيين على النسيان.

ولكن عندما هبَّ الإعصار امحى إسمانا البائسان على الرمل،
فامتزج اسمك بدمي، ولكن آلامه لا ينفع فيها عزاء،
لأنّه مكتوب على الرَّمْل.

الأدراج العتيقة

في أدراج الماضي العتيقة ابحث، عبر ذاكرتي،
عن ذكريات قديمة محاها الزمن،
فهجعت مصفرة في كتاب الطلاس المودع لديّ.

في هذه النفث من الذكريات
أحلم بالطريق البعيدة،
وأحاول عبثاً أن أعود إلى الزمن الذي يقودني إليه النسيان.

أقلب الأوراق الشاحبة
كما تُخلط أوراق اللعب.
إنّه عالم دفين
تتغيّر ملامحه تحت أصابعي.

ها هو الحاضر يعود،
فيدخل مسربلاً بفرح العيش.
فيا أيّتها الوجوه الفاتنة
غلغلي سريعاً في الكتاب الكبير.

فوزي عطوي الشّاعر

أدرجت، في قسمٍ منها، على غلاف ديوان الشّاعر: "تحت الرماد"، ثم نُشرت كاملةً في مجلّة "أصداء"، السنة السابعة - العدد الحادي عشر، ١٢ شباط ١٩٧٢، ونشرها شقيقه الدكتور رفيق عطوي في كتابه: "فوزي عطوي في مرآة الشّعر والنقد الأدبي".

ما عرفنا شاعرًا أبقي للتجويد الفنّي حرمة في ما يخطّ ولم يتهيّب مع ذلك لدى عطاء مثل فوزي عطوي.

هذا كاتب يأتي القلم من فوق ويستعلي عليه، فإذا هو بين أنامله صاغر مطواع. أقبل على الشّعر، فدانت له الروائع من عبير "دم" وحلاوة "قم"^(١)، وعالج النثر، فسمّا به أدبًا وصحافةً وخطابةً، وأضاف القانون إلى كليهما يسدّد به التفكير في منطق كالمنطق الرياضي وظلّ في النتيجة ذاك الشّاعر.

شاعر يحيل الورقة قصيدةً وهو يسكب القصيدة فيها، ويحيل الأثير شعرًا وهو يرسل الشّعر على جناحه.

وشاعر له من سموّ نفسه شعر، ومن رفعة خلقه شعر، وممّا ضمّ في صدره وبين جوانحه شعر وأيّ شعر.

إنّه صاحب براعةٍ كبرت على النموّ التدريجيّ متحديةً ناموس الحياة. لم يولد صاحبها ناشئًا يحبو إلى أن يستوي عوده، بل كان أخا نضج منذ البداية.

بلاغته السّاحرة تدفقت من على أعلى المنابر على لسان سواه، أمّا الشّعر فأرقص به "شموع المعابد"، وعلى نبراته غلى "دم الثّوار" في عروقهم، و"بُحّت

القوافي" ولم تُبحّ الحنجرة الذهبية التي نطقتَ بها.. واستراحت سفائن وحيه في "مرافئ الأهداب"^(١).

وهو، في شعره، خير من يفند الاتهام بأنّ التشدد في المحافظة على الأصالة العربية في التعبير الشعريّ يجعل الشعر وعراً مقعراً لا عذوبة ولا نداوة فيه، لأنّ شعره منحوت من أصفى مقلع عربيّ لم يمازجه غريب مستورد، ومع ذلك فهو يتحدّى الشعر المتأثر بالآداب الغربية تحت شعار التجديد برقته وعذوبته وسلاسته، مستقيداً في الوقت ذاته ممّا توفّره العربية من أساليب بيانية تبلغ حدّ الروعة عند من يعرف استخدامها ويبرع فيه كشاعرنا.

وفوزي عطوي تلميذ نفسه في صياغة الشعر غير مؤتمّ في ذلك بأحد، بل سيكون هو رائداً وإماماً لأجيالٍ تقتفي أثره وترفعه مشعّالاً هادياً لها في الشعر إذا تحرّرت مواكب شعرائنا في المستقبل من التعبّد لأدب الغرب والتتلذذ على مدارسه الرومانسية والبرناسية والرمزية والسوريالية بكل شعور بالدونية تجاهها.

فعسى على يده نتطلّع إلى شعر الغير بنظر غير هيّاب.

بيار نجم: شاعرٌ لا ينتسبُ إلا إلى نفسه

أُلقيت في ذكرى راحلين من خريجي معهد الرسل الأدباء - قاعة محاضرات المعهد -
جونييه.

شاعراً كان على السجّية، لا يعرف المذاهب الشعريّة والمدارس.. رغم عدم
تخلّيه عن البلاغة العربيّة. لم ينتظم في سلكٍ معيّن من الشعراء، ولم ينتسب إلاّ
إلى نفسه.

نظم الشعر كما يأتيه.. ببراءة ونقاء، وكان قميناً بأن يتطوّر نحو الإجازة لو
أُفسح له في العمر.

ومن مزاياه كشاعر أنه كان سريع الإنتاج غزيره، تستقيم له القصيدة بسهولة
ويُسّر، وخلال الوقت الذي تستغرقه كتابة رسالة أو تدوين رؤوس أقلام.
ترك مجموعةً شعريّةً مخطوطةً تتضح بالموهبة التي لا شكّ فيها، إلاّ أنّ الباقيَ
منها، على كثرته، يشكّل نزرًا ممّا خطّ وحبرّ، لأنّ ظروفًا مأسويّةً ألمّت ببيتته
كان ضحيّتها البيت والشعر الذي فيه على السواء.

ما زلت أذكره عندما راح يوماً، ونحن في نزهة معاً، يقرأ عليّ من شعره
مقاطع قصيرة وأنا أستزيده، حتّى كدت أن آتي على المجموعة بكاملها سماعاً
وإصغاءً. وكم تمنّيت في ما بعد لو سألته تزويدي بنسخة منها أودعها لديّ
أمانة، إذًا لكانت هذه المجموعة قد سلّمت بكاملها على الضيّاع، ولكانت لبيار
نجم مكانته المستحقّة بين الشعراء الذين نحبّهم.

ولكن، على الرّغم ممّا لحق شعره، ينبغي ألاّ يغيب اسمه عن لائحة شعراء
الخمسينات ومطلع الستّينات. فهو كان منصرفاً إلى الحقل الأدبيّ دون سواه
تدريساً واحترافاً، تخصّص في الأدب العربيّ ونال فيه الإجازة الجامعيّة.

وإذ كان غائصاً في هذا المجال إذا بصباح يومٍ مشؤومٍ يحمل معه سقوطه أرضاً
فاقدًا وعيه، وما طال وقت على ذلك حتى فارق الحياة.
في نفسيته كان حملاً وديعاً، حياً إلى درجة الخفر، تقطر العذوبة من روحه
وتشعّ الطهارة في عينيه. وشعره كان في مثل هذا الصفاء، هذا الشعر الذي
أما صاحبُه ثانيةً بفقدان معظمه فكندا نخسر لمعةً من اللّمعات التي أضاعت
وسرعان ما انطفأت قبل أن يتسنّى لها اللّحاق بالشهب التي أضاعت بوهجها
سماء لبنان.

من شعر بيار نجم:

تساؤلات

أَيَّ نَنْبٍ جَنَى النَّدَى فِي الرُّوَابِي إِنْ أَحَبَّ الْأَعْشَابَ وَالْأَزْهَارُ؟
أَيَّ نَنْبٍ جَنَى الْهَزَارُ الْمَغْنِي إِنْ تَكُنْ أَعْوَتْ الْغُصُونُ الْهَزَارُ؟
أَيَّلَامُ اللَّيْلِ الْبَهِيمُ إِذَا مَا قَبْلَ اللَّيْلِ فِي السَّمَاءِ الْأَقْمَارُ؟
أَيَّلَامُ الْجَنَاحِ وَالْأَفْقُ رَحْبُ إِنْ يَكُنْ حَلَّقَ الْجَنَاحُ وَطَارُ؟
أَيَّلَامُ الْعَطْرِ النَّدِي إِذَا مَا تَرَكَ الزَّهْرُ فِي الْحَقُولِ وَدَارُ؟

سراب في سراب

يَا شَبَابَ الْوَهْمِ، يَا وَهْمَ الشَّبَابِ، كَمْ خِيَالٍ فِيكَ لِي لَا يَنْجَلِي!
لَا نَرَاهُ، هَلْ تَلَاشِي كَالسَّحَابِ وَهُوَ يَجْرِي فِي مِيَاهِ الْجَدُولِ؟!
أَنْتَ مَاضٍ مِنْ غِيَابٍ لِإِيَابِ فِي زَمَانٍ مُدْبِرٍ أَوْ مُقْبِلِ
أَنْتَ مَا أَنْتَ؟ سَرَابٌ فِي سَرَابِ مَلَتْ عَنِّي فِي الْهَوَى أَوْ كُنْتُ لِي

آمنتُ بالحبِّ

أشاركُ الصَّحْبَ في الأفراحِ مغتبطاً فَمَنْ يشاركني منهم بأحزاني؟
 ولا أُمِرُّ بدارٍ في الحمى ارتفعتُ إلّا وأذكر قبل الساكنِ الباني
 سيَّانٍ يَعْلَمُ غيري أم هم جهلوا فالعطر ينبثُ لم تُبصره عينانِ
 آمنتُ بالحبِّ في الوجدانِ مشتعلًا وبعد ربِّي إيماني بوجداني

على رسمٍ له

رسمي الذي يحيا على لوحةٍ يحملهُ الوهمُ إلى الناظرينِ
 لا تلمسيه فله حرمةٌ أكثرَ مني بعد مرِّ السنينِ
 في عالمٍ أوَّلُهُ آخِرٌ سأمَّحي فيه كما تمَّحِينِ
 ويُذهبُ النورَ مجيءُ الدُّجى ويثبُتُ الوهمُ ويمضي اليقينِ

الغلبة على الموت

نُشرت في مجلّة "الصيّاد".

كرّم لبنان والعالم ميخائيل نعيمة، وهي البادرة الثّانية في تكريم الأدباء والشّعراء في حياتهم.. بعد تكريم الأخطل الصغير ومبايعته "امارة الشعر".
وتكريم الأديب في حياته يعني إنصافه وجعله يشعر بهذا الإنصاف. فهناك أدباء من عندنا طواهم الثرى دون أن ينالوا تقديرًا في عهدهم، وهم يجهلون اليوم أيّة مكانة يحتلّون في أدب بلادهم بعد أن توجّهت إليهم الأنظار متأخرة في مثل استدراكٍ للخطأ والاعتذار عن إجحاف.

فهل نمضي، ما زلنا قد بدأنا نسير على نهج مشكور، في هذه الطريق الخيرة ونكمل سلسلة تكريم المستحقين من أعلامنا الكبار؟

وقبل أن يسأل سائل: "هل هم موجودون هؤلاء الكبار اليوم.. أم أنّ السباق ما بين الموت وتكريم الأديب يسجل دائماً الغلبة للموت؟ نسارع إلى القول بأنّهم لم يتواروا كلّهم، وأنّه ما زال بالإمكان إنقاذ ماء الوجه مع البقية الباقية منهم.

فالشاعر الكبير بولس سلامة، القابع منسياً في منطقة الخطر من ضاحية المدينة.. يستقبل الشيخوخة بالأوصاب التي لم تبارحه منذ سنين، والذي له على كلّ حق من حقول الأدب والفكر منّة وفضل: على الشعر له، وعلى النثر المرفه، وعلى الفلسفة في ما كتبه عن الجدليّة والوجوديّة، وعلى تراثنا الشعبيّ في "أحاديث القرية"، وعلى الفكر الدينيّ في كتابه "مع المسيح"، وعلى النكتة العالية وهو سيّدها، وعلى القانون، والقضاء من مؤسّساته بنوع خاص، بولس

سلامة هذا.. عندما سيغيب، بعد عمر طويل، سيضجّ لبنان ودنيا العرب بالخسارة الفادحة، وستقام له حفلات الذكرى في كلّ مكان. افليس الأجدر بنا، إذًا، أن نكرّمه اليوم وهو الشّاعر.. والأديب والموسوعيّ؟ إنّ صاحب "عيد الغدير" و"عيد الرياض" ومطوّلّة "ألم" الرائعة، التي تصلح مثالاً للشّعريّ الصادق.. وليد التجربة والمعاناة، يستحقّ أن يكرّمه وطنه والمعجبون به في داخل هذا الوطن وخارجه. فهل سنتنادى إلى تكريم هذا الشّاعر قبل أن نلتفت فلا نراه.. أم نظلّ غافلين وملاك الموت لا يغفل؟

وكيف نشكر السماء على أنّها لم تختطف مناّ بعد توفيق الحكيم، الأديب العالميّ بحقّ، والمترجمة كتبه إلى جميع اللّغات الحيّة، والذي جرى تداول اسمه في الترشيح لجائزة "نوبل" لو أنّ هذه الجائزة تلتفت نحو الشرق، صاحب "عودة الروح" و"بيجماليون" و"عصفور من الشرق" هذا ما زال يحترف الكتابة الصحفيّة في مصر بعد أن غدا الوحيد الباقي من رعيّله، وفي هذه العطية المستمرة لنا بشخص توفيق الحكيم ما هو قمين بأن يدفعنا إلى تكريمه تكريم الضنين به، والمتشبّث ببقائه والخائف عليه من اللّحاق بالأسماء الأسطوريّة السّاحرة، تلك التي لا نصدّق أنّها عاشت في عالمنا، وأنّه جاء وقت كنا نستطيع فيه أن نلمس أصحابها ونحدثهم.. ونراهم وجهًا لوجه.

ولقد كنا على وشك أن نكرّم أمين نخلة عندما حالت الأحداث، التي توافقت نشوبها مع موعد التكريم، دون إقامة الحفلة المقرّرة. ثمّ مات أمين نخلة في تلك السنة عينها ونحن مرتاحو الضمير إلى أنّ "النّية" لم تنقصنا في تكريمه وأنّ "الحقّ" على الأحداث وحدها التي حالت دون ذلك، فالأحداث أيضًا يمكنها أن تلعب دور "الطلّيان".

وقبله مات يوسف غصوب وفؤاد حبيش.. دون أن ينالا تكريمًا إلا بعد الوفاة. ثم لحق بهما هكتور خلاط وشكر الله الجرّ وراجي الراعي في لبنان، وخير الدين الزركلي في سوريا، وأحمد الصّافي النجفي في العراق، وعزيز أباظة في مصر، وشفيق المعلوف والياس فرحات و"الشاعر المدني" في المهجر، وقد كان لدينا متسع من الوقت لتكريمهم قبل براهم فلم نفعل، ولم نفعل بعد البراح. فهلاً "استلحقنا" وجود أمثال بدويّ الجبل وعمر أبو ريشة ونزار قبّاني وسعيد عقل وعبدالله العلايلي ومحمّد مهدي الجواهري بيننا حتّى الآن.. لنكرّم في أشخاصهم كلّ غائبٍ وحاضرٍ من أعلام أدبنا وشعرنا في هذا العصر؟

أيلول والشموس الغاربة

نُشرت في مجلة "الجندي اللبناني" - أيلول ١٩٧٩.

ليست من الصفات المحببة لأيلول أن نقول عنه إنه شهر غياب الأعلام. فكم من مفخرة أدبية لبنانية لقيت نهايتها في خلاله، وكم من قلم توقف جريه على الطرس.

بدءاً من نسيب وهيبة الخازن صاحب "الأصول التاريخية" والمتعمق في تاريخ لبنان حتى ليُصنّف بين أبرع المنقّبين عن الكنوز في باطن تراثنا الغني، مروراً بأمين الريحاني الذي جعل من قريته "الفريكة" محجّة للفكر العالمي يخشع في رحابها متهيباً، وبفؤاد حدّاد الذي لمع لمعة خاطفة وتوارى.. إلّا أن وهج العبقرية بدا جلياً خلال إضاءته السريعة الوقادة، ثمّ بأحمد فارس الشدياق، تلك الهامة الجبّارة في عصر نهضتنا الحديثة.. التي ما زالت حتى اليوم تترّبع في منزلتها السامية لم يزرحها عنها تعاقب الأسماء، وانتهاءً بكرم ملحم كرم الذي كانت خاتمة أيلول ١٩٥٩ خاتمة لحياته الخصبة المعطاء، عبر هذه السلسلة الطويلة تنتظم حلقات ذهبية صافية المعدن الأدبي والفكري، حلقات نورخ تأريخاً ناقصاً لأدبنا المعاصر إن لم نذكرها في الطليعة بين الأعلام الذين برزوا في حقّبه.

نسيب وهيبة الخازن عرف، بين مؤرّخيننا، أن يغوص على المخبأ من دُرر لبنان المكنونة فيجلوها ويبرزها، فإذا بحوثه التاريخية مراجع في بابها يستفيد منها غيره من المؤرّخين، ويُحيلون إليها ويُعرّزون بشواهد منها كتاباتهم وأعمالهم.

وأمين الريحاني، العالمي الشهرة والمقتنّد في أدب اللغة الإنكليزية الحديث مكانةً توازي المكانة التي اقتطعها في هذا الأدب صنوه جبران، أمين الريحاني هذا، السائح في الغرب الأوروبي والأميركي، وفي جزيرة العرب والعراق والمغرب الأقصى، لم يبعد وطنه لبنان عن دائرة اهتمامه، فأعطى "قلب لبنان" وكأنه قطعة من قلبه، وكان لبنان في نظره دائماً "أجمل بقعة في العالم" على كثرة ما شاهدت عيناه من بقاع.

و"أبو الحنّ" فؤاد حدّاد، تلك الريشة العصبية التي عرفت أن تعقلنّ النزق وتضفي على التطرّف منطقاً وسداداً من الرأي، والذي كان كاتب قصة ومقالة ومنذوقاً رهيف الحسّ للفنّ، فارتفع بذلك كلّ إلى مرتبة لا تتناسب مع السحابة القصيرة جداً من العمر التي قضاها على هذه الأرض.

إلى هنا وينتصب أمامنا "الساق على الساق في ما هو الفاريق": أثرٌ بدع في مطلع عصر النهضة التي كان مسيطراً فيها أدب اللفظ والمحسنات الخارجية، فإذا بهذا العطاء المفرد يشذّ عن كلّ قاعدة في زمنه ويكاد يعانق آثاراً خارقة في الأدب العربي هي أيضاً كانت ظاهرات استثنائية في عصرها، وإذا أحمد فارس الشدياق علم النهضة الذي لا يُجارى، ولا يدانيه إلاّ اليازجيان لغةً وبلاغة قول.

وكرم ملح كرم أخيراً.. مُدخل القصة والرواية، بعد جرجي زيدان، إلى أدب العرب الخالي من هذين اللونين، والذي لا يعيبه أنه لم يكن خلافاً إجمالاً لاعتماده التاريخ والحادثة الواقعية مصدر وحي له، فالقصص والروايات، في العالم كلّ، منها التاريخي، ومنها الواقعي المحلي بشيء من التصرّف والخيال. إلاّ أنّ كرمًا يعوّض عن الخلق بدىاجة في أسلوبه قلّ أن ارتقت إلى مثلها غير أقلام "المعلمين" في صناعة الإنشاء العربي، وهذا الترف البياني ليس بالقليل في عهدنا هذا الذي أسفّت فيه اللراعات إلى ما دون الركافة وغدا هناك "تكعيبة" في الأدب تعادل ما في الرسم وأكثر، وسقياً لعهد كرم وأضرابه ممّن كانت

تدور كلماتهم على الألسن وكأنّها قِطْع السكر أو مزيّز الشراب، وتبّاً لأيلول..
خاطف البنانات المرطّبة بالمداد المعطّر.

ديفا وآدون

تعليق على كتاب "جزر الخطيئة" للشاعر شكر الله الجرّ، نُشر في مجلّة "الرحمة".

شكر الله الجرّ.. شاعر المغتربين بين المقيمين وشاعر المقيمين بين المغتربين، ورسول لبنان إلى نفسه وإلى العالم في كلّ حال، هذا الشاعر لا يزال يطلع علينا بعد عودته إلى الوطن بثمار يراعتة الشّابة في دنيا الاغتراب، فكأن محصول الهجرة عنده لا ينضب بل هو زادٌ يُطعمنا منه أبد الدهر.

آخر ما أتحنّا به الشاعر المهجريّ الكبير هو قصّته الملهمة "جزر الخطيئة"، التي يُحيي فيها ذكرى حبٍّ مرّ في حياته، كما يقول، منذ ست وثلاثين سنة، وقد خلّده بقلمه في هذه القصّة التي هي آية في الأدب العفويّ الصادق الحارّ، الذي يحلّ فيه الإيحاء الطّاغي والجوّ الأسر محلّ النعمة والوشي والتّتميق.

هذا إلى كون شكر الله الجرّ معلّم صياغة في النثر ساعة يشاء، لا يحتاج شهادة على أنّه، وهو الشاعر المعنّي الذروة، لا يقلّ أدبياً عنه شاعرًا. هذا بالقياس إلى نفسه، أمّا بالقياس إلى غيره فلدينا الحجّة على أنّ الجرّ جوهريّ من النخبة ساعة رصف الغوالي أو الترصيع بالكلمات، لا يجاريه في ذلك إلاّ أمراء النثر في عصرنا وهم قلة يعرفهم القارئ ويعدّهم على أصابعه.

ولكنّه، في قصّته "جزر الخطيئة"، أثر أن يظلّ على طبعيّته، فيُتحنّا بالأدب الذي ينبض بخوالج صاحبه في الحادثة التي يرويها ويرتّش بأحاسيسه فيها بدلاً من الزخرف وتعمّد الإتيان بالبيان، فإذا نحن نرافق بطل القصّة في المواقف والمشاهد وكأنّنا نحضر الواقعة بأنفسنا ولا نقرأها قصّة في كتاب.

"جزر الخطيئة".. حبٌّ بُعث حيّاً بفضل قلم شكر الله الجرّ الذي أعاد هذا الماضي الغابر إلى مسرح الوجود، فلم يسرد خبره سرداً أو يكتب سيرته.. بل سلّخه من

إطاره الزمنيّ وجاء به إلى حاضرنا يتمثّل أماننا من جديد عبر الكتاب الذي يرويّه فترتسم فيه أجواء القصّة وكأنّها واقع حيّ لا مجرد حروف سوداء على صفحات بيضاء.

أسلوب يخلع السّحر على كلّ ما يقول

في ندوة حول باكورة جوزف أبي ضاهر "حكايات لها"، مجلس كسروان الثقافيّ - جونبة.
نُشرت في مجلّة "الإرشاد الاجتماعيّ" وفي جريدة "الحديث".

ما حرتُ يوماً في ما أكتب عن كتاب مثل حيرتي في هذه "الحكايات"، إنّها من النّوع الذي يُقال فيه: "جميل" ولا يُزاد.

أنت منه على أضاميم وردٍ منسّقة، كيفما جلت خلاله ترى أثر العناية لم يُفسدْ عذوبة البساطة، فتحقّق فيه أروع عناق بين الطبيعة والفنّ.

وهو، بعد، آخذ بأسلوبٍ يخلع السّحر على كلّ ما يقول، حتّى ولو قال اللّاشيء؛ فمن النّافل معه الغوص على المضمون، وتقييمه من خلال الفكرة التي يحمل، مع معرفتي بأنّه، في هذا المجال أيضاً، يستطيع أن يدافع عن نفسه غير هيّاب. فالعنصر الإنسانيّ نابضٌ فيه، تكفي إشارته إلى عاهرة القصر التي تظّل السيّدة المطاعة، لها احترامها وحياتها الحرّة وقد وفّرتها ألسنة النّاس، أمّا العاهرة في نظر هؤلاء فهي التي باعت شرفها لتعيش.

والثّورة على التقاليد البالية تحيل الضوء والزّهر والطيب مرارةً وسخرًا.. حيال الأميرة الشّرقية المخطوفة ليلة عرسها، وقد لُفّت برداء لونه كلون ذمّة المرابين، حاملة كلّ ما في الشّرق من تقاليد "عقد فضيلة في جديها"، وفي القصر الذي انتصب عرشه على سريرٍ من الرغبات قامروا بقلبيها، واغتصب جسدها آخر رجلٍ بقي لديه زنارٌ من فضّة.. وخواتم من ذهب. حتّى إذا استرجل شقيقها ووُلدت في صدره شهامة الثّار لم يستأسد إلّا عليها، فغسل عار الجاني بدماء الضحية.

كذلك نرى الكاتب يسجل بعضاً من حقائق الحياة في وجهها الشَّجِن الباكي، ولقد كان يعييه البحث لو نشد وجهها الباسم. فهو يعكس صورة المرأة المتزوجة من خيال رجلٍ ولا رجل، والتي تشتم الساعة التي باركهما فيها راهبٌ عجوز بلحنٍ جنائزيٍّ وصوتٍ كعويلٍ الثعالب. أمّا الزوج فقد راح يتلمّس حبال الهواء في لجوئه إلى عرّافة البلدة علّه يجد عندها إخصاب صحرائه، فكان من أثر الحجاب الذي صنعت له أن أنبتَ ولكن ما ينبت في أرض الصحراء، وهل فيها غير الشوك، والعوسج والوزال؟

وإنّا لنمرّ، في هذه "الحكايات"، على لقطات كثيرة، فنسمع شكوى تلك الفتاة التي تعاني من تشدّد أمّها عليها: "كأنّ أمّي لم تكن في مثل عمري. كأنّها ما خالفت وصيّة أمّها، وكأنّها...". وهنا "تحشم" الابنة والدتها فتقطع عبارتها بقولها: "لست أدري".

جوزف أبي ضاهر، عندما قدّم لي كتابه هذا، بدا كمن يحمل بيده هديّة صغيرة، صغيرة جدّاً، ولكنك حين تفتح علبتها تجدها حبة ماس، أو دורך عطر. وإذا كان هناك من يهب الملايين معتذراً فجوزف لن يعتذر عن صغر هديّته، لأنّه واثقٌ من قيمتها، من أنّها أثمن من الملايين.

في تكريم جورج أبو سعدى

جورج أبو سعدى الأديب، والشاعر، والمعلم، كرمه أدباء كسروان في احتفال بمنزله لمناسبة صدور ديوانه الشعري "هدير البراعم"، وكانت هذه الكلمة باسم المكرمين.

متقادم في الزمن عهدنا وإياه. صداقة آباء وأحوال انتقلت إلى البنين، أما الصلة الأوثق فكانت صلة القلم.

خلال سني الدراسة المشتركة بدت ملامح مستقبل أدبي لهذا الثنائي، وبعدها كانت مجلة ثقافية في عهدة أحدهما^(١) ومساهمة متواصلة وقيمة فيها من جانب الآخر، تارة باسمه الصريح، وطورا بتوقيع ذي دلالة على نفسيّة صاحبه: "الثائر بن الشهيد".

جورج أبو سعدى ثروة أدبية أضعتها، والخاسر كنا نحن وعالم الأدب لا هو بالذات. كتبه، وأنا أدري بما فيها، تضيف إلى كنوزنا الفكرية رصيذا قل أن نجده عند سواه. فهو من معدن ندر اليوم لابتعاد الأقلام الحاضرة عن لونه واتجاهاته، ولكنه يحتفظ بقيمته كاملة لأنه ليس من النوع الظرفي الذي يكتسب أهميته من أحوال آنية وتيارات سائدة تتلاشى هذه الأهمية بزوالها، وإنما هو مما يمكث في الأرض حين الزبد يذهب جفاء، ككل عريق أصيل تمرّ عليه الموجات العابرة والبدع والصرعات وتولّي سراعا ليظلّ هو صامدا ويعود إلى ألقه وسنائه بعد انحسار هذه الموجات.

هذا الجالس اليوم على قمة عطائه الذي ما زال في أكثره أمانة في ذمته لم يطلع بها على الناس، شهادة جديدة على قسوة المادة على الفكر؛ هذا الذي يتوج حياته الأدبية طريحا في فراش بدلاً من التربع على أريكة مجد؛

ما أجدنا الآن بأن تتألف منّا لجنة أمناء تكون حفيظة على تراثه ومؤتمنة على وديعته.. لتظهر هذه الوديعة إلى النور عندما تسمح الأيام ويوجد الزمان.

يوم كان لي أن أكتب مقدّمة لباكورة ابنته الواعدة قلت فيها وفيه: "جمايا أبو سعدى.. لو كان ليد أن تعنصر كيان والدها الأديب لما استقطرت منه غير لمع تتراعى إلى بعيد، وسواحر كلم تأتي هكذا أراد صاحبها أم لم يُردّ." "ويقال بعد أن لا تأثير للورثة؟، ومن أين عساها ابنة الثانية عشرة تستمدّ موهبتها إن لم تكن قد جاءت مع الدم والعصب والشرابين؟".

أجل، لقد كان جورج أبو سعدى خلّاقاً مرتّين: مرّة ببنات قلمه، ومرّة بسيّدة قلم في البنات هي تتمّته الطبيعيّة ويراعته مستمرّة في العطاء بعد أن تكفّ أصابعه عن المرور على قرطاس.

هذا الموعد الأخير نرجوه بعيداً بعيداً، فأملنا الذي نرعه في صميمنا أن تظلّ يد جورج أبي سعدى جاريةً على الصحائف وصوته مُرنّاً في الآذان.. ما دمنا نحن إلى الكلمة الصافية في خضمّ العكر الكلامي الذي يصدّم عيوننا ويخدش أسماعنا في أيّامنا هذه وليس لنا إلى ردّه عنّا من سبيل.

الجزء الثالث
وجدانيات وجولات أفق

رسالة إلى أمين زيدان

لم تُنشر سابقاً.

بساطٌ مُدٌّ في يومٍ من الأيام وددتُ لو أفتعدُ منه زاوية، فإذا هو يُفسح لي في صدر القاعة التي افترشها، فازدانت به وما كانت من قبلُ مزدانةً إلاّ بقلةٍ ممّا تتباهى باحتوائه بيوت العلم والفكر والتراث.

تلك القاعة هي معهد الرسل، وقد شبّهتكَ بالبساط لأنّ فيكَ ما فيه امتداداً وسع الرحاب الفسيحة التي يغطّي أرجاءها، فلا هي تضيق، ولا هو يقصُر عن أن يكسوها بما تُكسى به الأبهاء.

أجل، حلية بيوت العلم هم مفيضو المعرفة فيها والمتلقّون عنهم، بقدر ما يُبدع أولئك ويتألّق نجاحاً هؤلاء يصير للمعهد إسم وصيت.

وقد قدّر لهذا المعهد، في زمنٍ سعيد، أن يدلفَ إليه طالبٌ لإنجاز السنة النهائية من دراسته، فبدا منذ دخوله، بين الرفاق، لا كواحد منهم. ذلك أنّ في شخصيته وحديثه، وما كان يلوح وراءهما من رصيد، تجلّى كلُّ التميّز حتّى بالنسبة إلى النخبة من الأساتذة التي كان يضمّها المعهد حينذاك.

وما كان لدالفٍ إلى ذاك الصّرح، بعد ذلك، إلاّ أن يمرّ على البساط. فأنت تستطيع، إذ تتجوّل في أنحاء الدّار، ألاّ تمسّ هذا أو ذاك من محتوياتها، أمّا البساط فما من نقلةٍ إلاّ تخطر بها عليه، فإذا هو يحتضن ويحتضن، لا ينكمش عن قادمٍ.. ولا الوافدون يتضاءلون عدداً.

إشعاعك، وأنت ذاك الطالب، فاضّ منذ وطأت العتبة بحيث لا يمكن أن ينحبس له سطوع. كنّا في محضرك كالمُتخلّقين حول هادٍ من الهداة. والتميّز كان في

المعدن الفطريّ وفي الاكتناز، في الطينة التي قُدَّت منها شخصيتك، وفي الثروة المحصّلة التي يَغْنى بها الإنسان.

أما بالنسبة إليّ فمِنذ لقائنا الأوّل شعرنا سويّةً بأنّه ينطبق علينا القول المأثور: "الأرواح جنودٌ مجنّدة، ما تعارف منها ائتلف". فقد توحّدنا قلبًا وروحًا وذائقةً، وما يجمعه الجاذب الروحيّ لا تفرّقه النوازع الترابيّة. وعلى هذا سرنا سحابة حياتنا: روحًا واحدةً في جسدين. أفليست غلطة شاطرٍ إذاً، من تلك التي بألف، أن تقولَ لوحيدك الغائب الحاضر^(١)، وهو ثالثنا أبدًا كلّما جرت بيننا ثنائيّة اجتماع: "إنّ عمّو جان أجرى قلمه في ما خطّطتُ لك حتّى تزواج القلمان؟". فمتى كان ليراعتك ويراعتي أكثر من شباة واحدة؟، ومتى سال مدادهما من معيّنين؟ لا وإنّما تلك التي أردتها مشاركةً بيننا ما كانت غير بوارق فكرك جالت في روعي، وبناناتك تحرّكت بها يدي، وهل كثيرٌ أن يخفق قلبك في صدري.. وتلتنع في ذهني شهيك والشرارات؟

وبعدُ يا أمين.. ها نحن وقد باتت تفصلنا عن يوم تلاقينا الأوّل اثنتان وأربعون سنة. فحال الرّيق من الشباب بداية ذبول، ووجب أن نتهياً للرحيل طال أو قصرَ الأمد الباقي لنا على أديم هذه الأرض. إنّ شباباً ريقاً ينتظرنا هناك^(٢)، وهو لن يتبدّل ذبولاً، وقد تلقى رسائلك التي قلتَ إنّني أعملتُ قلمي فيها وما هي في الحقيقة غير رسائلنا الموحّدة إليه. قريباً أو بعد حين سنلقاه وجهاً لوجه، وسنخاطبه معاً بصوتٍ واحدٍ، ولسانٍ واحدٍ، كما كتبنا له بريشةً واحدة، وأراك منذ الآن تحمل إليه نسخةً من عصارة فكرك وثمار أناملك، تلك القطع الرائعة وليدة التحالف السعيد ما بين نباهة ورهافة، التي وحدها ما تطمع بإبقائه منك لأهل هذه الأرض، لأنّك، وأنا أعرف، متعجلٌ للذهاب وقد استبدّ بك الشوق. فعسى هذا العالم يستحقّها، وعساه يستحقّك مزيداً من الزمن فلا تُستجاب رغبتك في اختصار الشوط. إنّ في إرثك الأدبيّ غذاءً، والغذاء به استمرار الحياة، فهل تهبها لناشديها وأنتَ منها على حرمان؟

ربّما كان ذلك.

فقد أفاض عليك الواهب من نِعَمه لدى توزيع الشمائل.. وقبض يده لدى تقسيم
الحظوظ،

فعشت وأنت الغنيّ لغيرك لا لنفسك،

يقتلك الظمأ والناس من معينك استسقاء.

ولا عجب،

متى كان الجميل يرى الملاحه في وجهه قبل اختراع المرآة؟

فالحسن ما خلق لعينيّ صاحبه بل للعيون الشاخصة إليه،

وعزائي، على الدهر، أنّ عينيّ كانتا من تلك العيون.

١- نجله الذي اغتالته يد الموت وهو في ريعان شبابه.

٢- نجله المومأً إليه.

إنسانية في المواسم

نُشرت في مجلّة "آلو بيروت"، وفي مجلّة "أصداء"، السنة السابعة - العدد الأوّل - كانون الثاني ١٩٧١.

جاري إنسانٌ تقيٌّ يعبد الله، ويفعل الخير لأنّ الكتب السماوية أوصت به لا لأنّه، هو شخصياً، يشعر قلبياً مع ذوي البؤس والحرمان.

ففي موسم الأعياد من كلّ سنة يتحرّك قلب جاري: يغدو رقيقاً طيباً يحنو على الفقراء ويحوّل يد صاحبه إلى سخيّة معطاء، وما أن تنتقضي تلك الأيّام المباركة حتّى يعود جاري إلى طبيعته الأصلية: يمرُّ بذوي الحظوظ العواثر فلا تتحرّك في نفسه شفقة، ولا يختلج قلبه برحمة ولا ينبض عرق من عروقه نبضة أسى لما يصادف من جور الدهر على فريق من أبناء هذه الدنيا.

كأنّي بجاري يقول لمن يسترفده بلغة يسدّ بها رمقه في يوم "عاديّ" من أيام السنة: "انتظر حتّى يأتي العيد. قل لجوعك يسكن حتّى أوان الأيّام التي أوصتنا السماء فيها خيراً بك. أنت أخونا في الإنسانية في ذلك الحين فقط، ولست بعد ذلك، أو قبله، أخانا. إنّ أنينك المسترحم لا يقع منّا موقعه إلّا في أوقات محدّدة، معيّرة الأجل في الزّمن، فالرحمة، ككلّ شيء في الدنيا، تتمّ على موعد".

لا يأخذنك العجب، قارئ العزيز، من أريحية جاري الموقوتة، السائرة على الروزنامة، فلو رشقت مظاهر الحياة حولك بنظرة لأفيت كثيراً منها يسير على نمط الجار الحكيم، الذي كان ينطق بالحكمة فعلاً حين قال: "كلّ شيء في الدنيا يتمّ على موعد". فهلاًّ قادتك الظروف مرة إلى مستشفى من المستشفيات.. ناقلاً إليه مصاباً بصورة طارئة.. لتسمع جواباً ينبغي ألاّ تستغربه مهما كان غريباً: "هذا الأسبوع ليس دورنا في "الطوارئ"، خذه إلى المستشفى الفلاني". حتّى إذا

حاولت أن تستعطفَ خاطر إدارة المستشفى لقبول المصاب بقولك إنَّ حالته لا تنتظر حتَّى يصلَ إلى "مستشفى الدَّور" جابهكَ تصلُّبٌ لا يتزحزح عن رفضه بحجَّة "الاتِّفاق"، و"التنظيم"، و"التعاقد على هذا الأساس" إلخ...، وكأنَّ هذه الشكليات تعفي الإنسان، والطبيب على الأخص، من واجب إنقاذ إنسان مهَّدٍ بالموت، وكأنَّ الحياة رخيصةٌ إلى حدِّ أنَّ التضحية بها تهون محافظةً على قواعد وضعها فريقٌ من النَّاس قاصداً بها ضمان راحته ومصالحته الذاتية قبل الإيفاء بالواجب المفروض عليه.

والتفتُ، قارئ العزیز، ناحيةً أخرى أيضاً، ولتكن ناحية المسرح الدولي، لتري صراعاً مسلحاً دامياً بين معسكرين متناحرين.. يبيحان إراقة الدَّم نصرةً لمبادئ مزعومة أو غير مزعومة ولكنهما، بها، يبرران هدر هذه الأرواح البشريَّة حتَّى ولو لم يبقَ على الأرض مستقيذٌ من "نِعم" هذه المبادئ. الغرابة ليست هنا، على ما في هذا الأمر، بحدِّ ذاته، من غرابة، بل الغرابة القصوى عندما تتجح مساعي السلام ويُقرَّر إنهاء الصراع القائم، ولكنَّ موعد وقف إطلاق النَّار يحدَّد في وقتٍ لاحقٍ قد يأتي متأخراً عن تاريخ عقد الصلح أيَّاماً أو أسابيع، ويكون ذلك لمجرَّد الانتظار حتَّى أوَّل الشَّهر القادم، أو لتنفيذ الاتِّفاق "عند منتصف اللَّيل"، أو في يوم ذكرى معيَّنة كذكرى بدء الحرب مثلاً، ممَّا يبرر في نظر أصحاب العلاقة إطالة أمد سفك الدماء وإيقاع المزيد من الضحايا حتَّى ولو لم تكن الاعتبارات المذكورة تتصل بالمبادئ التي جرى التقاتل من أجلها بل ليست أكثر من اعتباراتٍ شكليةٍ تهوى التقيد بالأرقام "المدوَّرة" أو بالتواريخ البارزة. مسكين جاري التقي، الذي لا تهبُّ لديه ريح العطف والإحسان إلَّا مع هبوب ريح الأعياد الحاملة معها عبق الجنَّة والتذكير بثواب الأعمال في الآخرة، إنَّه، بين "المحسنين صنعا"، أقلُّهم خبثاً، وأهونهم ضرراً واقصرهم باعاً في الشرِّ.

رياض حنين والذكريات الباقية

تعليق على كتاب "... وبقيت الذكريات" لرياض حنين، نُشر في جريدة "البيرق".

بنفسي من زمنٍ أن أكتبَ عنه، هذا العصبيُّ شخصاً وقلماً، الذي يتحدّث، أو يهزل أو يتهمّ.. فيرمي التماعات الذكاء عن جانبيه وكأنّه في البسيط العاديّ من بواده وتصرّفاتة.

بنفسي من زمنٍ أن أكتبَ عنه، وذكرياتي معه وحدها تصلح موضوعاً للكتابة، لما يُضفي على جلساته من غناه الذاتيّ، وعلى جلسائه من عذوبة شخصه وروحه.

وهو، في كتابه الممتع "... وبقيت الذكريات" لم يفعل أكثر من أنه أتاح لي المناسبة.

عبر سرد وقائع رحلة خاطفةٍ إلى الديار الأميركية مرّ رياض حنين مروراً رشيّقاً على موضوعاتٍ من تلك الباقيات أبداً، جعلت الكتاب متواصل القيمة لا مجرد وصفٍ سياحيٍّ أو صورٍ لمشاهداتٍ عابرة. فتطرّق إلى الإنسان الآلة في مدينة نيويورك، الذي يمشي ويفكّر ويتحدّث ويأكل ويعمل لا بدماغٍ وأعصاب، بل لقد اندمج بالآلة وأصبح وإياها صنويّن.

وتناول حديث الأخلاق في مستواها "النيويوركي"، الأخلاق التي ماتت في عُرف هؤلاء النّاس.. كما ماتت القيم، والشرف، ومات الزواج والحبّ وبقي الجنس وحده، هذا الذي له في أميركا مخازنه، وأدواته، ومجلّاته، وكتبه وأفلامه، كما له أحيائه، وأوكاره، وطبيعته وشذوذه، ثمّ هو الشذوذ يطغى على الطبيعة فإذا هو القاعدة بترسيخ الاستعمال.

وألَمَحَ إلى قوّة الإعلام في أميركا، فكأنّي به يريد القول إنّ أغنى دولة في العالم، التي ترتكز تجارتها إلى الإعلان، هي هي أقوى دولة في العالم التي ترتكز سياستها، واتجاهات الرأي العام فيها، إلى الإعلام، والإعلام هو الإعلان السياسيّ، كلاهما من أصناف الدعاية.

إلاّ أنّ أجمل ما يُبقّيه هذا الكتاب، المعقود الإسم على الذكريات، في ذهن القارئ من ذكرى هو خطاب صاحبه في حفلة يوبيل جريدة "الهدى"، هذا الذي يقول فيه إنّ هديّته إلى المحتفين بـ "الهدى" هي صفاءً من سماء لبنان، وعطرٌ من أزهاره وأملٌ من اخضراره، وإنّ الخمس والسبعين من السنوات التي مرّت علي صدور هذه الجريدة هي خمسٌ وسبعون أرزةً مشكوكةً بين ناطحات السحاب تتطاول أنفةً وعنفواناً، وتزهو على الناطحات، ابنة الأمس، بما وراء الأرز من جلال التاريخ، وألوف السنين المؤلّفة.

إنّه رياض حنين، في كتابه كما في أحاديثه، يرمي التماعات الذكاء عن جانبيه وكأنّه في البسيط العاديّ من بواדרه وتصرفاته.

يدٌ يجري في عروقتها الطيب

تعليق على كتابي "نكات خازنية" لرياض حنين و"ليلي والأزهار" لليلي منقور. نُشر في جريدة "البيرق".

النكتة والزهرة.. كلاهما شفاء للنفس، وندى على القلب. فالبلم ضروريٌ لنا نحن أبناء الوطن الذي أكلته الجراح، ويا طالما قهرت النفوس الجبارة مصائبها بالابتسام كما قهرتها بالعزائم الصلاب.

أن يضوع الشذا أو تنفرج الأسارير واحدٌ هو الأمر، والحديقة المزهرة ما من شبيه لها أكثر من مروج الروح المائجة بالافترار. وإنَّ ضحكةً تزرعها على شفتين ذابلتين، يعلوهما جبينٌ مقطّب، لمثل أن تغرس وردةً في تربةٍ قاحلة وتجعلها تورق وتنمو.

إذا كان هذا هو المبدأ فكيف إذا جاءت الطرفة الباعثة على الضحك من قلم الأستاذ رياض حنين، وكيف إذا كانت منسقةً حذيقة الأزهار هي الفنانة ليلي منقور!

إنَّ شميم العطر من أضاميم ليلي وآنيته لا يعدله إلا نزهة خاطر بين طرائف رياض التي يكتفى بأنها خازنيةٌ ليُعرف من اسمها مسمّاها. فيا لحظّ الأنوف المنتسمة ذلك العبق، ويا لحظّ الثغور الطافية عليها البسمات.

"نكات خازنية" و"ليلي والأزهار" يأتیان اليوم وكأنّهما رائعة الروائع في الكتب، تصغر أمامهما عاليات النفائس الأدبية. إنهما كذُرور السحر ينتعش له الصدر المقبل على خمود الأنفاس، وكالمرهم المقدّس تندمل به الجروح وتبرأ. رياض حنين وإن اجتذبت الصّحافة فهي لم تبتلعه.. ولم تحجبه عن الأدب، وقد كان علينا أن نقول إنّها لم تمنع جريان الطيب في عروق يده وقلمه.

وليلي منقور لو شئنا أن نعودَ إلى عائلتها الأصلية لقلنا عنها "مولودة فنّانة بالدم". وإذا كانت شريكها في التأليف أنطوانيت عازار هي لتنسيق العبارة في الكتاب فإنّ ليلي هي لتنسيق زهوره ورياحينه، لتجعلَ من كلّ باقةٍ تصنعها قصيدةً أو لوحةً أو سمفونية.

ونزار قبّاني الذي قال في تصديرِ لهذا الكتاب: "أحلى ما صنعه الله المرأة والوردة، وحين تلتقي الاثنتان تصبح الحياة قصيدة.. والعمر خرافةً وليلة قدر" لم يخطئ حين جعل من ليلي مواطنةً في مملكة الورد، ولكنّا لا نعدو الحقيقة أيضاً إذا قلنا إنّها سلطنة هذه المملكة.. أو وردتها الأجل.

أمّا روضة النكات عند رياض فخير ما يُقال في براعة صاحبها ما ذكره مقدّم الكتاب الشيخ سليم الخازن: "... إعجابي بقلمك الخلاق المبدع، وبأسلوبك الدال على عرافتك في الأدب الرفيع المنساب من أعالي جبال الإلهام". حقاً.. إنّ ملهًما وملهًمةً قد استقطرا من المرح والعبير عصاراً ليسكبا رحيقها على النفوس الكئيبة ويردّا إليها الحياة.

محاضرة الجيش اللبناني: تاريخ ودستور

تعليق على محاضرة ألقاها، باسم الجيش، العميد جان نخول في "الندوة اللبنانية"، نُشر في مجلة "الرحمة".

الجيش الذي خرج مرّة واحدة عن صمته، فقال ما لا بدّ من قوله وانسحب مسرعاً من السّاحة، ستظلّ أصداء كلامه تتردّد على الدّوام. هكذا الكلمات الغرر.. يغني فعلها الحاسم عن ترديد مرّتين، فالضعيف هو الذي يحتاج إلى ثانية وثالثة.

في تلك المحاضرة التي اتّيح لنا سماعها بالأمس، ولن يُتاح لنا سماع مثيلاتها بعد اليوم، قال الجيش عن نفسه كلّ ما لا يمسّ قوله بسلامة المؤسسة التي تتوقّف عليها سلامة البلاد. كانت الصراحة جليّة، والصّدق والإخلاص بارزين، وكانت كلّ كلمة قيلت كلمة حق نحتاجها منذ زمن.

تلك المحاضرة كشفت لنا عن عنصر فعّال في حياة الوطن، وعضو ناشط في مجتمعه، هو الجيش.

الجيش المعمّر في أنحاء عديدة من الوطن، الجيش المحضّر في المناطق المتخلّفة، الجيش المربّي في "التنشئة الوطنيّة الإنسانيّة"، الجيش الموسوعيّ في القاموس العسكريّ الضخم، ذاك ما لمسناه دفعةً واحدة، في وهلة مفاجئة لذيدة، من خلال المحاضرة.

وفي هذا العرض الرائع رأينا الجيش كذلك خلية إنتاج كبرى، تعمل دون كلل ولا هوادة ثمّ لا تتباهى بالثمار، فالدور الكبير الذي يلعبه الجيش ينتهي، بكلّ بساطة، عند حدّ العطاء.

لقد كانت هذه المحاضرة نقاطاً على حروف، وضعت الأشياء في مواضعها، وأوضحت أن جيشاً وُجدَ ليقا تل لا يُطلب منه أن يكون في وداعة المرتلّين، ولكنّ هذا الكائن الجافّ يقدّس الواجب، ويحترم الحقّ، ولا يتخلّى عن قواعد الشهامة في المعاملة.

أمّا القلم واللسان اللذان عبّر بهما الجيش عن كلّ ذلك فإنّهما ليدخلانه حرم الأدب الممنع كمن يدخل ساح منزله فلا يكون في غربة الدار. لقد عرف الجيش، عن طريق أحد بلغائه الصفوة، أن يطيب رأس سنانة بعبير الجمال الفنّي، حتّى لكان رأس السنان هذا أسلةً أو شباة.

الضابط الذي ألقي المحاضرة عرفه الوسط الأدبيّ جيّداً قبل أن يتوارى عنه في خدمة سيفه وواجبه. فقد كان لـ "ابن الريف"، ومن ثمّ لـ "أبي فراس"، نفثات ونفائس، من الشعر والنثر، على صفحات الجرائد والمجالات. واليوم، وقد حتمّ عليه إخلاصه لمهنته النبيلة أن يبتعد عن عالمه الأوّل، فإنّه لم يصبح منسياً لدى رفاقه وعارفه. وقرأاء هذه المجلة يذكرون ولا شكّ قصيدة "السيف والقلم" التي قدّمت له على صفحاتها، وصاحبها الدكتور زكي المحاسني من أعلام الأدباء العرب في هذا العصر، عرف في الضابط صاحب المحاضرة "ربّ سيف وقلم" فأهداه الشعر بهذه الصفة المستحقّة.

وبعد.. فقد جاءت هذه المحاضرة تاريخاً صادقاً مشرفاً بالنسبة إلى الماضي، وشرعةً ودستوراً بالنسبة إلى المستقبل، يلتزم جيشنا الأروع بخطوطها ومبادئها فإذا هو يسير في أقوم السبل نحو المقصد الأمثل، بوركت خطواته ومسراه.

البابا في لبنان

كلمة أذيعت من محطة إرسال "صوت لبنان" لمناسبة الزيارة البابوية.

زيارته مبعث للذكريات، توقظها من مرقد تهجع فيه منذ أواخر ثمانية الحربين الكونيتين، يوم كنا ننهد إلى الشباب، وكان للنزلاء الأجانب بيننا رهجة في أعيننا ورواء، نتطلع إلى فتيانهم المرد وإنائهم المشيقات بدهشة وإعجاب، حاسبين كمال الجسم والعقل في هذه النماذج المصوغة صوغاً الوافدة إلينا من الغرب.

وكانت ثلاث من البلدات الكسروانية، في ذلك الحين، مأوى لفريق من جالية أوروبية قذفت بها إلى ربوعنا الحرب والاحتلال المعادي لبلادها. تلك هي الجالية البولونية، التي حلّ أفرادها في عجلتون وزوق مكاييل وغزير، وعندما وضعت الحرب أوزارها رحلوا ولكن لا إلى بلادهم التي انتقل الحكم فيها من دكتاتورية إلى أخرى، مخلفين عندنا نساء تزوجن من لبنانيين فكنّ مثلاً في الأمانة الزوجية والإخلاص، واندمجن بحياتنا وعوائدنا حتى كدنا نحسبهنّ من بنات هذا الجبل لولا السحنة المختلفة، وعجمة اللسان، وغرابة الأسماء.

البولونيون هؤلاء، لدى اختلاط لنا بهم ومعاشرة، تجلّوا لنا شعباً مؤمناً متعلّقاً بأهداب عقيدته الدينية، فكانوا، في أيام الأحاد، يملأون الكنائس في محالّ إقامتهم فلا يبقى مكان لأهاليها. وأذكر أنني كنتُ مرّة في زيارة الشاعر الياس أبي شبكة في الزوق، فدار الحديث حول مواضيع الأدب، ثمّ تطرّق إلى هؤلاء الغرباء الذين كانت البلدة تعجّ بهم، فأفاض الشاعر بالثناء عليهم وامتداح تقواهم وأخلاقهم، مبدّياً ارتياحه إلى أنّ الإيمان، بوجود أمثالهم، ما زال حيّاً في النفوس.

هذه هي الأرومة التي نبت منها الرجل العظيم القادم إلينا غداً، مجسداً في شخصه كلّ مزايا شعبه الطيّب، الذي ما زال محافظاً على أصالته رغم عيشه في عصر اجتاحت العالم الغربيّ فيه ماديّة متكرّرة للقيم الموروثة. وهو لذلك يجد شبهاً بين وطنه الأصليّ ولبنان الذي ما زال شعبه أيضاً متمسكاً بالفضائل التي نشأ عليها. فهو يحبّ لبنان حبّه لمسقط رأسه، ويذكر طبعاً، وهو الذي عانى ويلات الحرب العالميّة الثّانية، أنّ لبنان فتح صدره لبني قومه الذين ذاقوا مثله ويلات هذه الحرب، فهو يأتي إليه اليوم بدافع من الحنين والمودة التي يكتّنها له مذاك.

أجل، إنّ يوحنا بولس الثّاني، رغم عالميّة موقعه، وإنسانيّة أفكاره ومشاعره، ما زال متجذّراً في هويّته البولونيّة. لذلك فلا بدّ أن يقع لبنان من قلبه موقعاً خاصاً لأنّه كان، في يوم من الأيام، مؤثلاً لأبناء جلدته الذين تعايش معهم اللّبنانيّون أحبّاء وإخواناً. فمن المعروف عنه طبيعته العاطفيّة رغم كونه مفكراً ورجل علم، وعاطفته نحو لبنان مأثورة عبّر عنها في العديد من المواقف والمناسبات، فأهلاً به يطأ أرضنا المقدّسة مباركاً ترابها. وأنا الذي كان لي حظّ المشاركة في ترجمة كتابه "حب ومسؤوليّة"، هذا الكتاب المعتمد اليوم، في ترجمته المُشار إليها، مرجعاً في المحاكم الروحيّة، يُسعدني أن أقول كلمةً فيه عبر صوتنا، "صوت لبنان"، لافتاً اللّبنانيّين إلى مؤلّفاته التي فيها، إلى الفكر العميق، نفحات روحيّة منعشة في زمن التحجّر، والجحود، والآلة العمياء.

جبنا نوّدي له الشهادة

كلمة الافتتاح في احتفال إحياء ذكرى الأب بطرس أبي عقل، معهد الرسل - جونية، ٦ كانون الأوّل ١٩٨٦.

إلى المدينة التي انطلق منها الحرف أراد أن يذهب حاملاً لواءه، ومكرساً نفسه لنشره، فصرعه العداء المزمّن للنور والمعرفة، ذاك الذي ما فتئ يعمل منذ ظهور الأبجدية على مكافحة العلم بالجهل، ومحاربة التقدم بالتخلف، لأنّ في استنارة العقول حائلاً دون مثل ما يجري اليوم على أرضنا، فيما الغول المتربّص بالبشرية، يريد تسخيرها لشهواته، يأبى وعياً يُحبط مسعاه ويمنع الانجرار وراءه، فيعمل على إشاعة الظلمة في الأذهان والبصائر، ويجنّد لتعميم الجهالة بعثات وإرساليات ناشطة قدر نشاط البعثات والإرساليات العلمية التي ساهمت في كشف الظلمة عن العقول والنفوس.

في فجر الإنسانية وطفولتها أهدت صور العالم أداة المعرفة ووسيلتها، وفي القرن العشرين صرّح من تسلّلوا إلى صور على غفلة من أهلها من أراد أن يبقى لهذه المدينة مكانتها كمهدٍ للحرف ومصدرته عبر البحار.

وفيما الشهيد، أيُّ شهيد، يعمل قبل أن يلقي مصيره دفاعاً عن وطنه وقضيّته وهو لا يعلم مُسبقاً ما إذا كان سيموت من أجلهما أم سيعيش ليرى ثمرة نضاله، أقبل شهيدنا المحترق بذكراه على النهوض بمهمة لا بدّ وأنّه كان يعلم سلفاً أيّة نهاية تنتظره فيها، فلم يتردّد ولم يتقاعس عن واجب، وأصدر بذلك حكم الإعدام على نفسه قبل أن يُصدره عليه من ضابقتهم وجوده عندهم والتوعية التي كان يبثّها في أوساط طلابه والجمهور.

وهكذا، إلى جانب تلك الكوكبة البهية من الشهداء الذين قضوا خلال محنتنا الدامية فداءً عن لبنان، ينتصب شهيد قضى فداءً رسالة لبنان الأزلية، تلك التي أبحر قدموس من شاطئ صور إلى أرجاء العالم القديم لأدائها، ويراد لصور اليوم ألا تواصل حمل مشعلها لأنّ هناك مَنْ قرّر لمهد الحرف أن يكون مقبرته في آن.

تقديرًا لهذه التضحية التي أقدم عليها صاحبها في مثل ثبات خطى الجندي الذي يلقي بنفسه في الوهدة لأنّه لم يتلقَّ أمرًا بالنكوص عنها، تقديرًا لهذه التضحية الجلّي تتادى عارفو قيمتها لا لإحياء ذكرى هي حيّةٌ بحدّ ذاتها، بل للإنابة عن لبنان ومتّقيّيه في الاعتراف بجميل مَنْ وهب نفسه للعلم حيًّا ثمّ سقط ليحول دون سقوطه. فعرفناه نحن في معهد الرسل مترهبًا لرسالة التعليم كترهبه لربّه، وعرفه غيرنا في الساحل الجنوبيّ باذلاً البذل نفسه وبالغاً فيه حتّى أسخى العطاء، فاستحقّ الاعتراف بما له في أعناقنا من دين، وبما له علينا من منّة، فجئنا نوّدي له الشهادة بأنّه جاد علينا بكلّ ما يملك ولم يُبقْ ذرّةً لنفسه، وبأنّه سارَ في وعرٍ لا تقوى عليه أرجلنا، ورسم بدمه على رمال صور صورة الحرف الذي وُلد فيها، ولن يُلحد فيها ما دام قدموس عصرنا يعرف أن يفندي ما أبدعه قدموس تلك العصور.

راهب الليل أضحى فارس كلّ آن وساعة

كلمة الافتتاح في مهرجان تكريم ذكرى الأب بطرس الخويري، أُلقيت في قاعة سينما فينيسيا في جونية، ونُشرت في مجلّة "الرحمة"، وفي كتاب أصدره الأستاذ أنطوان الخويري حاوياً كلمات المهرجان، ثمّ في كتابٍ ثانٍ لمهرجانٍ آخر من نوعه.

يوم أراد الله ليكون له أرادته ليكون من الصّانعين في الأرض لتسمي جديدة بالله، أي من المساهمين في كشح الظلم عن وجهها وإحلال الحق والعدل مكانه، لأنّ أرض الله ليست مسرحاً للمنكر والباطل، ولا مرتعاً للحرام والشر، فلن تصحّ لله عبادة من عابد في مملكة بُنيت دعائمها على ما ينافي رغبة ربّها، إذ كل ما يقبل أن يقوم في ظلّ نظام جانح إلى الضلال غير شرعيّ حتّى العبادة والصلاة.

يوم أراد الله ليكون له أرادته ليعملَ على إزالة شبح الجور والبغي من سماء بلاده، لأنّ رجل الله هو الذي يسعى في نشر روح الله، ولن تكونَ روح الله حيث طغيان وفساد بل حيث عدالة وحرية، ففي الجهاد لإشاعة مناخ الله على الأرض جهاد من أجل الله.

وهكذا أضحى راهب الليل فارس النهار، بل فارس كلّ آن وساعة، وعمل لربّه صرفاً بكهنوته السّامي كما التمس وجهه بالتماسه وجه وطنه، وطالما كانت دروب الأوطان بعضاً من مسالك الإيمان.

عمل الراهب لقضية بلاده ما عمله أحرار زمنه، ووضع روحه على كفّه كما يقولون يوم جاء من مصر يجول في أنحاء سوريا ولبنان مستقصياً حقيقة الحالة العسكريّة والاجتماعيّة وموافقاً بأنبائها من اتفقت مصالحهم ومصلحة النضال الوطنيّ في حينه، فكانت المعلومات ثمينة ساعدت الحلفاء في تحريرهم بلدان

الشرق، وكان لها على الأخص، في إبرازها لناحية البؤس الذي سيطر على الشعبين السوري واللبناني، فضل تنبيه العالم إلى هذه المآسي وإيقاظ ضميره للتدخل ووضع حدّ لذلك الإفناء الجماعي عن طريق التجويع، فتحرّكت الدول وتحرك المغتربون، وكان إرسال المساعدات والنجادات سرّاً وعلانية وإنقاذ البقية من أهل هذه البلاد الذين لم يقضِ عليهم الطغيان سريعاً.

كان الأب بطرس الخويري إذاً مجاهداً وطنياً، ولكنّه لم يعمل من أجل وطنه لأنّه وطنه فحسب، بل لأنّ وطنه هذا صاحب حقّ مهضوم يعيش سحابة عهد مشؤوم، فمُجالد الظالم انتصاراً لمظلوم جنديّ حقّ وجنديّ الحقّ له الرضا من ربّه وله النصر المحتوم. وإذا كان هذا الجنديّ لم يذهب ضحية الواجب فقد كان له حظ العيش لإتمام هذا الواجب حتّى النهاية، ببذل من أجله العرق والدّمع إن وفرّ القدر دمه على غير قصد منه، والجنديّ لا فرق لديه: بذل من نفسه أو بذل نفسه.

ويكون لكسروان، هذه المنطقة التي نُكبت في ذلك العهد الأسود كما نُكب غيرها من المناطق اللبنانية، فضل إطلاع المجاهدين العاملين على تقريب يوم الخلاص: فالبوارى من الساحل، من عروس الشاطئ هذه، والخويريّ من الجبل من رعشين، والخازنيان من الأواسط، حتّى ليرمز ذلك إلى حقيقة البقعة الكسروانية في ذلك الحين.. التي تتادت، تحت مظاهر الجوع والتلاشي والذلّ، من أقصاها إلى أقصاها لتحقيق المعجزة والانتفاض من القبر، وبعث الشعب كلّ من الرميم فيقهر، كفاديه، الموت بالموت.

من رعشين كان الخويريّ المجاهد، حيث الكلّ صخر الحجر والإنسان، وحيث الصخر يقاوم وهو أعزل إلاّ أنّه صخر، وإلاّ أنّ الباطل مهما أخذ للأمر أهبطه، وهياً له عدّته، فهو يحمل في ذاته بذور تفتّته وتداعيه تحت ضربة الحقّ لأنّه يعمل مسخراً على غير إيمان بقضيته.

وهكذا كان، وانهار الباطل القويّ كما يسقط صاحب الهيكل الضخم جثّة هامة فجأةً وسط دهشة الرّائين، لأنّ بدنه الهائل كان يحجب حقيقة الاهتراء في أحشائه.. والانحلال في أوصاله.

وتمرّ الأعوام الخمسون على هذه الوقائع، ويكون الكاهن، بعد أن قام بمهمّته ورأى وطنه يخلع عنه ذلك النّير القاسي، قد عاد إلى صومعته وإلى رسالته الروحيّة الأساسيّة، فدخل، في أذهان النّاس، مناطق النسيان، فلم يذكره ذاكر مع المجاهدين الوطنيّين أصحاب الأيدي والفضل، وقضى، بعد ذلك الزمن بمدة طويلة، دون أن يعلم أحد من هو هذا الذي مات، وماذا في مطاوي عمره من الأعمال الجلّائل.. والأيّام الحوافل.

إلاّ أنّ الله دائماً يقيّض لأصحاب الفضل أصحاب وفاء، وقد كان للكاهن المجاهد أن يلقى نصيبه من الوفاء على يد إنسان من عائلته^(١) عثر على مذكراته وعرف من خلالها أيّ عمل هو عمله وأي أثر، بالتالي، كان أثره، فقام بطبع هذه المذكرات ونشرها، ثمّ راح يدعو إلى تكريم الرجل المنسيّ حتى تجاوبت معه الأحزاب اللّبنانيّة كافّة، وعائلتا الكاهن الروحيّة والعرفيّة، فكان يومنا هذا الذي نجتمع فيه على اسم الوفاء، وعلى اسم الجهاد، وعلى اسم إنسان ضحّى ووطن يستحقّ أسخى التضحيات: لبنان.

١- هو الأستاذ أنطوان الخويري رئيس "جامعة آل خويري"، وصاحب "دار الأبديّة للطباعة والنّشر".. والمدير المسؤول لمجلّة "أصداء".

صدق آية الحياة...

أُقيمت في الحفلة التذكارية التي أقامتها جمعية شبّان الرحمة في مقرّها ببيروت لرئيسها الغائب شفيق ضاهر. نُشرت في مجلّة "الصّحافة اللبنانيّة" التي تُصدرها نقابة الصّحافة - العدد الخامس والخمسون - أيّار ٢٠٠٥. ونُشرت قبلها في مجلّة "الإرشاد الاجتماعيّ" الصّادرة في طرابلس.

ذاك اللقاء الأوّل بيني وبينه وافيته إليه إتماماً لمعاملة، فجعله القدر بداية عهدٍ من الصداقة توثّقت حتّى بتنا في نظر النّاس ذينك اللامفترقين. ذاك اللقاء الأوّل أقبلت إليه موفداً ممّن أوكل إليّ أمر مجلّته الأدبيّة^(١) وكلفني إنجاز مقتضياتها مع الموظّف المختصّ^(٢)، فكان أن دار الزمن دورته ليكلّ إليّ هذا الموظّف نفسه أمر مجلّته هو في ما بعد^(٣)، تلك التي أصدرها باسم جمعيتّه^(٤) التي غدوت من أعضائها ثمّ من المسؤولين في عمدتها.

ثلاث ونصف من السنوات صدرت فيها "الرسالة" برعاية خاصّة من رئيس قسم الصّحافة في وزارة الأنباء، يدلّنا من تلقائه على سبل خدمة المجلّة وتذليل عقبات الشكليات القانونيّة من أمامها، ويبذل لها المساعدة والتغذية حيث يستطيع، ثمّ ظلّ امتيازها مدّة طويلة بعد احتجابها مديناً له بالحياة والبقاء، ولكان قد بقي موجوداً إلى اليوم لو شاء أصحاب المجلّة ذلك.

١- مجلّة "الرسالة"، العائد امتيازها إلى معهد الرسل في جونية، وكنتُ رئيس تحريرها.

٢- كان شفيق ضاهر رئيس قلم الصّحافة والمطبوعات في وزارة الأنباء (وزارة الإعلام حالياً).

٣- مجلّة "الرحمة" التي تغيّر اسمها بعدئذٍ إلى "أصداء".

٤- جمعية "شبّان الرحمة" الخيريّة التي كان مقرّها في محلّة رأس النبع ببيروت.

وكنّا بعدئذٍ في الجمعية رفيقَي طريق طويل، نتقاسم هموم ذوي البؤس في الدنيا أكثر ممّا نستطيع أن نفعل شيئاً حاسماً لهم. فالمتبرّعون للخير ذوو مآرب في الأغلب، وما كان بوسع الجمعية أن تنصّب نفسها محققاً لمآربهم دوماً، فكان الانفضاض من حولها سريعاً ما يعقب الانعقاد. وملتفت إلى ساعٍ في حقل البرّ يبتغي مرضاة ربّه وضميره فقط فلا نجد، فتَقصُرُ منّا اليد وننكمشُ انكماش المغلوب على أمره. وينقطع مدد الجمعية عن المحتاج، ونتلقّى التّهم الظّالمة عاذرين صابرين، بانتظار يوم نعود فيه إلى ممارسة حقيقتنا عندما يفِيء المحسنون إلى أنفسهم مدركين لذة العطاء وسموّه.

وتوسّعنا في مفهوم العمل الإنسانيّ حتّى شمل عندنا المواصلة بثمار العقل، وحتّى جعلَ الكلمة المشجّعة المؤاسية اخت الإنجاد بطعامٍ ومال. فكانت "الرّحمة" منبراً فكريّاً ينثر الهبات إكمالاً لعمل اليد واللّسان، وكانت زمالة في العمل الصحفيّ دامت خمس سنواتٍ وانتهت بمرضه المفاجئ الذي عزله عن الحياة العامّة خمس سنواتٍ أيضاً اعتزل بعدها العالم نهائياً.

ولئن كانت يراعتي وسيلته القلميّة إلى القارئ عبر افتتاحيّاته في "الرّحمة" فقد كانت الفكرة فكرته في كثيرٍ من الأحيان، أو كان له الفكرة العامّة، على الأصحّ، تاركاً لي أمر التصرّف بالتفاصيل.

وكانت بيننا مشاركة في العمل التربويّ من خلال مدرسة الجمعية، التي دفعته ثقته بي إلى أن يعهد إليّ بمهمّة تمثيل الجمعية فيها والإشراف على نشاطها التعليميّ، كما كان بيننا مشاركة في جعل خدمات الجمعية تشمل الإسعاف الطّبيّ عن طريق المستوصف الذي طاب لـ "المحسنين" أن يروا احتضاره عجزاً دون أن يمدّ له يدًا بمساعدة.

في هذه المراحل جميعها كنّا نتوزّع ما بين مشقّة العمل وراحة الإيفاء به، كمّن يريحه تسديد دينٍ عليه ولو أرق جيبه المبلغ المدفوع.

أما المشقة الكبرى التي عانيتُها وحدي فقد كانت مشقة الابتعاد عنه، قسراً، طوال سنوات مرضه لأنّ حاجزاً معنوياً سدّ بابه في وجه رفاق حياته.

ولن أقول إنّ محاولة التفرقة فشلت، فلقد فعلت فعلها المادي رغم أنّي، في سنوات اعتكافه، كنتُ معه في كلّ لحظة نائماً في السرير كان.. أو متنسماً الهواء أمام الدّار أو مرتاضاً على السير على عربة أو عكاز. إنّما كانت عيني المحرومة من طلعه تكابد شوقها إلى رؤياه، فتتحولّ النفس إلى حلبة صراع بين الكرامة والعاطفة.

والآن مات شفيق ضاهر، وانقطع الخيط الذي غزلته يد القدر ذات يومٍ من كانون الأوّل ١٩٥٤ ليظلّ معقوداً عشرين سنةً كاملة لا تقوى على متانته المحاولات.

بقي أحد الرفيقين وحده في السّاحة، وصدقت آية الحياة مرّةً أخرى: أنّ كلّ شملٍ جميعٍ مصيره إلى شتات. إلّا أنّها رحلة عمر كانت حافلةً بالمآتي، وما خلفه شفيق ضاهر من أثرٍ باقٍ يشهد على أنّ حياته ما ذهبت هدرًا ولم يضيعها في زائلٍ من الأعمال، ألا بورك الخصب المعطاء في النفوس.. يتجلّى حقائق مجسّدة ويقاوم الفناء.

هذا المشغل الفريد

أُقيمت باسم "لجنة الأهل" التي كان يرأسها الكاتب في "مدرسة السيّدة" لراهبات العائلة المقدّسة المارونيّات في ساحل علما، وذلك في احتفالٍ أقامته المدرسة بحضور وزير التربية الوطنيّة الأستاذ إدمون رزق.

خاطرةً لمعت في بال المؤسّس القديّس^(١) وكان لعبرين الصغيرة، الضائعة في متاهات الجبل، أن تُدَلَّ باسمها مزهوّّة على مدن لبنان وقراه. منذ ذاك ويُقال "عبرين" كما يُقال بكركي وحريصا وعنايا ويُصمّت، فالشهرة ما أبقت من محتوى الاسم ما فيه مجالٌ لسائل.

ثمّ جاد عليها الزمن بما هو فوق الشهرة، إذ قليلاً قليلاً زُرِعَ إسم القرية الوادعة في كلّ ناحيةٍ من نواحي لبنان وجواره، فلم نعدُ نستغرب أن نسمع عبارة "ذاهبٌ إلى عبرين" ويكون مقصد القائل مدرسةً في بيروت أو رياق أو حتّى في اللاذقيّة.

يُخيّل إليّ اليوم أنّ اسماً جديداً سيلمع بفضل المؤسّسة إيّاها، ذاك هو اسم "ساحل علما".

فالمدرسة التي أُقيمت هنا، وريثةً لسالفةٍ لها في جونية حملت عبءَ التعليم النّسويّ نيّفاً وخمسين سنة، هي مثالٌ من لم تصرفه مفاخر الماضي عن بناء المستقبل. فإذا سئلَ عن رصيده جعله في ما يذخر للآتي لا في ما أسلفه من المآثر على جلالها. إنّ ابن التاريخ العريق في حقيقة فعّاله، وابن اليوم الذي لا يعرف أمساً في ما يصمّمه للمستقبل من الزمان.

١- البطريرك الياس الحويّك، مؤسّس جمعيّة راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات.

وبين المجهود التربوي للمدرسة المبشّرة الواعدة والمجهود الأعمّ، المبذول على صعيد الوطن، للإدارة التربويّة الرسميّة في الدولة عنيت بها وزارة التربية الوطنيّة، بين المجهودين الكبير والأكبر أفسح في المجال لمجهودٍ صغير متواضع، هو مجهود ذوي الطلبة، أن يشارك في العمل التربويّ الجليل توعيةً للأهل على واجباتهم تجاه أبنائهم، وإثباتاً لدور البيت في عمليّة التنشئة وتأكيداً لكون التربية عملاً جماعياً متكاملًا تتضافر عليه العائلة والمدرسة والمجتمع على السواء.

فباسم ذوي الطالبات والطلبة وقد شاءت إدارة المدرسة متكرّمةً أن تُشركهم معها في مهمّتها السّامية، مهمّة صنع الإنسان، أرحب بكم، وأرجو أن تنظروا، من خلال هذه الحفلة، إلى ما هو أبعد منها: إلى الجهد اليوميّ الصّامت الذي يُبذل داخل قاعات الدرس، وفي المختبر والملعب والروضة، ليكون من نتيجته الثمار التي تنشدونها. ففي هذا المشغل الفريد، حيث يُنحت الأحياء لا الجمادات، حيث تجري عمليّة خلقٍ ثانية هي، بعد الخلق، أروع عمليّة على وجه الأرض، في هذا المشغل يؤهّل الفرد للحياة، وكم من فردٍ لفظته الحياة لأنّه لم يكن أهلاً لها.

فيا أيّها الناذرات أنفسكنّ لاثنتين: الله وفلذ الأكباد، جاوزتنّ أحلام المؤسّس. فلو قيّضَ له أن ينهضَ من ضريحه ويراكَنَ اليوم لخالجه، فوق الاطمئنان إلى الإيفاء بالغاية التي أنشأكنّ لأجلها، ارتياحٌ إلى تمام غايةٍ أخرى هي أدنى أغراض الأرض إلى التعبّد والتقوى، تلك هي إنارة العقول والنفوس. من أولياء الطالبات والطلبة الذين تتعبّن عليهم تحيّة عارفٍ بالفضل، عاجزٍ عن الوفاء.

في عيد المعلم - ١

أُقيمت في احتفال بعيد المعلم في مدرسة السيّدة لراهبات العائلة المقدّسة المارونيّات، ساحل علما، باسم "لجنة الأهل" في المدرسة التي كان الكاتب يرأسها.

أن نرى في أولياء التلامذة والمعلّمين فريقيّن يكرّم أحدهما الآخر خطأ مرّدّه إلى خداع النظر. فمن اكتفى بظواهر الأمور دون لبابها لا بدّ واجدٌ في المعلم ذلك المربيّ للناشئة داخل جدران الصفوف، وفي قاعات الدرس، ممّا لا يشاركه فيه مشارك، أمّا من أوغل عمقا في باطن المسألة فلن يفوته أنّ هذا المُعَمَّم العطاء على كلّ سائل هو أيضًا، مثله مثل سائر الناس، موكلٌ بأفرادٍ معدودين أتى بهم إلى الحياة، وأنّه، بصفة الأبوة هذه، يتوحّد مع كلّ أبٍ آخر، ويشهد فناء جسده لتربى أجساد غيره في بيته أو في بيوت الآخرين. فهو وليّ طالبٍ مرتّين، مرّة بفعل الطبيعة، ومرّة بالتطوُّع الإراديّ على مشقّة المغامرة. وإذا كانت تربية الأولاد كقضم الصوّان، وفق مثّلنا اللّبنانيّ الذي هو خلاصة تجربة أجيال، فبِمَ تُنعت تربية الأفواج المتلاحقة كلّما مرّ فوج ثلثه أفواجٌ وأفواجٌ؟ إنّه في عراكٍ مع الصوّان مستمرّ، لا يعدُّ الأيام، كالأب العاديّ، ليكبر ولّدّه فيرتاح من المهمّة الصعبة، لأنّها، بالنسبة إليه، مهمّة العمر، يعود على بدء كلّما انتهى منها مع رجيلٍ معيّن، فكأنّه سيزيف خرج من طوق الأسطورة وجاء بيننا يحمل الحجر إلى أعالي الجبل ثمّ يعيد حمله ويعيد.

أيّها المعلم.. قدرُك هو هذا، ولقد اخترتَه بنفسك ورسمتَ طريقك لم تُفرض مسالكها عليك. فنحن إزاءك في موقف المقدّر ولسنا في موقف المكافئ، وأيُّ مكافأةٍ تُعدّل ما تتجسّم في نحت الإنسان وصنعه؟ ذلك أنّ الكمال مطلوبٌ في إنجازك، لأنّ أيّ عيبٍ يبقى فيه يُفسد صورته كالعيب الذي يتركه النحات في

أثر من صنع يديه، ولكن هل الكمال متاح في الأثر الحيّ مثله في الأنصاب الجامدة؟ هنا تكمن مأساتك: تطلب منك المهمة المستحيلة، وتُلام إذا لم تروض المستحيل.

لا مكافأة على عملك، أجل، وما تكريمك ليبري منّا الذمة وقد ثقلت علينا الديون. فقد قاسمت أبناءنا نفسك إذ قاسمتهم علمك، لأنّ العلم بعض الإنسان، بل خير ما فيه. ولئن قيل: "الجود بالنفس أقصى غاية الجود" فإنّ الجود من النفس أخو الجود بها: هذا يسخو بنفسه دفعةً واحدة، وذاك يشطرها أشطاراً ويبدلها على أفساطٍ حتى يُفنيها.

في المرويّات عن أحد القضاة النزهاء أنّ صديقاً له دخل عليه في بيته وهو يقلّب النظر في أوراق الدعاوى التي بين يديه وولده الصغيران يطوفان حوله، ينتظران منه دعاًباً وهو غافلٌ عنهما. فقال له الصديق الزائر: "وأولادك يا شيخ؟"، فأجابه: "وأولاد الناس؟".

أيّها المعلم، أنت كهذا القاضي، أشحتَ بنظرك عن أولادك لتهمّت بأولاد الغير، فهنئاً لنا وجودك بيننا. إنّنا محظوظون بك، ولست أنتَ محظوظاً إلّا بالتمتّع بلذة التضحية واستشعار راحة الضمير. سلمت لأبنائنا ولنا، وسلم لك العيد.

في عيد المعلم - ٢

أُقيمت بمناسبة عيد المعلم في سنة تالية، في احتفال بمدرسة السيدة في ساحل علما، باسم "لجنة الأهل" في المدرسة.

مُستحقُّ التكريم ولا جدال، لأنه مثال العطاء من الذات. ولن يفِيه التكريم حقّه، إذ مهما فعلنا من أجله يظلُّ أخذه دون هذا العطاء.

المعلم، وفضله هذا الفضل، وقدره هذا القدر، لم ينل مكانته التي يحتلُّها دون مقابلٍ جَم. ذلك أنه، بين أصحاب التضحيات، ذو قدرة خاصة على الاندفاع والانسكاب يكاد لا يعرفها ذوو البذل الآخرون على صدق نيّاتهم في الوفاء بنذرهم نحو ما كرّسوا أنفسهم له. فالمحرك الداخلي في ذاته، الدافع به إلى كلِّ ما فيه تجرُّدٌ وتفانٍ، لا تعادله طاقة أيِّ محركٍ آخر في مجالات الخدمة المختلفة.

أجل، علينا جميعاً أن نعترف، في أيِّ حقلٍ كنّا من حقول التعاطف مع الغير، بأنَّ شعلة المحبة والغيرة في نفوسنا، على شبوبٍ فيها واتقاد، لتتكشف أمام الشعلة الإلهية المضطربة في نفوس من يوزعون الغوالي من كنوز المعرفة لديهم على طالبيها.

ونحن الأولياء، أولياء التلامذة، تربطنا بالأسرة التعليمية شراكة في العمل والجهد من أجل خير أولادنا وجنّهم علماً وتهذيباً.. وإن يكن لا مجال للتمييز ما بين أهلٍ ومعلّمين، لأنَّ المعلم هو، على الإجمال، وليُّ طالبٍ أو أكثر، وبهذه الصفة يتوحد معنا ونصبح كلُّنا أولياء طلاب.. نتعب من أجل مصلحة أولادنا أو أولاد زملائنا لا فرق.

ولكم كنتُ أودّ، على إجلالي للمعلّم وعيده، أن يكون هناك أيضاً عيدٌ للمعلّمة، هذه التي لا يدانيها أحدٌ لهبَ عاطفةٍ وكمال اندفاع. حسُّ التضحية لدى المرأة تستمدّه من حسّ الأمومة، وأيُّ عاطفةٍ تستطيع الزعم بأنّها أكثر تجرّداً واضطراماً من عاطفة الأمّ، وأكثر تفضيلاً للغير على النفس؟ ومنّ منّا، معشر الرجال، يستطيع الادّعاء بأنّ عاطفة الأبوة لديه تضاهي عاطفة الأمومة قوّة وصفاً وكمالاً؟ من هنا تقدّم المرأة علينا في هذا المضمار، ومن هنا وجوب تسليمنا لها بهذا التفوّق بشعورٍ من الفخر بها والإعجاب، وتحية بطولتها والتخلّي الذاتي الذي تحقّقه، وهو المعجز المستحيل، بالسهولة التي نحقّق بها العاديّ من أعمالنا والبسيط؛ فهل كثيرٌ على المعلّمة أن نخصّها بعيدٍ ولو كان عيد المعلم يشمل كلّ العاملين والعاملات في الحقل التعليمي؟

لم أقصد بما قلتُ إقلاقاً من شأن المعلم في ميدان التضحية والبذل وقد ذكرت في مطلع كلمتي أنّه، بين أصحاب التضحيات، ذو قدرة خاصّة على الاندفاع والانسكاب، إنّما أردتُ أن ألمسّ اللين الاستثنائي الذي في قلب المرأة، والذي يجعل كلّ زفرة حرّى تُصعّد من كبِدٍ مقروحة تجرّح هذا القلب وتُدميه. لذا لم يكن من المستغرب أن تتحوّل المعلّمت إلى ملائكة رحمةٍ إلى جانب كونهنّ ناشراتٍ للعلم، فيكنّ أجنحةً ترفرف بنا في تسامينا إلى عالم النبل والعلاء والارتفاع عن أشياء الأرض.

وأنا شخصياً لي في تربة هذه الدوحة جذورٌ عميقة متأصّلة. لقد كنتُ، في النصف الثّاني من السّتينات^(١)، مشرفاً على التعليم في إحدى مدارس العاصمة، فما زلتُ حتى اخترتُ شريكة حياتي من بين معلّمتها وكأُنّني بذلك عقدتُ حلفاً مع الأسرة التعليميّة إلى الأبد.

قلتُ في المستهلَّ إنَّ المعلمَ يساوي بين اولاده وأولاد الآخرين؟ وأيُّ فرصةٍ تركها له التعليمُ للاهتمام بأولاده.. بله أن يكونوا في عداد تلامذته؟ أكاد أقول إنه المضحّي بهؤلاء من أجل أولئك، وإنه تبنّى مَنْ ليسوا من صلبه على حساب مَنْ هم من لحمه ودمه.

إنَّها الغيريَّة^(١) في أجلى صورها وقد تجسّدت فعلاً لا قولاً. فتحيّة لها، تحيّة للتجرّد وإنكار الذات، وتخطّي العوامل البشريّة بجبروت النفس الذي لا يتوافر إلاّ للمختارين من الناس.

ساحل علما في مجال الثقافة

نُشرت في كُتَيْب أصدرته فرقة ساحل علما الفنيّة بمناسبة مهرجانها الأوّل عام ١٩٧٧، وفي مجلّة "كسروان" - العدد ٩٢ - آذار ٢٠٠٢.

بين ساحل علما والثّقافة رابطةً قديمةً موصولةً حتّى قبل أن ينتشر العلم بين النّاس انتشاره اليوم. والتفسير الشّائع لاسم هذه البلدة أنّه، في الأصل، "ساحل العلماء" لكثرة أهل العلم بين أبنائها. ومنّ خالط العتّاق من نساءها ورجالها لمس استعمالهم الكلمات الفصحى في حديثهم، وحفظهم الشّعْر والأمثال العربيّة القديمة، تمامًا كما هي الحال في بعض قرى الجبل، حيث الرّاعي والفلاح لغويّان ضليعان، يعرفان كيف تُحرّك عين الفعل ماضيًا ومضارعًا حين يُشكّل الأمر على اللّغويّين المختصّين.

ولمّا كان التعمّق بالعلم في الماضي وقفًا على رجال الدّين فقد نبغ من ساحل علما بطاركة وأساقفة حاز كلّ منهم شهادة "الملفنة" حتّى غدا العامّة يشيرون إلى الواحد منهم باسم "ملفان البيعة" (أي الكنيسة). ثمّ كان منهم كهنة أعلام، أحدهم كان يعظ أعظم بطريرك في تاريخ المارونيّة وهو البطريرك الياس الحويّك الذي لم يكن يرتضي لنفسه واعظًا سواه. وكان هذا الكاهن معروفًا في جمعيّته^(١) بأنّه عالمٌ علامة، ولمّا انتقل إلى أميركا ذاع صيته بين المغتربين، وكان له ميّة تقويّة مشهودة خيلَ معها أنّه قدّيس^(٢).

١- جمعيّة المرسلين اللّبنانيّين الموارنة.

٢- هو الأب يوسف كميد، المرسل اللّبنانيّ وكاهن رعيّة كليفلند أوهايو في الولايات المتّحدة الأميركيّة، الذي سقط توتًا إلى الأرض ميتًا إثر إلقائه عظةً في القدّاس الذي أقامه بمناسبة يوبيله الكهنوتيّ الذهبيّ وقال في ختامها: "والآن أطلق يا ربّ عبدك بسلام".

ورُبَّ سائلٍ عن السبب في الاتجاه الفطريّ إلى الثقافة لدى أبناء "الساحل"، أو في "محبّتهم للحكمة" كما يُقال، ممّا ليس ميزة سائر المواطن الشعبيّة بالضرورة، فليس لدينا، في الواقع، جوابٌ قاطعٌ على هذا السؤال، إلّا أن تكون نزعةً طبيعيّةً في السكّان، أو وليدة عوامل بيئيّة نجهلها. ذلك لأنّ ساحل علما لم تُعرَف بمدرسة أو مدارس قديمة مشهورة كاشتهار "الروميّة" و"عين ورقة" و"بير الهيت" و"المزار"، مع أنّ بعضاً من معلّمي هذه المدارس كانوا من أبنائها. نكاد نقول إنّ "الساحليّين" وُهبوا محبّة العلم كما وُهب غيرهم محبّة التجارة أو السياسة أو الجنديّة، فنعمّ الموهبة، وشكراً للمغدق المنان.

وإنّنا، في معرض البحث عن السبب المذكور، لنقع على طرائف في تفسيرات القوم، منها أنّ الفضل في مزايا كلّ بلدة يعود إلى مائها. فالطفل ينهل مع الماء مثيل ما يرشفه مع الحليب من خصائص واستعدادات، وماء "الساحل"، كما يبدو، يحتوي على "ذائب الثقافة"^(١) كما يحتوي غيره على ذائب المعادن والأملاح.

مهما يكن من أمر فإنّ انجذاب أهالي هذه البلدة إلى العلم واللّغة واقعٌ راهنٌ لا يغيّر البحث عن أسبابه من حقيقته شيئاً. فالأحرى أن ننطلق من هذه الحقيقة الثّابتة بدلاً من الخوض في عللها ومكوّناتها، حتّى إذا ما فعلنا لاحت لنا أسماء باهرة في مجالات العلم والمعرفة وفنون الكتابة تؤكّد ما ذهبنا إليه من أنّ بين "الساحل" والثقافة رابطة موصولة لم تنقطع يوماً ولو راوحت ما بين فتورٍ وشدةٍ تبعاً لتقلّبات الزّمن ولتوافر عدّة العلم ووسائله. فالأخبار العظام في الماضي، والشّعراء والعلماء والفنّانون في عهدٍ غير بعيد، كلّهم حاضرون ليشهدوا لساحل علما بأنّها إسمٌ على مسمّى، فيها عناصر النبوغ تتدفّق مع المياه النّابعة من أرضها.. وتسيل مع الحليب الطّالع من أثناء الأمّهات.

١- أي على "محلّول الثقافة" بحسب التعبير الكيميائيّ.

شوق لم تنقع غُلته

نُشرت في مجلة "كسروان"، العدد ٩٢، آذار ٢٠٠٢.

لم أبصر فيها النور، ولا عشتُ في أجوائها، وبين بيوتها وجنائنها، بل خطَّ لي القدر أن أكونَ جار الشاطئ في "عروس الخليج"، وأن تحلَّ زرقة البحر أمام ناظريَّ محلَّ خضرة أشجار "السَّاحل" وألوان فاكهتها. ومع ذلك فقد كانت عيناى تشخصان دوماً إليها وهي ماثلة للنظر من بيتنا، فأتأملُّها منعصاً أن لم يبقَ لأسرتي فيها سقف ولا قطعة أرض، إذ غادرها والدي، بائعاً كلَّ ما يملك فيها، منتقلاً إلى "قاعدة القضاء" ليكون على مقربة من مكتبه وهو المحامي، وعلى مقربة من السراي حيث المحكمة والجلسات والمرافعات.

ولم يكن أحبَّ إلى قلبي من أن يُتاح لي تيمُّمها من حين إلى حين، عندما يأخذني الأهل بصحبتهم لزيارة، أو لواجب، أو لداعٍ من الدواعي.

مع كلِّ هذا البُعد الجسديّ.. البادئ منذ إطلالتي على الحياة لم أشعر يوماً في قرارة نفسي إلاَّ بأنني "ابن ساحل علما"، ولم تفارق تذكرة هويّتي الإشارة إلى أنَّ محلَّ إقامتي فيها ولو لم يكن هذا هو الحاصل في الواقع، لأنَّ محلَّ الإقامة "الرسميَّ" بالنسبة إلى دوائر الإحصاء هو حيث سجلَّ النفوس لا حيث السكن الفعليّ الذي قد يكون منتقلاً حسبما تدعو إليه الظروف.

ويبقى أنني ما زلت أجد العزاء في أنني، في النهاية، سيكون ترابها مثنواي، أسوةً بأبي وأمي اللذين يرقدان في ظلَّ أشجار كنيسة "مار نوهرا".

ومن الذكريات التي كانت ترويه لي والدتي أنني، وأنا صغير، كنتُ من ضمن عبثي الطفوليَّ أحمل سلةً في البيت وأنادي على "الأكي دنيا"، فكان نسيبنا من

جهة أمي، النائب الشيخ فريد الخازن، يفقهه ويقول مازحاً: "يا عكروت"، شو عرفك إنك من "الساحل"؟ ذلك لأن ساحل علما كانت مشهورة بثمار الأكي دنيا، وكان الباعة، لترويجه واستثارة الإقبال عليه، ينادون: "ساحلاني يا أكي دني" (بحسب لفظه العامي)، وأنا كنتُ إذ ذاك دون سنّ الوعي حتّى أعرف أصلي وفصلي.

أجل، لم أتخلّ أبداً عن انتمائي إليها، ولم يتخلّ عني أهل "الساحل" بدورهم وقد كان الوالد، فيليب أفندي، منهم في بؤبؤ العين، وقد عبّروا عن عاطفتهم تجاه ذكراه وتجاهي بمهرجانيين تكريميّين، الأول، للوالد، كان بمبادرة من صاحب مجلة "كسروان"، العزيز الراحل عصام زغيب، والثاني أقامته لي "الفرقة الفنيّة" في البلدة برئاسة الصديق الباحث الأستاذ لويس القسيس وبمشاركة عدّة هيئات ثقافيّة، وهما مهرجانان ملّاني اعتزازاً بانتسابي عائلياً إلى موئل العلم والعلماء يدلّ على ذلك إسمه، إذ أنّه، في الأصل، "ساحل العلماء"، وقد كانت "الساحل" بالفعل إسمًا على مسمّى وهي منجبة الأخبار "ملافنة البيعة"، والشّعراء، والصحّافيين، والأطباء، والمحامين، والقضاة والفنانين، ويكفي أن يكون منها البطريرك يوسف حبيش حبراً علّامة، والمطرانان يوسف حبيش ويوسف الخازن، رجلَي دينٍ كبيرين، وفؤاد أبي زيد شاعرًا عالميًا توجّبت مؤلّفاته الأكاديميّة الفرنسيّة، وشقيقه نبيه من ألمع المعلّقين السياسيّين في الصحّافة اللبّانيّة الصّادرة باللّغة الفرنسيّة، وفيليب كميد وبولس مراد محاميّين خطيبين وشاعرين كانت تهتزّ تحتها المنابر، وبولس نجيم قاضيًا ومحاميًا ومؤلفًا باللّغة الفرنسيّة، وتيوفيل مارون طبيبًا وأستاذًا في الطب كان الشرقيّ الوحيد الذي قبلَ عضوًا و"زميلًا" في الأكاديميّة الطبيّة الملكيّة البريطانيّة، وبببي زغبي رسّامة وفنّانة كانت لها معارضها النّاجحة في الأرجنتين ولندن وباريس، يكفي كلّ ذلك لنعرف كم أنّ تربة "الساحل" خصبة بالموهب المتنوّعة، هذا فضلاً عن الجيل الذي تلا جيل هؤلاء وفيه كلّ متقفٍ ألمعيّ.

شوقي إليك كبيرٌ يا "ساحلي"، وهو شوقٌ لم تُتَقَّ غُلَّتَه حتى الآن، أفلن تجودي
عليّ بمأوى في رحابك إلاّ ذلك المأوى الأخير؟

ذهب الذكر وعاد...

كلمة العائلة في الحفلة التذكارية للمحامي الشاعر فيليب كميد، معهد الرسل - جونية - ٨ تشرين الثاني ١٩٧٠. نُشرت في مجلة أصداء، الركن الخاص بمهرجان فيليب كميد، السنة السادسة - العددان ١١ و ١٢ - تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٧٠.

إنّه ذو حظّ بالوفاء.. أبي الذي غبرت من بعده الثلاثون دون أن يُكشَف عنه ستر، دون أن يُرجع إليه بذاكرة، دون أن يُنْفَض عنه غُبار.. هو الذي كان في زمنه ملء عين هذه المنطقة، وملء سمع ما يتعدّها.

ما أسرع ما كان نسيانه، وكنا نحن، آل بيته، في طليعة الناسين.

لقد ذهب الذكر مع جيلٍ عاصر الرجل وكان يروي من مواقفه ونوادره أشباه حكايات. وطالما رويت لي هذه القصص فأعطتني صورةً عن والدي، أنا الذي لا أذكر منه سوى طلّعه المهيب، تلك الهيبة التي ما كانت لتذوب إلّا في حنانه الأبوي.

كان لا بدّ، وأنا وحيد، من أن ينتقل إليّ إرثه الأدبيّ مع إرثه الباقي، فما أن وعيتُ حتّى اهتديتُ إلى آثاره في بيتنا، واهتديتُ على الأخصّ إلى تلك القصيدة - الوصيّة التي استقبل بها مجيئي إلى هذا العالم والتي تصحّ دستور حياة لكلّ إنسان. فطويتُ الآثار والوصيّة معاً، وإن أكن قد احتفظتُ بروح هذه في قلبي، ولم أفعل شيئاً لإظهار أدب والدي وشعره إلى النور أو للتعريف به في العالم الأدبيّ الواسع. كان لا بدّ أن تتفضي هذه الحقة الطويلة من الزمن قبل أن أُطلع أديباً صديقاً^(١) على ما بين يديّ من أوراق صفراء بالية ليست كذلك في

محتواها، فإذا به يعجب للثروة تبقى دفيناً وللذهب يُترك في أعماق المناجم، وإذا بي أسمع لأول مرة الإتهام بالتقصير في حقّ والدي وأسمع ضرورة بعث ذكراء من مطاوي النسيان.

لم يكتفِ الصديق بالرأي وهو الذي آمن بقيمة هذه الآثار، بل كان من قلمه على الأثر دراسة مطوّلة عن الشاعر المنسيّ كان لها، فوق استيفائها للموضوع، فضل توجيه الأنظار إلى هذا الشاعر لإحياء أدبه وإيلائه المكانة التي يستحقّها. وهكذا تكوّنت عصبه من الأوفياء تريد تكريم إنسانٍ اعتبرته مُلك المنطقة الكسروانيّة ولبنان، لا مُلكاً لعائلته وحدها، وطالما نعت عليّ احتكاره وضنيّ بحقيقته وآثاره على الناس، وانضمت إلى هذه العصبه متفضّلةً هيئاتٌ جليّة في هذا الوطن، فلم أملك، إزاء هذا الوفاء المجسم، إلّا الإذعان، وكأنّما كان ذلك لأشهد على يد جميعكم اليوم، مكرّمين وخطباء ونخبةً كريمة حاضرة، أنّ الوفاء لا يزال بخير، وأنّ القيمة الحقيقيّة للأشخاص والأشياء لا تضيع وإن خفيت إلى حين.

إنّه ذو حظّ بالوفاء، هذا الذي أسعده الله بالمنصفين من بني قومه، أولئك الذين إذا ضاع الوفاء فعندهم ملّتناه.

حظّ أتمناه لكلّ مُوقدٍ شمعَةٍ على طريق النور في بلادي.

غريقة فضل، وأسيرة عاخفة

كلمة العائلة في الحفلة التذكارية للمحامي الشاعر فيليب كميد بدعوة من مجلة "كسروان" وعدة منتديات أدبية، وذلك في "القاعة الزرقاء" بمدرسة راهبات العائلة المقدسة المارونيات في ساحل علما، يوم ١٨ كانون الثاني ١٩٨٠. نُشرت في عدد مجلة "كسروان" الذي صدر على الأثر.

عهده بالنعمة قصر.. ذلك الطفل، وأيام العزّ تولّت عنه سراعا. لم يتعدّ سنّي العمر الطريّ شعورا بالعيش في كنف والدٍ عظيم، إلاّ أنّه عاش مدّة بعد ذلك في أبهة ذكراه، ثمّ سقطت الهالة مع زوال الجيل الذي عاصر الرجل وحفظ له في قلبه الحرمة التي تتناسب مع معرفته بمن كان في الرجال. يا لتقيّو ظلّ أبوة ماجدة كم يشكّل عبئا على صاحبه، إنّ حياته تغدو عبارة عن جهدٍ موصول لصون كرامة الانتماء. يبقى الاعتزاز بالنسبة، وهذا له عدله، أو ما يربو عليه، في أن تجد أسرة الكبير الغائب شركاء وفاء لذكراه وقد تألفوا عُصبا أحرص على هذا الذكر من الموكلين به أصلا.

فالفضل الغمر يطوق اليوم أعناق من يمتّون إلى هذا المكرم، وهي الثانية من نفحات الجميل التي تهبّ عليهم، وقد كانت أولى نسائمه منذ عقد من السنين. عائلة فيليب كميد هي إذا، مرّة أخرى، غريقة فضل، وأسيرة عاطفة، ونشوى بالتقدير الذي يصادف عميدها وهويعود فينة بعد فينة إلى المخيلات والأذهان. هذا الذي رعى حقّ الأخوة حتّى لم يتّجه بالفكر وقد قرب أجله إلّا إلى إخوانه فقال:

ما لي سوى توديع أرباب الوفاء، قَوْمٌ غَدَوْتُ بِحُبِّهِمْ أُخْتَالُ
فعلَيْهِمْ مِنِّي السَّلامُ ومنْهُمُ أَبَدًا عَلَيَّ مِنَ النُّكَا سَيَالُ
فليذكروا زَمَنًا مَضَى ولنا بِهِ عَهْدٌ لَهُ بِالْعَاشِقِينَ كَمَالُ

كما قال من قصيدة أخرى وهو يكاد أن يكون في الرمح الأخير:

شئتُ الوداعَ أَحَبَّاءَ حَفِظُوا المَوَدَّةَ والوَلَاءَ
أحبابِ قَلْبٍ لَمْ يُرُونِي قَطَّ فِي الدُّنْيَا جَفَاءَ
فإليكمُ يا معشرَ الخَلَّانِ، يا أَهْلَ الوَفَاءِ،
نَفْثَاتُ حُبٍّ مِنْ حَبِيبٍ فَيْكُمُ يَجِدُ العِزَّاءَ
زوروا ضريحي بعد موتي واغرسوا غصن الإخاء

هذا المتعبّد للصدّاقة، يضيء لها الشموع على هذا النحو، كم كان يتيه زهوًا
بإخوانه هؤلاء الجدد، المتخلّفين اليوم حول إسمه لم تكفهم أربعون سنةً من
الغياب لجعله ينطفئ في واعياتهم.

باسم فيليب كميد وعنه، وباسم عائلته، أزجي الشكر للذين أرسلوا فيه غوالي من
دُرِّهم، وللذين أعاروا مناسبتة وقتًا وإصغاءً، وللّواتي، من المنقطعات لله والعلم،
أوسعن لهذا الاحتفال فسحةً رحبةً وصدراً أرحب، ولأسرته المعنوية، أسرة
المحاميين، التي عاش في أحضانها عشرين عاماً ولم تكن هي المرّة الأولى التي
ترعى فيها تكريم ذكراه، وأسرتي أسرة الصّحافة، التي لم يكن والدي غريباً
عنها على انتسابه أساساً إلى سواها، وللقائم وراء هذا التكريم، يُسدي المنّة بعد
المنّة لذكرى مَنْ أنبتت هذه المنطقة من أعلام، فيما تنهض مجلّته الزّاهرة
برسالة الأدب والفكر في دائرة المنطقة وما يتجاوزها إلى الأبعد^(١).

١- الذّاعي إلى الاحتفال، صاحب مجلّة "كسروان"، المرحوم الشّاعر عصام زغيب.

وأملّي أن يجدَ الرأي العامّ في مثل هذا التكريم تكريماً للقيم اللبنانيّة لا لشخصٍ من الأشخاص، وتحيّةً لأرض هذا الوطن الخصبة التي تُتجب الأفذاذ كما تُنبِت الخير، ويطلع منها الرجال المُردّ كما يطلع القمح.. وتنمو الورود والأعنان.

"قضايا التعليم والمدرسة الخاصة"

تقديم محاضرة للمونسنيور أغناطيوس مارون، مدرسة السيّدة - ساحل علما.

منذ أكثر من ربع قرن وهو يحمل المدرسة الخاصة على كتفيه، ولا يعرف قوّة هاتين الكتفين إلّا مَنْ عرف ثقل هذا العبء. ومن العجيب أن يكونَ هذا الناهض بالتبعية الكبرى، والموكّل بمصير المدرسة الخاصة في لبنان، خلواً من مدرسة تخصّه. فلقد اتّحد بالمدرسة بوجهٍ عامّ، بالمدرسة التي هي المدارس كلّها مجتمعة، لكنّ أيّة مدرسة بعينها ليس له فيها سهم أو نصيب، وهكذا جسّد التجرد بالصورة العمليّة الملموسة.

الأب أغناطيوس مارون هو الإنسان المناضل من أجل بقاء المدرسة الخاصة في هذا البلد، التي تعيش اليوم وسط عوامل متعدّدة ليست ملائمةً لها على الإطلاق. فأمام اتّساع نطاق التعليم الرسميّ والتشجيع الذي يحظى به، وأمام نشوء المدارس ذات الطّابع التجاريّ المحض والتي اصطُلحَ على تسميتها بالكاكين، وأمام موجة توجّه أبناء القادرين إلى الخارج لإتمام دروسهم الثّانويّة هناك، وأمام نموّ المدارس الليليّة والتقنيّة التي تستقطب عدداً كبيراً من التلامذة.. تجد المدرسة الخاصة المحترمة نفسها في وضع يزداد حرَجاً يوماً بعد يوم، فتضطرّ إلى أن تحاربَ على عدّة جبهات.. معتمدةً على تفهم العائلة اللبنانيّة لهذا الوضع ومساعدتها لمدرستها المفضّلة على اجتيازه.

ولا تقلّ القضايا التعليميّة الصّرف صعوبةً عن ذلك، وفي هذا الشأن أيضاً نجد للمونسنيور مارون مشاركةً خيرة بهدف تطوير التعليم في لبنان وإصلاحه حتّى يسيرَ والتقدّم العالميّ في هذا المجال جنباً إلى جنب.

وهو، الكاهن، لا تغيب عنه أهمية الناحية الروحية في التربية، فيحرص على أن يبقى للمدرسة الكاثوليكية طابعها المميز من حيث اعتبارها أن ليس بالعلم وحده يحيا الإنسان، كما لا يحيا بالخبز وحده، وأن الهواتف العلوية يجب أن تهتف هي الأخرى في الصدور لأنها الغذاء الحقيقي.

عن هذه القضايا كلها ربّما، أو عن غيرها، سوف يحدثنا المحاضر الجليل، جاعلاً إيانا نحيا هنيئاً في جوّ مشاغله الفكرية والعلمية التي أصبحت جزءاً من حياته بل كلّ حياته.

في اجتماع من اجتماعاتنا به سمعته يقول إنه لو طُلب إليه تلخيص شريط عمره بكلمات لجاء تعبيره عن ذلك أنه عاش حياة مجنون. لكنّ جنونك، أبت، هو الجنون الخلاق، جنون صاحب الأحلام الكبيرة، ذاك الذي يندفع إلى عملٍ مُجهّد ليس فيه فترة من راحة وليس فيه أية ثمرة لصاحبه بالذات؛ وهو، هذا الجنون، الذي لولاه لما كانت فتوح في العلم وكشوف، ولا تغيير في العالم وتبديل. إنه ذلك الجنون المغامر، لا يتهيب الخطوة الأولى التي يسير بعدها "العقلاء" أشواطاً في الاتجاه الذي خطّه لهم "المجانين". ونحن، في بلادنا التي تشكو من كثيرٍ من أوجه النقص، ومن العمل الروتينيّ البطيء النمط والمحدود الأفق، لو قُدِّرَ لمجنون كسعيد عقل مثلاً أن يوضع على رأس إدارة ثقافية غير عادية، جعل بتصرفها اعتماد غير محدود، مطلق من عقال القيود والشكليات القانونية، ويُقال له: "إشتغل".. لأمكنكم أن تتصوّروا معي أيّ منجزاتٍ في حقل الثقافة كان يحقق لوطنه. ولو قُدِّرَ لمجنون آخر كموريس الجميل أن يلقي من يفهم حقيقة تصاميمه الفذة فلا يُنعت بالخيالية والجنوح إلى الوهم، وأن تُخصّص الإمكانات والوسائل لإخراج هذه التصاميم إلى حيّز الواقع، لكان لبنان قد أصبح، بالفعل، جنة عدن الموعودة إنّما بشكلٍ علميٍّ وعصريٍّ.

على هذا المثال هو جنون محدّثنا الليلة، هذا الرائد في حقل الرسالة التربوية وقد اكسبها وأكسب مفهوم التعليم، بدراساته ومقترحاته، معنى سامياً ليس على

المدرسة اللبنانية إلا أن تسعى إلى تجسيده بتكوينها وعملها حتى تكون قد حققت غايتها المثلى وبدأت تؤدي مهمتها على الوجه الأكمل. "قضايا التعليم والمدرسة الخاصة"، هذا ما سيجدثنا عنه الأب مارون، وهو، طبعاً، كما تعلمون، من مواضيع الساعة.

السفير فؤاد الترك ولبنان الذي نريد

نُشرت في جريدة "الحديث"، وفي مجلة "الديبلوماسية".

دعوة السفير فؤاد الترك إلى اعتماد لبنان، من قبل الأمم المتحدة، مقراً دولياً لحوار الأديان والحضارات والثقافات تأتي من ضمن الهمّ اللبناني الذي يعصف في صدره ويتجلّى في كلّ ما يخطّه قلمه أو يفوه به محاضراً أو خطيباً أو داعياً. فلم نقرأ له يوماً إلاّ ما ينمُّ عن هذا الهاجس لديه، ولم نسمعه مرّة إلاّ لاح لنا انشغاله بقضية وطنه دوراً ومستقبلاً ومصيراً. وها هو، في محاضرة ألقاها في الربوة برعاية غبطة البطريرك غريغوريوس لحام منذ عامين ونصف، وقد سمعنا مثلها مؤخراً في منتجع البورتيميليو بدعوة من نادي اللّيونز، يطرح أسئلة تتعلّق بهذا الموضوع، بادئةً بما هو مبرّر وجود لبنان، ومارةً بالصورة التي نريدها له انتماءً وشكلاً دستورياً، ثمّ بقيمتة التي يراها مرتبطةً بالدور الذي يؤدّيه على الصعيد العالميّ، خالصاً من ذلك إلى أنّ هذا الوطن، بحكم موقعه الجغرافيّ وتعدّد طوائفه وتنوّع شعبه، ونظراً لماضيهِ الغنيّ، وتراثهِ العريق، مؤهّل لأن يكونَ وطناً نموذجياً لحوار الحضارات. فما سمّاه البعض بصراع الأديان والحضارات والثقافات يجب أن يتحوّل إلى حوار بين هذه الأرصدة المتراكمة ممّا أفرزته الأمم والشعوب عبر التاريخ، فكانت في ظاهرها متباينة أو حتّى متناقضة، ولكنّ العقل المحلّل والعين البصيرة يريان جوامع مشتركة بينها ينبغي استثمارها وتفعيلها لتحلّ محلّ القواسم التي تفصل بينها، وعندها يلتقي الجميع على إيديولوجيّة واحدة تأخذ من كلّ لون من ألوان هذا الإرث

الحافل أفضل ما فيه، فيسود السلام بدلاً عن التقاتل والحروب، ويتمّ التفاهم عوضاً عن الاختلاف، وتزول العصبية والأحقاد مفسحةً المكان للإنسانية الشاملة التي ينتسب إليها الجميع، والأخوة العالمية الناجمة عن كوننا كلنا من منبعٍ واحدٍ وأصلٍ واحدٍ، ثمّ تعدّنا وتكاثرنا وتفرّعنا فروعاً كما تتفرّع الأسرة الواحدة عندما يتكاثر عدد أفرادها ويؤسّس كلٌّ منهم عائلة، فنتشعب الأغصان وتغدو الأسرة الأصلية أُسرًا متعدّدة ولكنّ ذلك لا ينفي تحدّرها جميعاً من جذرٍ واحدٍ وجدٍّ واحدٍ هو الأب الأعلى للجميع.

أن يصبح لبنان مقراً معترفاً به دولياً كمقرّ نموذجيٍّ لحوار الحضارات، يقول فؤاد التّرك، هو ما يعطي لبنان هويته الحقيقية ومعناه، بحيث يشعر كلّ إنسان إلى أيّ دينٍ انتمى، وإلى أيّ طائفةٍ أو لونٍ أو جنسٍ أو معتقدٍ، بأنّه في بيته تماماً، وأنّه يمارس حريته الكيانية على أكمل وجهٍ في السرّ والعلن مع احترام متبادلٍ مع الآخر، وهذا ما يؤمّن للبنان الحماية والحصانة والتعاطف والدعم وبقية غدرات الزمان.

فؤاد التّرك، في هذا التطلّع الذي لا يقف فيه مرمى نظره عند حدّ، يجعله أحد حكماء هذا الوطن الكبار الذين استشفروا الأبعاد المترامية المدى لدور لبنان ومستقبله بروية نافذة تخترق الحُجب، وإلهام نبويٍّ لا يُتاح إلاّ للنخبة العالية من قادة الرأي وآباء القضية الذين يسير على هديهم لبنان.

... والتراث أيضاً ضحية القصف

نُشرت في جريدة "النهار"، على أثر إصابة بيت المؤرخ جوزف نعمه في بعثا بقذيفة.

ما لحق بلبنان في الماضي والحاضر من دمار سببته الحروب والقصف المتبادل لم يهدم من معالم العمران بيوتاً فقط، أو قصوراً أو أبنية عامّة بمعنى دكّ حجارتها ونسف أسسها وتقويض أركانها، بل ذهب الدمار أيضاً بتاريخ وتراث يمثّله بعض الصروح العريقة التي شهدت عصوراً من حياة هذا الوطن، وضمتّ دفائن من كنوزه الأثرية والتاريخية أو أوت رجالاً كباراً من أبنائه لمعوا على الصعد السياسية والفكرية والعلمية والأدبية وعلى كلّ صعيد.

من هذه البيوت التي أضحت رموزاً لوجوه الحياة اللبنانية في الحقب أو المراحل المختلفة التي مرّت على هذا الوطن، والتي أصابها الأذى الشديد مؤخّراً بفعل القذائف التي لا ترعى حرمة للقيم الرفيعة وجلائل الأمور، بيت العالم المؤرخ جوزف نعمه في بعثا، الذي أصابه الجنون الحاصل اليوم بما حوّل ما له من رصيدٍ معنويٍّ ثمينٍ إلى ركام، وما له من مكانةٍ معتبرةٍ لدى مَنْ يعرفون فضله إلى أسطورة تُحكى لأنّه كادَ أن يصبح الآن أثراً بعد عين.

هذا البيت، الذي فعلت فيه السنون الطوال التي انقضت على إنشائه فجعلته ككلّ إرثٍ باقٍ من الزمن العتيق، كان في أيام عزّه أشبه بالسرايا لا بالبيت العاديّ، وقد بُني على أجمل صورة من صور العمارة اللبنانية في وقته، فكان منظره يخطف بصر القادم إلى بعثا قبل أن يلفتّه أيّ معلّم آخر في البلدة، إذ يُطلّ عليه بهيبة وجلال، فيعرف المشاهد مسبقاً أنّه ذخيرة تاريخية، وبقية حيّة من تلك الصروح الدارسة التي أتت عليها موجة المباني الحديثة الخالية من كلّ معنى،

والتي لا توحى بشيء إلا بطابعها التجاري الذي ينتشر اليوم على حساب الفن والأصالة والذوق.

وهذا البيت ضمّ بين جدرانه أعلى الوثائق التي تتعلّق بتاريخ لبنان، وهي وثائق فريدة لا تُسخّ أخرى عنها في أيّ مكان، كما ضمّ مكتبة نادرة بمخطوطاتها وكتبها القديمة التي أصبحت مفقودة في يومنا، فضلاً عن القطع الأثرية والعاديات التي جمعها صاحبها المؤرّخ الكبير أو ورثها عن أسرته ذات الماضي المجيد، والتي لعبت دوراً هاماً في تاريخ مسقط رأسها دير القمر وفي تاريخ لبنان عموماً.

وهذا البيت كُتبت تحت سقفه صفحات حفظت للبنان ذخائر من تاريخه لولا اليد التي سطرّتها لصاعت في مطاوي النسيان. فلبنان يجب أن يشكر يد جوزف نعمة التي ما حرّكت يراعاً إلا لترسم على الورق ألوان الحياة اللبنانية في كلّ عصرٍ من العصور، وتُحيي ما يكاد يضمحلّ من تقاليد لبنان وفولكلوره وفنونه الشعبية.

ولقد كنّا شخصياً نتردّد على هذا البيت الذي يختزن تاريخ لبنان في عهد ساكنه الجليل، فنقف على ما فيه من نفيس وثمانين، هذا الذي قضت عليه اليوم، أو كادت، مع الصرح الذي يأويه، متفجرة هي رسول الهمجية إلى الحضارة، ورسول الجهل إلى المعرفة، ورسول التقدّم الكاذب، البارع في إنتاج آلات القتل والتدمير فيما نفوس منتجيها ما زالت تقبع في أبعد عصور الجهالة والظلام والبدائية.

وقى الله لبنان أرضاً وشعباً وتراثاً من نتائج هذا "التقدّم"، وأبقاه شاهداً على الرقيّ الحقيقيّ في وجه الرقيّ المزيف، واللاحضارة العاملة تحت ستار الحضارة والمدنية.

في تكريم أنطوان خويري لدى إهدائه وساماً

جامعة الروح القدس - الكسليك.

هذا السّابح في أجواء لبنان، لا يرى من الدنيا غير الجبل القائم عل باب القارّة
الآسيويّة لجهة الغرب، ولا يستنشق غير أريج الأرز والصنوبر في شوامخ هذا
الجبل، ولا تستريح يداه، بعد أن يفرغ من مسّ قلم وأوراق، إلّا على خشونة
الصخر والتراب في مسافاتنا، وأكاد أقول إنّه لا يحلم في هجوعه إلّا بغد لبنان
الأنور.

هذا الطائر بجناحين من أجنحة العقبان في ذرانا، ميمّا نحو الأجيال الآتية
يحمل لها من أمسنا ويومنا التجربة والعبرة.
هذا الذي لو خيّر لجعل الأبجدية كلّها حروفاً أربعة كرّر واحد منها مرّتين..
كيف لنا أن نكرّمه التكريم الموازي لما يستحقّ؟

إنّ التكريم الذي ينشده لهو في أيدينا: أن نفهم حقيقة لبنان من خلال ما
استخلصه في أبحاثه، وأن نعي دورنا كلبنانيين في وطننا وفي العالم، وأن
نستفيد من عبّر الماضي لتدارك العثرات في المستقبل.. وأن نحبّ لبنان كما
أحبّه.

بذلك نكون قد وفّيناه حقّه، وألف احتفالٍ عند ذاك لن يكفي للتعبير عن شعوره
وشعورنا.

إنّ أنطوان خويري ينعم وتقرّ عينه عندما يصبح لبنان الحلم الذي يضحّ في
رأسه واقعاً يحياه هو ونحياه نحن،

عندما يزول الفارق بين المثال والحقيقة المجسّدة،
عندما ينتفض لبنان من رميمه ويلد الأبطال جماعاتٍ لا فرادى، أمّا قائدهم
فالشعب بأسره.
عند ذاك يشعر أنطوان خويري بأنّه حقّق الغاية من وجوده، وبأنّ حياته لم
تذهب هباءً، فهي قد أسهمت في ولادة لبنان الجديد.
وذاك، عندئذٍ، هو الوسام غير المنظور على صدره.. وأيُّ وسام!

صخرٌ يجود بالماء

أُقيمت في ندوة بدار الأدبية إنصاف الأعور معضاد في عاليه، ونُشرت في مجلة "الرابعة" الصادرة عن رابطة خريجي معهد الرسل، العدد السنوي ١٩٩٨.

بعيداً عن تناول أثر، وإبداء رأي في عطاء، كلمتي اليوم. فالكلمة الأكاديمية، ولو إيجابية كانت، لاجمة للعاطفة، وقد عانيت، في ما كتبتُ سابقاً عن صديقي جورج طرييه، هذا الكبت للحب.

لذلك ها أنا الآن منطلقٌ على سجيّتي دون قيود، لا يحدثني سوى الصدق في التعبير عن شعوري نحو الإنسان الذي صداقته متعة، ومقاربتة حظّ، والدخول في عالمه نزهةً في مجالات ذات أبعادٍ وأبعاد.

الصداقة مع جورج طرييه ليست علاقةً ثنائيةً بين طرفين، إنه والصديق يغدوان واحداً أو توأماً روح: صديقه يلزم ذهنه كالقرينة لا يبارح تفكيره، ففي كلّ توجهٍ من توجّهاته يلتفت إليه، وفي كلّ ما يسنح له يأبى انفراداً بالأمر، فيسير إلى السانحة والتحرك مزدوج، والخطوة خطوتان.

ومجاورة جورج طرييه انفتاحٌ على مصادر غنى ذاتيٍّ يُستمدُّ منها للعقل أشهى غذاء. فالمعدن هو من تلك الثمينة، والجوهر جوهر. ومن كانت هذه طبيئته، ومن هذه الجبلة عنصر نفسه، لا يعدو مادته صدأ، ولا تصدأ بالتالي كنوز منجمه المعطاء.

أمّا مسافاته الداخليّة فمدوّاتٌ لسياحةٍ لا أمتع. إنّ جمال الروح يُبهج القلب كما جمال الطبيعة يُبهج العين. ناهيك بمحطّاتٍ في الرحلة تقف بك عند كلّ غورٍ من أغوار هذه النفس، فإذا بك تكشف من غواليها خبيئاً هو، لغنيّ العقل والخلق هذا، من زائد الثراء.

كنتُ في مسيرتي معه غائصًا، سابرًا للأعماق، فما وجدت لديه ظاهرًا وباطنًا، بل صفحةً بيضاء، طافيةً كانت أم غائرة، بياضًا لا يشوبه عكرٌ. وكنتُ في مرافقتي إياه أعجب من نشاطٍ يقوم فيه فردٌ مقام مجموعة، أما الإنفاق فمن فلس الأرملة، ويأتي النجاح بعد ذلك وكأنَّه ثمرة مجهودٍ ضخمٍ توفرت عليه مؤسساتٌ غير محدودة القدرات.

هكذا الإيمان بالرسالة يستنهض الهمم، فلا يُثبِط الواقع المرُّ عزيمةً ولا يُفتر حماساً بل بالعكس يولد إرادة التحدي، ولنا أن نشهد عندئذٍ كيف تتمُّ الأعجوبة فيجود الصخر بالماء، وتنتزع من العدم الإمكانات، ونحتفي كلُّنا بالنتيجة الباهرة غير ملتفتين إلى ما كلف الوصول إليها من جهدٍ وبذلٍ وتضحيات. فيا أخي جورج، ربيب وعر الشعاب.. تعلمتَ منها كيف السير وسط وعورة الحياة، دامت لك هذه الصلابة، دام صمودك الذي لا يتزعزع، دامت لك الشعلة المتقدة في النفس الوحيدة العزلاء فتدفعها إلى اجتراح المعجزات.

ذات المدد السخيّ

في ندوة عن الشاعرة إنصاف الأعور معضاد، في بيت البروفسور جورج طريبه، مستيتا - جبيل.

شذا روحها شممته من بعيدٍ قبل أن يتسنّى لي نشق هذا الفوح من فم الزهرة مباشرة.

صديق أديب جاده الحظ بمعرفتها قبلي نقل إليّ الفكرة ساميةً عنها.
كان ذلك وهي بعدُ في غضاضة الصبّا، مطلّة على الأدب إطلالة الواثق،
ومترفعةً في غمرة ابتذال لم تستتكف عنه أخريات حاملات أقلامًا غير صلبة
العود، فكانت بين قلّة ممّن يحرّكن يراعهنّ بأصابعهنّ لا بأصابع الغير.
وعرفتّها، فكان أوّل حديث لها معي إبداءً لرغبتها في تكريم أديب. وفي كلّ لقاءٍ
تالّ كان إسم أديب جديد، معدّ للتكريم، يطفو على لسانها. وفي بيتها كُرمٌ
مكرّمها اليوم، وقد أولتني شرف المشاركة في الحلقة التي انعقدت على إسمه
يومذاك.

دائمة التفكير بكل رصيفةٍ لها ورصيف، غافلةً عن نفسها، وواجفةً من مبادرة
تستهدفها آتية من صديقةٍ أو صديق. وأنا على يقينٍ من أنّها اليوم وُضعت أمام
الأمر الواقع على يد ندّها وصنوها في تكريم الأدباء، الشاعر والعالم والأديب
البروفسور جورج طريبه.

فلتسمح لي، إذا، بأن أقولَ فيها ما يطابق إسمها: كلمة إنصافٍ لها ولعطائها
الأدبيّ والشعريّ، هذا إذا كان ميسورًا إنصافها قدر ما تستحق.
في ماضٍ يعود بنا سنّة عشر سنةً إلى الوراء أهدتني ديوانها "كلُّ قادم هو".

فتحته متلمساً فيه الخصائص التي تميز الشعر النسائي، فكانت أول لمعة طالعتني فيه أن الشاعرة "تمهر إسمها فوق الأفواه".
أعجبتُ بالتعبير المبتكر، بالصورة التي لا يمكن أن ترسمها غير امرأة. وتابعتُ، لأجدَ العالمَ عندها، العالمَ على وسعه، يصغر أمام الحلم، والواقع يندمج بالأسطورة عندما أطلَّ عليها مجسماً مَنْ كان في أشواقها الفارسَ الذي يُنتظر ولا يأتي، ولأجدَ الحياة تُختزل في لحظة، بينما الدقائق والساعات تغدو مسافاتٍ دهرية.

كلُّ ذلك ليس مجرد كلماتٍ تتوخى الطرافة بأن تحيلَ الأمور إلى عكسها، بل هي ذات أبعادٍ نفسية، إذ إننا لا نشعر شعوراً ما إلا انطلاقاً من الحالة الوجدانية التي تغمرنا أثناءه. فكم نفذ منا الصبر في هنيهة، وكم مرّت علينا الأوقات طوالاً فما كدنا نحسّ بانقضائها.

وأوغلتُ في الكتاب، فاستوقفتني أن مَنْ انفتحت له من الشاعرة أبوابها المرصودة دبّ ديبه في دمه.. بمعنى نفاذه إلى عمق روحها وكيانها. صورة تحمل أكثر من التفنن في التعبير، إذ تزيد هذا الأخير قوة إحياء بالمعنى المقصود، فيفقه القارئ بأشدّ وضوحاً طبيعة الشعور الذي يخالجه صاحبه في هذه الحالة، حيث تسري في عروقها ارتعاشة تُحسّ معها بأن ذلك الفاتح القادم، ذلك المجتاح، يتغلغل فيها مع الدماء المناسبة في هذه العروق.

أمنيته في الحياة، وقد عبّرت عنها في كتابها، أن تكونَ وجوهنا حقاً وجوهنا، فلا نستعير أقنعةً ولا نكون إلا نحن. صدقها مع نفسها تريده سمة للجميع. داعية إصلاح هي؟، لا بل مقدّمةً بشخصها نموذجاً إنسانياً إذا عمّ استنساخاً طُهرت من فسادها وشرّها الأرض.

إنصاف الأعور معضاد.. نحبها ما حلت روحاً وسمت خلُقاً وحلّقت شعراً.
صديقي الذي ذكرته في مطلع كلمتي، واسطة التعارف بيني وبينها عن بُعد، وقد أنفَ المتهالكات عليه راغباتٍ في شبابه وكان صَبوحاً، ما زلت أذكر أيّ

إِعلاءٍ لشخصٍ إنصافٍ كان يتلألاً به حديثه. كلمته الجوهرية كانت أن سحرها الذاتي يزيد نقاؤها جمالاً، والعذوبة التي تقطر منها، وجاذبها الخفي الأسر، هما ما أعيش عليه وأغتذي به، قال، إذا نشد غيري في النساء مغرياتهنّ الباقية. أجل، إنَّ الشَّبعَ الروحيَّ هو الشَّبعُ، وأبو شبكة الشاعر خبرَ ذلك بعد إغراق له في الخنى، فصاح يستغفر الله:

رَبِّاهِ عَفْوَكْ إِنِّي كَافِرْ جَانِ، جَوَّعَتْ نَفْسِي وَأَشْبَعَتْ الْهَوَى الْفَانِي

وما أغنى شاعرتنا إنصاف بهذا المدد السخي الذي يدفق منها ويُسبغ الأرواح.

في ندوة مع ليلى العثمان

أُقيمت في منزل الأديب حسان خوري، الحازمية - مار تقلا.

في الخمسينات من هذا القرن أصدرت فتاة لبنانية قصّة طويلة بعنوان "أنا أحياء" .. استقبلتها الأوساط الأدبية بدهشة وأحدثت ضجةً كبرى في لبنان والعالم العربيّ، وظلّت أصدائها تتردّد طويلاً في تعليقات النقاد وعلى صفحات الجرائد والمجالات.

لم تَعنِ المعلقين يومها الناحية القصصية بحدّ ذاتها لدى كاتبة ناشئة كانت هذه باكورة إنتاجها، بل عناها منها جرأتها في كسر الطوق المضروب على المرأة في بيئة محافظة اشتهرت بالتشدد البالغ حدّ التزمّت، وبالتجافي البالغ حدّ الانغلاق. لقد كان التحديّ كبيراً، فأحرزت القصّة انتشاراً واسعاً، والتهاني التي وردت على صاحبها كانت أكثر بكثير من مواقف الاستهجان والإدانة التي كان لا بدّ من أن تصدرَ عن ذوي العقليّة التقليديّة ممّن يأبون الخروج على الأعراف الاجتماعيّة المألوفة.

كانت "أنا أحياء"، لمؤلّفتها ليلى بعلبكي، أوّل إسفين دُقّ في أساس البنية الاجتماعيّة القائمة في محيط صاحبها، وعندما تلتها إصدارات غادة السمان وهند سلامة وديزي الأمير اتّسعت دوائر أعين المتجلببين برداء التحجّر وفُغرت أفواههم استنكاراً، ولكنّ رصاصة الرحمة أُطلقت على هؤلاء من قِبَل الشّاعر نزار قبّاني عندما نعى الشرق في حشيشه وأفيونه وأظهر أنّ النكبة العربيّة إنّما جاءت من هذا التّفوّع لا من التحرّر والانفتاح.

هذه الانطلاقة الشُّجاعة من تلك الرائدات الأوليات اللواتي ركبْنَ في ما فعلْنَ
مركبًا خطرًا لا يُقدَّر مداه، جاءت تتوجّها اليوم أدبية طالعة من أشدّ الأوساط
العربيّة محافظةً وأكثرها ختمًا على المرأة طيّ أستار الخدور، وقد تولّدت
ثورتها من المعاناة التي لقيتها، والتي قابلتها بمقاومةٍ يعجز عنها الرجل الرجل،
فكيف بالأنثى التي لا يُقبل منها، في العقليّة السائدة حوالِها، سوى الطاعة التامة
دون مناقشة أو حتى دون إبداء ملاحظة.

وإنني أتمنى أن يكون بين الحاضرين الآن مَنْ سمع المؤلّفة تحكي قصّتها من
على منبر "الأوديسه" منذ أشهر، ليلمس كيف أنّ القهر لا يقضي على الأفكار
المتوتّبة، بل يزيدها عنادًا وإصرارًا على الظهور وفرض نفسها تطبيقًا
وممارسة، والمثل كلّ المثل في أدبنا ليلي العثمان.

الأب شربل أبو خليل مجموعة مواهب مكرسة لله

تعددت مواهبه، فكرسها جميعاً لرَبِّه، شعراً ورسمًا ونحتًا ومسرحًا وألحانًا، وكلّ ما يخطر لك من تجلّيات العقل. فلم يترك مجالاً إلّا وله فيه لمسة من يد، أو مرورٌ بريشة، أو ترخيمٌ لحجرة وإطلاقٌ لنغمٍ أوتار.

لقد كان باستطاعته أن يعتلي السدّة في أيّ حقلٍ أراد، فالسبل مفتوحة أمامه وليس بينها ما هو عصيّ عليه؛ فأشاح عن عديد الفرص المتاحة له والمشرّعة أمامه أبوابها واختار الانزواء في ديرٍ موحشٍ تجانب سكناه أخوته الرهبان واقتبله هو واجدًا فيه مملكته ونعيمه.

كتابه "طريقي إليك" أراده سيرة حياة، فإذا هو فيه جواب آفاق، ومدوّن تواريخ لا يعيبها أنّها اقتصرّت على بلدةٍ وعائلةٍ لأنّ كليّتهما ضاربة الجذور في التربة اللّبنانيّة وفي أصول أعرافها.

تجول فيه، فإذا أنتَ ببستانٍ فيه من كلّ فاكهةٍ زوجان. تطالعك نصوص باسقة هي جنى ما زرع صاحبه من الغراس الأصائل، والشواهد أمامك ناطقة: رسومًا، أو نوطاتٍ موسيقيّة، أو اعترافاتٍ وشهاداتٍ ممّن وقفوا على عطاءاته وانحنوا أمامها تقديرًا. أمّا المسحة التي ترين عليها فهي المسحة الروحيّة؛ فكلّ ما وهبه الله من رصيدٍ ذاتيّ ردّه إليه ثمارًا حاليّة المذاق، بالغة النضج والاختمار، تتطق بشكره تعالى على منّه وكرمه.

فلتَهْنَأْ، أبت، في معتزلك المُلهم، لا زلتَ فيه تلدُ الولائدَ بهيّة الإطلالة، كريمة المحتد، صادقة الانتساب إلى مقلع الجواهر الثمين.

في مآدبة رامز عازار*

غرزوز، الأحد ٣ تمّوز ١٩٨٨.

... ولنا في كلّ عام حُجَّةٌ إلى هذا المقام. فحين يعزُّ اللقاء على الأخوان، وتبعد الأيّام السوداء ما بين رفاق العمر، يجمعهم صاحب هذا البيت، وكأنّه بيت الأُمَّة تتقاطر إليه الوفود من كلّ ناح، وينعقد فيه الشَّمْلُ الشَّئِيت، فتجود القرائح بعد نضوب، وتُخصب العقول بعد جفاف، في الزَّمن القاهر الذي عمَّ القحطُ وأشاع البوار، حتّى غدّونا بحاجةٍ إلى مناسباتٍ موحية كهذه التي تجمعنا الآن، وحتّى غدا القادر كمضيفنا على تحدّي الواقع القاسي ممّن يُبحث عنهم وتتّجه إليهم الأنظار كلّما مللنا ما نحن فيه، وانتفضنا في داخل ذواتنا على وضع خانق يُطبّق علينا ولا نستطيع منه خلاصاً.

رامز عازار.. وهو يقيم عكاظاً سنويّة، ومحفلاً للشعر والأدب، إنّما يُكْمِلُ السلسلة من أبناء هذه العائلة^(١) الذين أعطوا، في الشعر والنّقد والقصة، جزل العطاء وإنّما يُكْمِلُ السلسلة من الغراززة الآخرين^(٢)، الذين اقتعدوا، في شعر المهجر، مكانةً طليعيّةً لم يكشفهم فيها أعلام المهجريّين الكبار، ولم يسحب

* كان السيّد رامز عازار يقيم سنويّاً في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات، أي في خضمّ الأحداث اللبنانيّة، لقاءً في بيته ببلدة غرزوز، تتخلّله مأدبة غداء، ويجمع فيه عدد كبير من الأدباء والشعراء والزجّالين والصحفيّين، وهذه كلمة في أحد هذه اللقاءات.

١ - الشّاعر المهجريّ سليم عازار، والقاصّ الناقد نسيب.

٢ - أمين مشرق ونعمه الحاج، الشّاعران المهجريّان.

الزمن ذيله عليهم بل ما زالوا حاضرين في كل تطرُّق إلى شعرنا في المقلب الثاني من الأرض.

رامز عازار هو اليوم أخو البطولات في إعادته حياتنا إلى ما كانت عليه في عهد لبنان الجميل، وفي تذكيرنا بماضيها القريب الزاهي. فما كان يبدو عادياً في ذلك العصر الذهبي أصبح نادراً في هذا الزمن الرديء، في عصر الانحطاط هذا الذي انحدرنا إليه من شاهق.. وما زلنا، رغم كل شيء، نأمل بالعودة إلى تلك المراقي العالية ما دام بيننا فريق أو أفراد كرامز عازار يرفضون الأمر الواقع ويحاولون دفعه بعزيمة من حديد.

هذا والمناسبة التي نلتفُّ حولها أحلى المناسبات هي. فالعزيزة على قلب أبويها^(١) عزيزة علينا جميعاً، والبهجة مدينة لها في إرخاء ظلالها على هذه الدار. مدَّ الله في عمر البهجة هنا وفي حنايا صدوركم، وامتَّعنا طويلاً وإياكم بصداقة رامز عازار.

١- إبنة صاحب الدار التي كان الاحتفال بعيد مولدها يومذاك.

الجزء الرابع
كلمات وداع

عاشق الوهم... صلاح لبكي

نُشرت افتتاحية في مجلة "الرسالة" على أثر وفاة صلاح لبكي - عدد آب ١٩٥٥.

أنا بانتظار غدٍ جيء ولا يراني بانتظار

ولم يطل انتظار صلاح، إذ وافاه الغد المشؤوم الذي انتظره هو ولم نكن ننتظره له. فكأنما قضي على نهضتنا الأدبية الحديثة أن تُقعج باكراً بخيرة أعلامها ولا تنعم منهم إلا بإطلالة عابرة لا يتسنى لهم معها أن يلفظوا كلمتهم العليا. وهكذا من فوزي المعلوف إلى صلاح لبكي، مروراً بالكثيرين، تمتد سلسلة من الملهمين الذين كان بإمكانهم، لو طال عهدهم بالحياة، أن يرقوا بأدبنا المعاصر إلى ذروة سامقة، هذا على كون ما تركوه ليس شيئاً ضئيلاً، حتى أن بعضه كاد يلامس الأعالي.

لقد أحبَّ صلاح لبكي من أجل الحب. أحبَّ ليُبقى على الحب في الأرض. وارتضى حباً لا يرجي شيئاً منه، بل ارتضاه حباً يهلكه ويُفنيه على أن يسلم هذا الحب:

أهـوالك دون رجاء، أهـوالك حتّى انتهائي
ويسلم الحبُّ بعدي من عاديّات الفناء

وتعلّق صلاح بحبيبته كالمعجب بها من بعيد، لا يهّمه نوال، بل كلُّ همٍّ أن يُحب:

ألنور يهدي، لا يُنال ولا يؤمّل بالنوال

وعشق الوهم عالماً أنه كذلك، بل عشقه لأنّه كذلك، فللوهم إطار سحري يغلفه ويجعله أروع من الحقيقة:

فالحلم يُعشَق حُلماً ويُفتدى بالهناء

وهكذا فالحبُّ عند صلاح هو من طرازٍ جديدٍ يوافق الشعرَ أتمَّ الموافقة. حبُّ ليس للذات فيه حساب، يرفع الهوى إلى مستوى الأمومة بانسكابه في المعشوق وفنائه فيه:

أنا يا هوائي إذا قضيتُ أَسَى عليكِ فلا تُبالي
هل يسأل الزَّهر النديُّ عن المولِّه بالغوالي؟

قلب صلاح، إذاً، فريد بين القلوب، فلا بدَّ أن يكونَ لشعره طرافة خاصة، ونكهة لا نتذوقها عند سواه.

والآن وقد طوى الموت صلاحاً.. فإنَّ عزاءنا هو في جمع آثاره غير المنشورة ودفعها إلى الطبع؛ فلعلَّ زمنًا طويلاً قد يمرُّ قبل أن نذوقَ مجدداً طعمَ مثل هذا الشعر المتفرَّد في لونه بين ألوان الشعر العربيِّ المعاصر.

ميشال نعمة في "انطلاقه" إلى غير عودة

كُتبت في مجلّة "الرحمة" إثر وفاة ميشال نعمة عام ١٩٦٥، ونُشرت بعد زمنٍ في جريدة "الحديث"، في سياق مقالٍ عن ميشال نعمة، وفي مجلّة "الصّحافة اللّبنانيّة" في سياق المقال نفسه.

كما يستجيب العصفور لنداء الفضاء استجاب ميشال نعمة لداعي الموت.
كأنّ تلك الريشة الحلوة ملّت صحبة الحبر والورق، فتاقت إلى الكتابة على صفحات الغيب.. بحبّات الأثير.

أيّ انطلاقةٍ فاجعةٍ هذه التي انطلقها ميشال بعد ذلك "الانطلاق"^(١) البعيد المجيد!
وأيّ نهايةٍ تافهةٍ آلت إليها الأعمال الكبيرة، والمشاريع الضخمة، التي كان يُعدها!

ميشال نعمة.. عمل لدنيا الأدب وكأنّه يعيش أبداً.. هو العارف بأنّه سيموت في الغد.

منذ سنوات وهذا الكيان البشريّ يصارع الداء.. ثمّ يقوم بالأعمال التي يعجز عن مثلها من أوتوا من العافية ما فوق الكفاية.
من الصّحافة الأدبيّة إلى ندوة المحاضرات، إلى النّشر والتعليم.. تمتدّ سلسلةٌ خيرةٌ من العطاء الجزل، الذي أغنى المكتبات والعقول خلال فترةٍ ما عابها غير القصر.

لقيته يوماً، فأفضى إليّ باعتزامه إصدار سلسلة كتبٍ تلقي ضوءاً على ما في مطاوي تاريخنا، وتضاعيف تراثنا، من جليل وباهر.. وفريد بين الشعوب.

١- إلغازٌ إلى مجلّته "الانطلاق" التي حقّقت فعلاً انطلاقةً ناجحةً في الأوساط الأدبيّة.

ولقيته يوماً آخر، فإذا به متألّم من وقوف المادّة عقبةً في طريقه.. حين الإرادة والقدرة على العمل متوفّرتان.

وكان آخر ما حدّثني عنه من أمانيه إصدار منشوراتٍ من أدب الطفولة: أدباً يُكتب للأطفال مسلّياً وموجّهاً، ويتضمّن في الوقت نفسه عناصر الأدب الصّحيح الرّقيع.

أن تكتبَ للأطفال دون أن تتحدّر بالأدب عن مستواه.. ذاك أحد المطامح الجريئة التي كانت تمرّ في صدر ميشال نعمة.

هل كان مصير هذه المطامح الفشل؟ لا، الفشل صعب، ومُذلّ أحياناً، ولكنه غير سخيّف؛ كان مصير المطامح المتطاولة إلى العلاء تكوُّماً سخيّفاً في حفرة.. مع بقايا صاحبها.

هنيئاً للإنسان أنّه غير عاقل.. عكس ما يعتقد نفسه، وإلاّ كيف كان سيجد العزيمة للقيام بأيّ عمل طالما أنّ من يصل حتّى إلى الأفلاك العليا والكواكب قد لا يستطيع في اليوم التّالي أن يبقى ثانيةً بعدُ على وجه هذه الأرض.. فيواري في قلبها؟

شاعر الندادة والبلل يتوسّد ثرى لبنان البليل الأخطل الصّغير يودّع الحياة بعد أن ملأ الحياة

نُشرت في مجلّة "الرحمة" على أثر وفاة الأخطل الصّغير، السنة الرّابعة - العددان السّابع والثّامن - تمّوز وآب ١٩٦٨.

أيّ جيلٍ انطوى وأعلنت نهايته بانطواء علّمه الفريد، والرّجل الذي ملأه وشغله على أروع ما يملأ إنسانٌ جيلَه وعلى أفضل ما يشغله، الشّاعر بشارة عبدالله الخوري، الأخطل الصّغير وأمير الشعراء!

أيّة حقبة غنيّة خُتمت! حقبة كنّا معها في عصرٍ ذهبيّ، وكنا نفخر بأننا نعيش في عهد الأخطل الصّغير كما كان يفخر غيرنا بأنّه يعيش في عهد المتنبّي أو المعريّ، أو في عهد راسين أو غوته!

كفى الأخطل الصّغير أنّه أوّل من أدخل الندادة والبلل على القصيدة العربيّة التقليديّة المحافظة التي لا تحمل التأثير الغربيّ البادي في شعر أبي شبكة وسعيد عقل، وأوّل من نظم القصيدة العربيّة الجارية على النمط القديم بشكل ورقة الورد لا بشكل عمود الرخام أو جذع السنديان العتيّ، فكان بذلك في الشعر صنوّ جبران في النثر، باعتبار أنّ جبران كان أوّل من أحلّ القطعة النثرية الوجدانيّة الرقيقة، المكتوبة بلغة بسيطة معتمدة على حرارتها الدّاخلية وضوئها، محلّ القطعة النثرية البيانيّة المصنوعة صنعاً، التي تعتمد على السّجع والجناس، وعلى ألف العوبة من الألاعيب اللفظيّة اللّغويّة دون أيّة فنيّة ذاتيّة ومددٍ من طاقة داخليّة، هذا ولو كان جبران يختلف عن الأخطل الصّغير بتأثره بالغرب.

هذا الشّاعر الفدّ، الذي خسر به الشّعر العربيّ أميرَه ولبنان بلبله الغريد، كما خسرت به الصّحافة اللّبنانيّة عميدها وشيخها الحبيب الوقور، هذا الشّاعر هو

الذي نذرف اليوم دمعاً حرّى على غيابه، لأنّه ظلّ، رغم سنّه المنيفة على الثّمانين، محتفظاً بأنسه وخفّة روحه وحلاوة مجلسه، فكان الفتى يجلس إليه ولا يملّ، والحسناء اللّعوب تهفو إلى زيارته وكأنّها ذاهبةً إلى حفلة طربٍ أو إلى نزهةٍ ممتعةٍ للنفس.

فعزاءً بالأخطل "الكبير" المودّع بعد أن زان مقامه في الدّنيا وشرفّ هذا المقام، عزاءً يذهب إلى أسرة الشّعر عامّةً، وأُسرة الصّحافة، وإلى لبنان والأُمّة العربيّة، كما يخصّ آل الفقيد الكريم بالطريّ من بلسمه، والرّطيب المندى من عواطفه، جعلهم الله، وفيهم الأبناء النجباء، خير عوضٍ عن الخسارة الكبيرة، وجادَ على الشّعر العربيّ بمنّ يسدُّ فراغ الأخطل الوسيط.

القائد الذي أضحى شعاراً

كُتبت في مجلّة "أصداء" يوم مصرع العماد جان نجيم في الحادثة الجويّة المعروفة، وظهرت بعدئذٍ في كتابٍ من إعداد الأب ميشال حكيم (المطران في ما بعد) حوى كلّ ما قيل في العماد الشهيد إثر مقتله.

لقد نذر الجيش دمه فداءً عن لبنان، وله في كلّ يومٍ وفاءً لهذا النذر. قدّم منذ نشوئه زهرة شبابه على مذبح هذا الوطن، وتوجّج تضحياته اليوم بتقديم قائده الأعلى شهيداً، مُثبتاً بذلك أنّه لا يغلو عنده احد، ولا يضمنُ بأحد، في سبيل لبنان.

أجل، عندما يقدّم الجيش أرواح بنييه في سبيل وطنه لا يسأل مَنْ يقدّم من بينهم، ولا يميّز واحدهم عن الآخر. كلّهم سواءٌ لديه أمام الأغليين: الواجب ولبنان، وقيمة دمهم تُقاس بالفائدة التي يجنيها لبنان من بذله.

لقد خسر الجيش بغياب العماد جان نجيم جندياً وقائداً أعطى الجنديّة والقيادة كلّ حقّهما عليه، لكنّ هذا الجيش لم يخسر الصفات العسكريّة، والمناقب والإخلاص، التي كانت تحلّي شخص القائد الغائب، والتي هي تراثٌ في جيشنا ومزايا موزّعة بالتساوي بين أبنائه، تولّف الذخر الباقي الذي لا يذهب بذهاب الرجال.

العماد نجيم.. كان قائداً، فأضحى شعاراً.

كان جندياً، فصار شهيداً.

كان مثلاً بحياته العسكريّة، فأصبح مثلاً بميتته العسكريّة.

وغداً.. عندما يبحث أبنائنا عن وجهٍ في تاريخ وطنهم يتخذونه قدوةً لهم وملهماً بسيرته والأمثلة التي أعطاهما ستطالعهم أسماء كثيرة، وسيكون من بينها إسمٌ منورٌ بهي الحروف هو إسم العماد جان نجيم.

في جلال الصمت المطبق أمام رهبة الموقف نكاد نسمع الصوت الذي كان إلى
الأمس مدوياً في آذاننا يردد:

"إنّ الدماء الزكية التي بذلها رفاق لنا فداءً عن الوطن ستظلّ ترسم أمامنا طريق
الواجب لنسير عليها أبداً نحو الهدف الذي كنّا لأجله.. فيبقى على المدى لبنان".
لقد أبصر القائد الطريق.. وسار عليها، وبدوره يرسم لنا الآن طريق الواجب
لنسير عليها نحن ومن يأتون بعدنا، فيبقى على المدى لبنان، وهو وحده الذي
يهمّنا بقاؤه.

أيّها الشهيد الحيّ،

قبلك كانت الشهادة شرفاً ولا تزال، غير أنّ الشهيد بعدك سوف يحظى بشرفين:
أنّه استشهد في سبيل وطنه، وأنّه مات على غرارك، فيقال في تكريمه إنّهُ سار
على خطى القائد البطل.

ويا شهيد الجيش ولبنان،

إنّ الجيش الذي حيّا جثمانك بالسلّاح المنكّس يحيي روحك في خلودها، ويقدم
إجلاله لذكراك، معلناً وفاءه للعهد الذي قطعه باسمه يوم تولّيت قيادته من أنّه
سوف يظلّ أبداً في مستوى الرسالة التي يحمل، وسيستمرّ في العطاء ليبقى
لبنان سيّداً كريماً.

فنمّ هائناً في تراب وطنك، إنّ لك في ذلك أجزل مكافأة؛ وما لن يرقد معك في
أطباق الثرى هو خصالك ومناقبك ومزاياك، وتلك الإنسانية الفدّة في الرجل
الذي قال.. وهو في اللحظة الحاسمة بين الحياة والموت: "إعتوا بسواي،
واتركوني أنا".

... وجاءني الدليل إلى أنطون قازان في عليائه

نُشرت في جريدة "الجريدة" على أثر وفاة أنطون قازان في ١٠/٣/١٩٧٣، ثم في مجلة "الإرشاد الاجتماعي" الصادرة في طرابلس.

يا صديقي،

قبل موتك ما كنا نعلم أن المعجزة البشريّة هي أيضاً، ككلّ المعجزات، تمرُّ كاللّمح.

قبله لم نكن نعلم أن مُتَع الفنّ العالية عمرها كعمر المتعة قصير. لقد طالما عجبْتُ، وأنا أصغي إلى سحرك، من أنك واقع ولست أسطورة، فإذا عجبني يتبدّد الآن، وإذا أنت، في أثرك وخبرك، أسطورة الأساطير.

منذ خمس وعشرين سنة عرفتُك، فما أن لمستُ الثروة التي تتطوي عليها نفسك حتّى جزعتُ عليك، وما زلتُ في جزعي إلى أن بتُ أكذب نفسي أخيراً وأطمئنّها إلى أنّ خوفي لا يقوم عليه دليل.. حتّى جاءني الدليل الأكبر.

يا صديقي، يا أخا ربع القرن،

لقد كان للوشائج العديدة التي تجمعنا أن تُضاف إليها واحدة، فترافقنا مدى سنتين في "مجلس كسروان الثقافي"، هذا المجلس الذي كانت خطبتك الافتتاحيّة في تدشين انبعاثه دستوراً وبرنامج عمل، وها هو مجلسك اليوم يطالبك بتنفيذه.. ويتساءل حائراً كيف، للمرّة الأولى، تمضي ولم تجسّد بعد كلمتك في فعل حي؟!

ويوم ضفرتَ عقدًا من آياتك على جبين والدي الغابر^(١) كان ذلك تكريسًا لأخوة
بيننا، ولأواصر عائلية ترقى إلى زمن الوالدين كليهما.
ويوم كنا نعدُّك للمستقبل، أو نعدُّ بك المستقبل يا لسعده لو تحقَّق الوعد، إذا بك
تجمع الحاضر والمستقبل معًا ولا تجود بكثيرك إلا على سحابة الماضي
القصير.

يا صديقي، يا مكرم أبي،
إطلائك على عالمنا الأدبي حرَّرتَه، لفترة، من طغيان العاديِّ عليه والرخيص،
وها له الآن إليهما عودة.
فمن ملقياً عن كاهلك العبء، إن عاثر الحظَّ يأبى أن نشارف العالمية في عطائنا،
فيختطف منا أبا شبكة وقازان في عمرٍ واحدٍ وكأنَّه القدر المقرَّر المرسوم.
وحده هذا التحدي لا نملك لردِّه سلاحًا.

١- مثل أنطون قازان نقابة المحامين في الاحتفال التذكاري لوالدي المحامي الشاعر فيليب
كميد الذي أقيم في القاعة الكبرى بمعهد الرسل - جونية يوم ٨ تشرين الثاني ١٩٧٠.

بولس سلامة على خطى سابقيه

نُشرت في مجلة "الجندي اللبناني" على أثر وفاة بولس سلامة.

واحدٌ من البقية الباقية يلحق اليوم بالركب، فقد كان الشعر في لبنان يتعزى بأنه باقٍ له بولس سلامة، أمّا الآن فالأرض موحشةٌ والديار...

غياب "أيوب العصر" يحتاج لاحتماله صبراً أين منه صبر الأيوبيين معاً على مصائب دهرهما. فإنَّ حقبةً كاملةً من عمر أدبنا الحديث انطوت آخر صفحةٍ من صفحاتها، والسلسلة التي بدأت منذ الأربعينات تفقد حلقاتها الذهبية برحيل عمر فاخوري والياس أبي شبكة و خليل مطران.. تجد حلقتها الأخيرة تسقط اليوم ولا يبقى من الكوكبة الوضيئة غير الذكرى.

صاحب "عيد الغدير" و"عيد الرياض"، الصرحين الشامخين في الشعر الملحمي لا في لغتنا فقط بل في شعر الملحمة إطلاقاً، والقاضي الذي أقعده المرض الطويل عن القيام بوظيفته فربحه الشعر والأدب وكان لهما منه ثروة وأية ثروة، هذا الذي صارع داءه قرابة ثلث قرن منه عقدان من السنين في الفراش دون حراك، فكان جبار جسمٍ وروح في مقاومته وتجلده وإيمانه، هذا المارد.. هوى في نهاية المطاف كما يهوي الطود أو القلعة الشامخة، ولأول مرة يجد لبنان نفسه بدون بولس سلامة، ويجد الأدب والشعر العربيّان خميلةً كبيرةً في مروجهما وقد خيم عليها الفراغ.

ولا يمكن أن نمرّ على شخصيّة الراحل الكبير دون التوقّف عند بولس سلامة اللبناني، هذا الذي كان صخرةً قُدّت من شعاف هذا الجبل وأشياره الصلبة المنيعه. فكم من قصيدة له في الوطن الصغير الذي رآه وسع الدنيا.. ولم يغادره مدى حياته إلا التماساً للشفاء عند قَدَمي صانعة العجايب في "لورد".

أجل، مات بولس سلامة وعلى شفّتيه بيتاه الخالدان اللذان خضّب بهما جناح
لبنان:

جاور الأنجم واحتلّ السحابا جبلٌ مُهد للفردوس بابا
تستحمّ الشمس في مفرقه وإذا غابت ففسراً واغترابا

دياميس انقلبت أعماراً من النور

أُقيمت باسم نقابة المحرّرين في احتفال أقيم بعد جناز الأربعين للصحفّية الشاعرة ماري دوين بركات، في قاعة كنيسة السيّدة الحبشيّة، غزير - ٢٢ آذار ١٩٩٢.

أليوم أدركت غاية مطافها، تلك التي ما كانت حياتها إلّا صبوّة دائمة إليها. أليوم بلغت نهاية الشوّط، فسنونها على الأرض تُختصر بأنّها رحلة في سير صاعد إلى الذروة التي ما بعدها ذرى. ماري دوين.. ما رأيّتها يوماً إلّا عينيّن مشدودتين إلى أعلى، إلى تلك النقطة المترامية ما وراء حدود الكون.. حتّى لكأنّ قبة الجوزاء لا تشكّل سوى محطة أولى في الطريق اللامتناهي نحوها.

باللغة التي كتبت فيها دعيتها "أوميغا"، وأنشدتها قصيدة هي من روائع الشعر الذي لا يطغى عمق الفكرة فيه على الوهج الفنّي فيخدمه. إنّها نظريّة تيلار دو شاردان في نزوع أجزاء الكون المتباينة نحو الوحدة والتكامل.. في اتّجاهها من التنافر إلى التآلف، من الاختلاف إلى التجانس ومن النقص إلى الكمال، في تطوّر مستمرّ يرقى بها من حضيضها إلى الأفلاك العليا حتّى معانقة "الكلّ" الأعظم، ذلك المطلق الذي لا تهدأ الكائنات إلّا متى ارتاحت في أحضانه.

نظريّة لا تتسع لشرحها المجلّدات صاغتها ماري دوين في قصيدة من سبعة عشر بيتاً، فأعطت صورة ساطعة عن هذا السعي الحثيث للوجود والإنسان إلى بلوغ ذلك المرمى المُمعن في البُعد، ومع ذلك فالعلم، إذا أجدنا الملاحظة، يُرينا أنّ الذوات والأشياء تنتظم كلّها في مسيرة قاصدة إلى بلوغه:

صعّدي نحو الله أتيّتها النثارة من الغبار،

فالروح يسكنك، ونفسه يؤنسك.

صَعْدِي نحو السَّمَاءِ الأعلى الذي يجذبك فتننشينَ به، وواصلني ارتقاءك يا
أنشودة الكون.

إتبعني الطريق النارية؛ أسلكيها ولتُلهب، كشوك النار، الأوداء والتلال.
وليوسم بها إلى الأبد ما لا يُحصى من الجباه،
ونحوه، الكائن الأسمى، لترتفع هذه الجباه في نشوة وخذر.

صَعْدِي، صَعْدِي نحوه، وواصلني ارتقاءك..
أيتها الطاقة المشعة، أيتها الحمية الكونية.
يا ولادة مقدسة من اللاشيء.. إنَّ نجمة تناديك.
نجمة في أوج العلاء: يا للرؤيا الفاتقة!

ذلك أنَّ الحبَّ الذي يقود خطاك حبُّ عظيم..
يمجد كلَّ أجناس الأرض معاً،
ويوحد جميع القلوب في حزمة ضوء،
حزمة واحدة من الحبِّ توحد جميع السواعد.

كلهم يتقاطرون نحوك.. أيتها الإله الواحد، يا قمة القمم.

هذه القصيدة سارت بالتوازي مع مضمونها حياة ماري دوين. لقد جسدتها في
توقها وسلوكها، ثم عجلت الخطو إلى اللقاء الذي حلمت به على الدوام.
ونحن الذين ما زلنا ندبُّ على هذه الغبراء.. لن يكونَ في مأملنا أكثر من أن
نبلغَ من الصفاء والتسامي ما بلغته ماري دوين فنستحقُّ ما استحقته.
لقد ذهبت في طلب العلم إلى مدينة النور باريس، فقسمت وقتها ما بين الجامعة
والدياميس حيث تُعقد الحلقات الروحية.. بينما هي محاطة بمرايع اللهو والمرح.
وعادت إلى موطنها تعطي الشعر والصحافة، وفي كليهما كان عطاؤها سعيًا
دائبا إلى ذلك التجوهر في النفس الذي يؤهلها لعناق من لا يُحد.

فمن أسرة المحرّرين، ممثّلةً بنقابيتها، عزاءً بماري دوين لنا نحن المشدودين بعد
إلى نوازع هذا التراب، وغبطةً لها في مراتعها العلوية، حيث الدياميس المظلمة
التي كانت ترتادها انقلبت أعماراً من النور تلتفّها إلى غير انقضاء.
لنا القدوة، ولها السعادة والخلود.

في وداع جورج أبو سعدى

كلمة الرثاء باسم أصدقائه الأدباء يوم مأتمه، باحة كنيسة مار فوقا، غدير - جونية، ١٩ آذار ١٩٩٣.

ها قد وافتك الرّاحة الكبرى؛ فهي أُعدّت للمتعبين، وهل يصدق على حياتك عنوان أكثر من أنها كانت تحملاً لأتعب؟
أجل، تعباً وجدتها الحياة، فما رغبتَ منها بازدياد، والسّحابة من العمر التي قضيتها على هذه الأرض جرّرتَ أذيالها رغماً عنك.
ألموراء كان هاجسك الدائم؛ حيناً خلته عودةً ثانيةً إلى الدبيب فوق هذا التراب، وحيناً نفيتَ عنه كلّ وجود، وفي معظم الأحيان كانت الحيرة جوابك على السؤال الكبير.

الجواب.. ها هو في متناولك الآن، فمن مهازل ما نحن فيه أننا لا نستطيع امتلاك مفتاح السرّ إلّا متى غبنا عن الأسرار والبيّنات معاً^(١).
جهاد الجبابة جاهدت، ولكنّ حصادك كان وفيراً، فالأربعة الذين استقدمتَ إلى العالم ينطبق على كلّهم اسم بكرّك الحبيب. إنهم "جناك"^(٢) من هذا الجهاد، ونعم الجنى إذا كان على هذا المثال.

١ - لم يقصد الكاتب من هذه العبارة إلّا حبكة أدبيّة، فليس قصده منها إعلان رأي ميتافيزيقيّ يتعلّق بعالم الغيب والمصير بعد الموت، بل افترض صحّة المفهوم الشائع للموت من أنّه الغياب الكلّي عن عالم الحسّ.

٢ - إسم نجله البكر "جناي".

أما الشريكة التي تركتها مهیضة الجناح فقد اعتادت السهر والعناء من أجلك حتى باتت تفتقدهما في غيابك، ومن كان الوفاء والبرّ بالعهد حافظه إلى الخدمة لا يستمرئ الانقطاع عنها حتى ولو في ذلك راحة له ومهادنة. وبعد.. فالإخوان الذين تحلقوا حولك منذ قريب من الزمن فرحاً بصدور إحدى نفثاتك، يتحلّقون اليوم حولك من جديد وقد انقلب فرحهم وجوماً. فرحيلك يعني لهم أكثر من مغادرة إنسان لهذه الدنيا؛ إنه القبس من النور الذي ساهم في إزاحة جزء من العتمة التي تحيطنا يكفّ الآن عن الومض، والجعبة المملأى، التي لم تتضب بأربعين كتاباً أفرغت فيها من ثمارها، انكششت فجأة عن العطاء.

باسمهم جميعاً، هؤلاء الإخوان، أقول فيك كلمة الوداع، ولنا معك عهد بأن نظلّ رعاة لمن وما أبقيت بعدك: أسرتك المكلومة، ومولّدات فكرك التي ما زالت طيّ الخفاء، عسى الحظوظ تحالف بأن يكشف عنها الستر، ففيها أنت حيّ على الدوام.

تركت لنا إرثاً غالياً

نُشرت في العدد الخاص من مجلة "كسروان" الذي أصدرته عقب وفاة مؤسسها وصاحبها الشاعر عصام زغيب، العدد ١٠٥ - كانون الأول ٢٠٠٣.

أَيُمْكِنُ لِمَنْ لَمْ يَسْعَهُ رَحْبُ الْأَرْضِ أَنْ يَسْعَهُ بَاطِنُهَا؟!
أَيُمْكِنُ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ يُوْغِلْ إِلَّا صُعْدًا أَنْ يَغْوَصَ فَجْأَةً فِي الْأَعْمَاقِ؟!
لَقَدْ طَالَمَا عَتَبْتَ عَلَى رَبِّكَ أَنْ لَمْ يَخْلُقْ لَكَ جَنَاحَيْنِ لِلطَّيْرَانِ، فَمَا بِالْكَ ارْتَضَيْتَ
لِسَكَانِكَ فَسْحَةً ضَيِّقَةً فِي التُّرَابِ؟!
بَارًّا بِالْعُهُودِ كُنْتَ، فَكَيْفَ نَكُنْتَ عَهْدَكَ بِأَنْ نَعِيشَ مَعًا وَفَارَقْتَنِي دُونَ كَلِمَةٍ
وَدَاعٍ؟!

بداية الطريق كانت في المجلة، وقد جعلتها لي بمقدار ما هي لكَ عندما حملتني
مسؤوليتها، وتوجتَ وفاءكَ للصدقة بتكريمكَ ذكرى والدي في احتفال مشهود،
فأصبحتُ وإياكَ في وحدةٍ عضويةٍ.. لحمتها العمل المشترك، وسداها أخوةٌ لا
تتفصم عُراها.

وحين سُدَّتْ أُمَامِي سَبِيلَ الْوَصُولِ إِلَى بَيْتِي فِي جُنُونِ الْعَقْلِ وَالْمَدَافِعِ كَانَ لِي مِنْ
بَيْتِكَ مَأْوًى، وَمِنْكَ حَفَاوَةٌ أُنْسَتَنِي مَا صَادَفْتُهُ مِنْ مَخَاطِرِ الطَّرِيقِ وَقَدْ كُنْتُ غَيْرَ
وَاثِقٍ مِنْ بُلُوغِ نَهَايَتِهَا.

فِيَا أَخَ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، لَقَدْ حَبَسْتَ عَنَّا سَرَّاءَكَ وَمَا سَخَوْتَ بِغَيْرِ الضَّرَّاءِ،
لَكِنَّكَ تَرَكْتَ لَنَا إِرْثًا غَالِيًا:

"كسروان" التي جعلتها بمجهودك في مصافِّ المجلَّات الرَّاقِيَّةِ، والتي كان لي
أَنْ أُرَافِقَهَا مِنْذُ الْمَهْدِ.. وَلَنْ يَدْعَهَا خَلْفَاؤُكَ أَنْ تُطَوَّى فِي لَحْدٍ بِإِذْنِ اللَّهِ.

فَنَمَّ مَرْتاحًا إلى أَنَّ الأمانة هي في أيدٍ أُمينة، وجعل الله من وحيدِكَ خيرَ خلفٍ لأبيهِ المغادر.. برعاية أمِّهِ التي لن تجدَ عزاءَها إلَّا به، وهي تراك في طلعة وجهه، وتنتظرُ عودتكَ بشخصه إذ يكبر ويحمل عنكَ الراية التي حملتها بجدارة: راية الشُّعر، والأدب، والصُّحافة، وغلِيان الرُّوح، ولمعة الذكاء.

رُبَاعِيَّةُ جَانِ كَمِيدٍ
فِي
دَارِ نَعْمَانَ لِلثَّقَافَةِ:
مَجْلَدُ وَجَائِزَةٍ وَدِيَوَانٍ وَتَكْرِيمٍ

أتمت دار نعمان للثقافة، عام ٢٠١٠، رباعية التكريم الخاصة بالشاعر والصحافي والناقد جان كميد، وذلك بإنجاز أربعة استحقاقات خاصة بالمحتفى به:

ففي استحقاق أول، أصدرت الدار "سياحات مع الشعراء والأدباء والفنانين"، وهو مجلد من ٦٥٦ صفحة من الحجم الكبير، يضم مجموعة كبيرة من تحليلات المؤلف و/أو لقاءاته خلال حياته الأدبية والصحافية الطويلة حول و/أو مع عدد كبير من الشعراء والأدباء والفنانين اللبنانيين المعاصرين، كما مع بعض الأدباء العرب. وهكذا، من الأخطل الصغير وأبي شبكة وأبي ماضي وجبران والريحاني والمعالفة، إلى أمين نخلة ومارون عبود وشارل قرم ورثيف خوري وبولس سلامة ويوسف غصوب وفؤاد أبي زيد وأنطون قازان وم تري نعمان ورشدي معلوف؛ ومن عمر الأنسي ونقولا قربان وبول غيراغوسيان وزهراب، إلى عزيز أباطة ونزار قباني وآخرين كثر، ينقل كميد القارئ والباحث إلى عالم مميز من التحليل الأدبي والفني، والنقد الرأقي البناء، في مجالات الأدب والفنون كافة.

وأما الإنجازان، الثاني والثالث، فترافقا: إذ نال جان كميد إحدى جوائز ناجي نعمان الأدبية الهادفة للعام الحالي ٢٠١٠، هي جائزة الأديب متري نعمان للدفاع عن اللغة العربية وتطويرها؛ وتمت، للمناسبة، طباعة ديوان له بعنوان "أضغته العمر"، من ضمن سلسلة "الثقافة بالمجان"، جرى ويجري توزيعه من قبل دار نعمان للثقافة، وبالمجان.

وأما الإنجاز الأخير فتمثل بتكريم ناجي نعمان، من خلال صالونه الأدبي الثقافي ("لقاء الأربعاء")، الأستاذ جان كميد. وقد شبّه نعمان ضيفه، في حفل التكريم، بالتاريخ الذي يُعيد كتابة تاريخ الأدب المعاصر، وبالإنسان الذي فتش له عن مُبغض فلم يُفلح؛ ثمّ قدّم الفقيه الدكتور ميشال كعدي الضيف الكريم بكلمة أدبية راقية. كما كانت كلمة للشيخ جوان حبّيش، رئيس بلدية مدينة جونية، نوّه فيها بالمُكرّم، في حضور رهطٍ من رجالات الأدب والشعر والفنون، وكلمة للمُحتفى به. وتمّ، أخيراً، تسليم شهادة الاستضافة والتكريم من نعمان إلى كميد، كما جرى نخبُ المناسبة، تخلّله توزيع مجلّد "سياحات مع الأدباء والشُعراء والفنانين" هديةً إلى الحاضرين، بالإضافة إلى التوزيع المجاني التقليدي لآخر إصدارات دار نعمان للثقافة.

وفي ما يلي كلماتُ كلٍّ من الدكتور ميشال كعدي، والشيخ جوان حبّيش، والمُحتفى به، والتي سبقَ ونُشرت من ضمن كتاب "لقاء الأربعاء"، القطاف الثاني (٢٠٠٩-٢٠١٠)، عن دار نعمان للثقافة

الأديب جان كميد: نفّاح العطايا

كلمة الأديب الدكتور ميشال كعدي.

جئتُ اليومَ لأشهدَ أمامكم على ملكوتيّة الغارِسِ في أرضِ المعرفة، والتراث الطويل.

جئتُ لأشهدَ للأديبِ والمفكّرِ والإنسانِ جان كميد.

هذا الذي أصوغُ فيه اللّيلةَ بيني وبينه تواصلٌ يشدُّه الحرفُ واللفظُ والعبارة، وما يُنزّلُ على ولائمِ الرّيشةِ والرّصفِ، وإذا النتاجُ يُنورُ على يراعتِهِ. على أنّ القولَ يُنتزعُ من مجدٍ لُغةِ الضّادِ، وحَبّاتِ اللؤلؤ، والمشاعرِ، ومعاناةِ الحالِ، أمّا القلمُ فينزفُ من مُخبّأتهِ على الأقوالِ الفصاحِ، ومُفادِ التراكيبِ، تحتَ

مُجْهِرِ الْبَصَرِ الَّذِي تَشْتَبِكُ أَسْلَاكُهُ لَتَتَرَصَّدَ الْجَمَالَ، وَصَفَاءَ الْمَلْمَحِ، وَإِذَا التَّوْفِيَةُ وَسَطَ الْإِشْرَاقِ وَالنُّورِ، وَسِمَانِ الْمَعَانِي.

بيني وبينَ جانٍ كَمِيدٍ أَكْثَرُ مِنْ قَرَابَةٍ.
قَرَابَةُ أَخْلَاقِيَّةٍ، وَأَدَبِيَّةٍ، وَرَاءَهَا الرِّسَالَةُ الَّتِي كَانَتْ لِلأُدْبَاءِ وَالْمَوَالِيدِ، وَأَنَاقَةِ الْكَلِمِ فِي الْمَرَاصِدِ الْعُرْمِ، وَشُمُولِ الثَّقَافَةِ الَّتِي مَا كَانَتْ إِلَّا انْفِلَاتًا وَشَيْلًا صَوَّبَ الْمُنَابِرِ، وَقَدْ قُلْتُ فِيهِ غَيْرَ مَرَّةٍ: "أَلَيْفُ الْوَقَفَاتِ هَذَا" مَا تَبَكَّمَ عَلَيْهِ نَطَقٌ، وَمَا اسْتَغْلَقَ عَلَيْهِ قَوْلٌ.

الأديبُ كَمِيدٌ.
لَا يُشَارِطُ، لِأَنَّهُ مِنَ الْكُتَبَةِ الَّذِينَ لَمْ تُشَبَّ كَأْسُهُمْ بِمِزَاجٍ. وَهُوَ كَنَازٌ يَدَّخِرُ لِلْحَقِّ مَشْعَبًا، وَلِفَهْمٍ مَدْعَاةً، وَلِلْعِلْمِ أَهْدَافًا وَأَبْعَادًا.

يَعْرِفُ كَيْفَ يَتَنَاوَلُ كَلِمَتَهُ،
وَيَعْرِفُ الْمُكْتَنَزَاتِ الْمَلَأَى بِالْفَوَائِدِ، فَيَعْجُنُهَا بِالْمَسْكِ وَالْأَفَاوِيهِ، وَالْبَخُورِ، ثُمَّ يَغْمِسُهَا فِي الْبَلَسَمِ الْمَكِيِّ، حَتَّى تُتَقَى وَتُطَهَّرَ مِنْ بَغَايَا الْأَفَافِ.
أَكْسِيئُهُ مَطْيَبَةً، دَخَنَهَا بِالصَّمُوغِ الْعَطِرَةِ، ثُمَّ وَظَّفَهَا لَتَكُونَ فِي خِدْمَةِ الْمَحَبَّةِ وَالرَّوَاءِ، حَتَّى بَاتَ فِي جَنَّةِ النَّثْرِ مَكْنُوزِ الْعِنَاقِيدِ، أَمَّا الشَّعْرُ فَأَبْقَى مِنْهُ عَلَى شَفَتَيْهِ طَعْمَ الْقَرَابِينِ، وَعَلَى أُنَامِلِهِ تَلْمُسُ أَقْلَامٍ ذَبِيحَةٍ.

الأديبُ جانٍ كَمِيدٌ.
نَفَاحٌ كَثِيرُ الْعَطَايَا.
نَوْلُهُ سَمَحٌ كَرِيمٌ.
يَهْوُدُ بِكَ نَحْوَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، وَإِذَا الرَّجُلُ يَتَرَفَّقُ فِي عَدِّ الْأَحْرَفِ، وَيَتَنَظَّرُ فِي اللَّهْوِ وَجَرَ الْمُفْرَدَاتِ.

يُغْرِيكَ بِنَهْمِهِ فِي الْقِرَاءَاتِ الطَّوِيلَةِ، عَلَى أَنَّ مَا سَمِعْنَاهُ مَرَّةً وَهُوَ يُحَاضِرُ إِلَّا
شَعَرْنَا بِتَوْهَجِ الْوَجْدِ وَالصِّدْقِ عَلَى مَحْيَاهُ، ثُمَّ يُعِيدُنَا إِلَى الْجِدَّةِ وَمَأْلُوفِ بَيَانِهِ،
وَلَمْ النَّدَى وَالْحَبَبِ عَنْ طَفَاحَاتِ الْأَفْدَاحِ.. بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَنَاقَةِ الَّتِي تَمُرُّ عَلَى
النَّحْتِ الْمُتَرَفِّ بِالدَّفْعِ، وَحَمَى الشُّوقِ، وَجَمَعَ الْأَصَابِعِ عَلَى الْبَرِيقِ.

صانعُ الوشي هذا..

يُحَرِّكُ الْعَاجَ بِزَرْفِ الدَّمِّ، وَكَذَحِ الْأَعْصَابِ وَالْعُرُوقِ، فَيَتْرَكُ نَتْفًا مِنَ الْكَبِدِ
وَالنَّبْضِ الَّذِي يَتَلَمَّسُ الْوَرَقَةَ الْمُشْبَعَةَ بِخَبِيءِ النَّيَاطِ، حَتَّى إِذَا خَلَصَ مِنَ التَّعَبِ
اسْتَبَدَلَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا بِالْفَرَحِ، وَيَبْقَى عَلَى الصَّفَحَاتِ فِعْلُ الْإِيمَانِ بِالْعَمَلِ، وَضَنَى
الصَّنِيعِ.

هذا الْمُبْدِعُ فِي هَيْكَلِ الْإِبْدَاعِ لَهُ عَلَى نَسَقِ الدُّرِّ طَرَاوَةٌ، وَدُمُوعُ شَمُوعٍ، وَارْتِفَاعُ
رُوعَةٍ وَابْتِهَالٌ.

لهذا الْأَهْوَجُ حِكَايَةً طَوِيلَةً مَعَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

مِنْ مَهْمَاتِهِ الْغَبُّ مِنْ مَعِينِهَا، وَالْأَخْذُ مِنْ دُونِ اكْتِفَاءٍ. فَهُوَ لَا يَرْتَوِي مِنْ شَمِّ
زَهْرَةٍ، وَإِنَّمَا تَرَاهُ تَيَّاهَا عَلَى قَامَاتِ الْوَرْدِ، وَعَتَقِ الْخَوَابِي، وَيَتَحَكَّمُ فِيهِ غَيْرُ
مَجَسَّةٍ حَارَّةٍ وَرُوضٍ، فَتَلْمَحُهُ يَتَوَقُّ إِلَى تَمْزِيقِ حَوَاسِّهِ الْخَمْسِ وَيَعُودُ كَمَا
الْفَرَّاشَةُ فِي خَفَّةِ الْجَنَاحِ الْمَذْهَبِ.

جان كميد،

نَحْنُ، فِي دَارِ نَعْمَانَ لِلتَّقَاةِ، مُشْتَاقُونَ لِسَمَاعِكَ، وَمُشْتَاقُونَ لِلْجَمَالِ تَحْمِلُهُ إِلَيْنَا
فِي آخِرِ هَذَا النَّهَارِ.

إِنَّا دَائِمًا قَبْلُ وَبَعْدُ فِي نَشْوَةِ الشَّمِيمِ مِنْ قَوْلِكَ.

إِبْدَاءً، وَلَكَ الشُّكْرُ مِنِّي، وَمِنْ مُسْتَمْعِيكَ، وَمِنْ هَذَا الدَّارِ.

في حضرة أدبك

كلمة رئيس بلدية جونية الشيخ جُوان حبيش.

ماذا عساي أقولُ في حضرة أدبك، وشاعريّتك،
وقلمك، وكتبك؟

ماذا عساي أقولُ في ظلّ عطفك،
ومحبّتك، وأخلاقك؟

ماذا عساي أقولُ في ثنايا صفحات تاريخك المُشرّف،
وحاضرك الزّاهر؟

أقول:

شكراً لأنّك شرفّنتني بالكلام،
شكراً لأنّك زدّنتني معرفة،
شكراً جان كميد لأنّك،

في عجقة هذا العصر، حيث كدّ الإنسانُ لتخريب بيئته وتلويثها ماءً وتربةً
وهواء، فكراً وتربيةً وأخلاقاً، فتبدّلت المفاهيمُ وتغيّرت المناخات وضاعت القيمُ؛
لأنّك، في ظلّ هذه الفوضى،

لا تزالُ تسعى لوضع الأمور في نصابها، بالاستمرار في تنقيف النفس والجسد،
بتجديد الفكر وتطويره، وبإبراز القيم بالأدب والتصرّفات والكلمات والتواضع.

أنت، جان كميد، صاحبُ فضلٍ على مجتمعنا،
بالتزامك تجاهنا على نحوٍ دائمٍ ودؤوب،
بتقافتك الحاضرة منارةً في مدينة العلم، جونية،
وبلد الأرز، لبنان.

وجهًا لوجه مع الأدباء والشعراء

كلمة المكرّم الأديب جان كميد.

وُلدتُ أديبًا محترفًا في يوم من أيام شهر كانون الأول عام ١٩٥٤. ففي الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم، وكان الطقس ممطرًا، قُرع باب بيتنا، وكان الطارق سائق سيارة رئيس معهد الرسل.. يدعوني، لأمر طارئ، إلى مقابلة رئيس المعهد ومديره.

إرتديت ثيابي على عجل، وكنتُ قد تهيأت للنوم، وذهبت بصحبة السائق لأجد، في مكتب الرئيس الأب ساسين زيدان، فضلًا عنه شخصيًا، مدير المعهد الأب بولس نجم، وشخصين أحدهما صديق حميم لي، والثاني لا أعرفه.

جرى تعريف أحدهما بالآخر: الأديب الأستاذ نقولا قربان. أمّا رفيقه الصديق الحميم فكان الأستاذ أمين زيدان نسيب رئيس المعهد، والأديب الذي كانت بيني وبينه وشائج وثيقة منذ عهد التلمذة، وقربى عقلية وروحية.

فُتح الحديث مباشرة، وكان الموضوع اعترام معهد الرسل إصدار مجلة أدبية تُسند رئاسة تحريرها إليّ.. بمعاونة الأديبين الحاضرين. فكانت مفاجأة جاءتني على غير انتظار. ولم ينفع طلبي مهلة للتفكير، بل أُجبتُ بأنّ القرار متّخذ، وما استدعائي إلّا لإبلاغي إيّاه.

عرفت في ما بعد أنّ رئاسة تحرير المجلة كانت ستؤول، بصورة طبيعية، وعن كمال استحقاق، إلى أمين زيدان، وهو أديب رفيع الثقافة وريّق العبارة، وفي كتابي الذي سيُهدى إليكم في نهاية هذا اللقاء مقال هو مقدّمة لأحد مؤلفاته. ولكنّ "الأمين" كان من أرباب التعليم الرسمي، أي موظفًا في الدولة، ممّا يمنع عليه قانونيًا تعاطي عمل آخر، أمّا نقولا قربان فلم يكن من خريجي معهد الرسل، بل جاء به أمين زيدان، وكان يزامله في التعليم، لكونه ذا خبرة في العمل الصحفي، في حين كانت إدارة المعهد تريد أن يكون محرّر مجلتها من أبناء

الرسل، هذا إلى كون نقولا قربان معلماً رسمياً أيضاً. فما كان من أمين زيدان إلا أن أشار على القيمين على المعهد بتوليّتي أنا رئاسة التحرير، وأصرّ على ذلك رغم تمنع من قبلهم في البدء لخلاف سبق أن حصل لي مع الإدارة أثناء سنة دراستي النهائية. فكانت رعاية حق الصداقة من جانب أمين زيدان سبباً في إطلالي على عالم الأدب من الباب الواسع منذ البداية، فلم أمرّ بعهد نشوء كغيري، بل كنت ربّما أصغر رئيس تحرير لصحيفة وأنا ابن الرابعة والعشرين من العمر.

إنطلاقاً من المجلة، وقد دُعيت "الرسالة" اشتقاقاً من "الرسل" و"المرسلين"، تعرّفت إلى أكابر الشعراء والأدباء وأصاغرهم، ومرّت على صفحاتها أقلام كانت يومها طريّة العود، وغدا أصحابها من بعد أدباء مشهورين. وأسعفتني العلاقة الشخصية مع أرباب الأدب والشعر على أن أعرفهم عن كثب وليس عبر ما نقرأ لهم وما يحيط بأسمائهم من هالة في روع الناس، كما استطعت أن ألمس مواطن الضعف لديهم، سواء من الناحية الشخصية أو من الناحية الأدبية، وفي الوقت نفسه ما يمتازون به، وما يختزنون من رصيد لا تُسفر عنه دائماً كتاباتهم بل لا ينجلي إلاّ بالمعايشة والدخول في أعماق ذواتهم.

ولعلّ أطرف ما أسوقه إليكم من هذا القبيل هو ما كان يبدر منهم أو يندّ عنهم بالبداهة، فيُعطي صورة عن نفسياتهم وطبيعتهم الفطرية التي تختبئ عادةً تحت ستار ضرورة التكيف مع قواعد المجتمع ومراعاة أصول التعاطي والتعامل.

لقد سنحت لي رفقة طويلة مع الشاعر الكبير بشارة الخوري - الأخطل الصغير، وتوثقت العلاقة لكونه صديق والدي أصلاً، حتى كان يأبى أن أناديه إلاّ "عمّي بشارة"، أمّا هو فيناديني: "يا إبنّي يا جان". كان الأخطل الصغير باطنياً، إذا صحّ التعبير، في علاقاته العامة، لا يُظهر ما يُضمر، أمّا في مجالسه مع المقربين إليه، وفي طليعتهم الشاعر توفيق ابراهيم والمحامي الأديب أنطون قازان وأنا، فكان صريحاً جداً، يُبدي آراءه وإن جارحة في الأدباء والشعراء

والسياسيين. وكان ذا حساسية خاصة تجاه الشاعر أحمد الصافي النجفي، إذ يجتمع كلاهما مساءً في بار الحاوي الكائن تحت سينما روكسي في ساحة الشهداء ببيروت، وفي هذه البناية كان أيضاً مكتب الأخطل الصغير. وكان لكل من الشاعرين شلّته من المعجبين، فيتكرز الأخطل الصغير إذا واحد من شلّته جالس الصافي يوماً، وهكذا يفعل هذا الأخير بالمقابل، ويختير كلاهما الشخص بالانضمام إلى هذه الشلّة أو تلك، فإذا اختار إحداها امتنعت عليه الثانية، وإذا خالف الشرط وجلس مع هذه الأخيرة احتاج إلى وقتٍ طويل لاسترضاء زعيم شلّته وغفرانه له. وقد تلقّيت مرّة تحذيراً من الأخطل إذ جلستُ لبرهة مع الشاعر الصافي الذي لم يكن بوسعي تجاهله وهو الذي ينشر قصائده في مجلّتي.

وكان شويعرون كثيرون يحومون حول الأخطل يريدون إسماعه قصائدهم ويتمنون أن يظفروا منه بكلمة إطراء. وبعضهم كان ذا مركز في الدولة أو في موقع ذي أهمية، فكان الأخطل، إذا كان له مصلحة مع أحدهم ورأى قصيدة له منشورة في إحدى الصحف، يقطع هذه القصيدة من الصحيفة ويضعها في جيبه، فعندما يلتقي به يقول له: "قرأت لك قصيدة رائعة، وها أنا، لشدة إعجابي بها، أضعها في جيبك لأداوم على استعادة قراءتها"، فينتشي صاحبنا بشهادة الأخطل الصغير بشعره ويغدو طوع يده يحقق له ما يريد.

أمّا الصافي النجفي فكان أصدق ما قيل في شعره ما كتبه الدكتور سهيل إدريس في مجلة "الصيد" تعليقاً على أحد دواوينه: "شعر الصافي يُعجب، ولكنه لا يُطرب". وهذا هو الواقع، فالفكرة عند الصافي ممتازة، واللّمع المعنوية متوفرة، والصورة جميلة لطيفة، إلّا أنّ هذا الشعر مرسل على السجّية، نابع من الفطرة دون أية روتشة، ومن هنا أنّه يأتي طبيعياً لم يخضع لتسويات، ويقول الشاعر في هذا الصدد: "أنظم الشعر كما يأتيني فلا أتصرّف به أيّ تصرّف من بعد". ولكن ذلك ما جعله يفتقد السكب الفنّي وحسن التنسيق، وحتى لا أكون قاسياً

عليه كما كان سهيل إدريس قلت له يوماً: "شعرك لا هو بالشعر ولا بالنثر، إنه كآيات القرآن الكريم التي ليست شعراً بالمعنى التعريفي للشعر، ولكنها ذات هلهلة شعرية لم يعرفها النثر العربي حتى في أروع تجلياته". فرضي الصافي بهذه الصفة لشعره، وفسرها بأن شعره إذاً فوق الشعر وفوق النثر كآيات الكتاب المبين، في حين أنني لم أكن أقصد إلا أن شعره ليس فيه تلك الحلاوة التي يتلذذ بطعمها قارئ الشعر، ولكنه في الوقت نفسه ليس فاشلاً شعرياً لأنه يحتوي من مقومات الشعر شروطاً أساسية.

شيخ الأدباء النادرين في تلك الفترة كان الأستاذ رثيف خوري: أديب شديد الاعتداد بنفسه، ذو سخرية لاذعة لا يوفر أحداً منها. دُعي مرة للمشاركة في ندوة حول كتاب صدر لأحد المؤلفين في الفلسفة، فسأل من هم المشاركون في الندوة، وعندما عدتهم له، وكلهم من الأدباء والاختصاصيين الكبار، علّق على ذلك بأن الجنازة حامية والميت...، وتعرفون بقية المثل. وقد قبل رثيف، في النتيجة، بأن يشارك في هذه الندوة ولكن من منطلق النقد والمعارضة سلفاً وقبل أن يطّلع على الكتاب، وإذ سأله مدير الندوة افتتاحاً: "ألم تسمع يا أستاذ رثيف بالكتاب الذي سنتناوله الآن والذي أحدث صدوره ضجة كبيرة في الأوساط؟" أجابه رثيف هانراً: "لا لم أسمع، أنا صاير سمعي ثقيل هالمدّة".

إلا أن رثيفاً كان جدّياً تماماً في ما يتعلّق بتوجهاته الفكرية وآرائه، التي كان صريحاً جداً في إبدائها ولو انعكس ذلك سلباً عليه. كنت مرة في حديث عنه مع الشيخ فؤاد حبيش، صاحب "دار المكشوف" التي كانت تنشر لرثيف مؤلفاته، فقال الشيخ فؤاد إن رثيفاً جنى على نفسه وخسر منابر تعليم كانت تدرّ عليه ما يكفيه للعيش بسبب إعلانه الصريح عما يؤمن به ويعتقد بصوابه، وفعلاً لقد أفقده ذلك مقعد تدريس الأدب العربي في المعهدين الكبيرين اللذين كان يتولّى تعليم هذه المادة فيهما، وهو ما كان مورده الوحيد إلى جانب ريع مؤلفاته.

وما قاله فؤاد حبيش لفت نظري إلى طبعه هو شخصيًا الذي كان يختلف عن طبع رجال الفكر بوجه عام، وهو لم يكن مجرد ناشر بل كان كاتبًا ومتفكرًا كبيرًا؛ فإنه لم يكن داعية لأفكاره بين الناس كما يكون عادة المفكرون وأصحاب الأقلام. كان يحتفظ بآرائه لنفسه ولا يهمله، كزملائه الذين يشعرون بأنهم أصحاب رسالة، أن يُشرك الغير بها، فلا تجنح به نزعة إصلاحية أو رغبة في الهداية إلى نشر أفكاره وإحلالها في معتقدات الناس. فقد قال في معرض تعليقه على صراحة رئيس خوري: "أنا لي كرئيف آراء في ما هو على الأرض وفوق الأرض وتحت الأرض، ولكنني لست مضطرًا لأن أفضي بها لغيري وأجلب جميع الناس إلى موقفٍ". وهكذا يشذ بعض رجال الفكر أحيانًا عن الاتجاه العام لأمثالهم، فلا يكون تفكيرهم إلا لأنفسهم وليس لسكبه في مجرى الفكر ليكون أحد روافده.

وعلى سيرة فؤاد حبيش وآرائه في بعض أصدقائه الأدباء أقول إنه روى لي عن الشيخ عبدالله العلابي ما يدل على طبائع فريق من المستغرقين في الحقل الذي ينصرفون إليه حتى ليشبّه بهم عن متطلبات الحياة التي لا بد منها. قال: "إنَّ الشيخ عبدالله كان متوجهًا مرةً إلى أحد المصارف لقبض حوالة مالية، وفي طريقه التقى بأحد معارفه الذي انتهز فرصة لقائه به ليسأله سؤالاً لغويًا. وكان الشخص لا يطمع بأكثر من جواب مقتضب، ولكنَّ الشيخ راح يستفيض في شرح المسألة ويردّها إلى أصولها وإلى آراء الكوفيّين والبصريّين حولها والرجل يصغي إليه خجلًا من مقاطعته احترامًا له، حتى فات الوقت على دوام المصرف، وعندما نُبّه الشيخ إلى ذلك عاد أدراجه إلى بيته مكتفيًا بلقائه هذا الدرس على قارعة الطريق.

ومن مجالي عقلية اللغويين التي يمثّلها الشيخ عبدالله العلابي خير تمثيل أنّه كان يرفض ما يسمّيه كلماتٍ مجلوبة أي دخيلة على اللغة، ويريد المحافظة على التعبير اللغوي الصحيح والأصلي للمعنى المقصود. من ذلك، في عرفه، أن

كلمة "مواطن" ليست هي التعبير الصحيح عن مؤداها بل إنّ المفردة اللغوية المختصة بهذا المعنى هي "مُقاطر". وهنا حبكت النكتة مع أحد المستمعين إليه فقال له: "أنت يا شيخ مفخرة من مفاخر هذا الوطن، فما رأيك بأن يُقال: "الشيخ عبدالله العلايلي مُقاطرٌ فذٌّ؟" (بدلاً من مواطنٍ فذٍّ)، فتنهّد الشيخ من أعماقه وقال: "بالنسبة إلى ما تعنيه يا ريت...".

ومن نواحي الشطط عند الأدباء أيضاً ما أرويه عن الدكتور فؤاد افرام البستاني في موقفٍ يعبر عن كيفية انحدار رجال الفكر أحياناً إلى مستوى التفكير الشعبي، تفكير العامة من الناس. فالمؤرخ الدكتور محمد علي مكّي راح يكتب في مجلّة "الرسالة" سلسلة مقالاتٍ تاريخية عن عهد حكم الأمراء في لبنان، واجداً في الأمير فخر الدين المعني باني دولة بالمعنى الصحيح، وسائراً في حكمه على نهجٍ شديد، وقائماً بانتفاضةٍ استقلاليةٍ حقيقيةٍ ضد الحكم العثماني، في حين لم يكن للأمير بشير الشهابي مثل هذه المآثر على الصعيد الوطني، بل صرف همّه إلى تصفية أعدائه الداخليين، واسترضاء الولاة الأتراك، ووالي عكا أحمد باشا الجزار، بدفع الأموال الباهظة لهم التي يُثقل بجمعها كاهل الشعب. فقامت قيامة الدكتور البستاني على هذا النيل من الأمير بشير، وكل حجّته أنّ لبنان ليس له في تاريخه أبطال كثيرون كغيره من الدول، بل هم أفراد معدودون كفخر الدين وبشير ويوسف بك كرم، وإذا فلا يجدر بنا أن نحطّ من شأن أحدهم لأنّه لم يكن يجاري زميليه الآخرين، بل علينا أن نُبقّيه على الصورة المرتسمة له في الأذهان. فنقلنا هذه الحجة، التي تتجنّى على العلم والمصادقية التاريخية، إلى الدكتور مكّي وانقطع عن إكمال سلسلته.

ومثل أصحاب المراجل والقبضايات كان الشاعر بولس أسعد الشرتوني في موقفٍ له من الأديب المحامي أحمد سويد عندما كتب هذا الأخير قصة في "الرسالة" جعل اسم بطلها "ابن الشرتوني" دون أن يكون في قصده نسبته إلى العائلة الحقيقية التي تحمل هذا الاسم والتي ينتسب إليها الشاعر بولس، بل

مجردَ إسمٍ وهميٍّ صدف أن انتقاه هكذا. ولم يكن الدور الذي لعبه "إبن الشرتوني" في القصة مشرفاً، فنارت ثائرة إبن الشرتوني الحقيقي على ما اعتبره إهانة لعائلته وطلب اعتذاراً علنياً من كاتب القصة على صفحات المجلة وإلا فسوف يلجأ معه إلى العنف والأذى الجسدي. فتداولنا في المسألة في إدارة المجلة.. وقرّر رأينا على نشر توضيح في العدد التالي بأن القضية كانت مجرد خطأ مطبعيٍّ من منضد الأحرف الذي لم يُحسن قراءة الإسم الذي هو "الشلتوني" في الواقع لا "الشرتوني" وانتهت المسألة عند هذا الحدّ.

سيد الغرابات والغرائب بين الشعراء كان غابي اسكندر الحداد، وله من أنواع الشذوذ طرائف لا تُحصى أذكر لكم واحدة منها:

كان يعاون الشاعر الزجليّ خليل قرداحي في تحرير مجلة زجلية، وكانت مجلة متواضعة لا يحصل صاحبها على إعلانات لها إلا بشقّ النفس. ومرة أراق خليل ماء وجهه للحصول على إعلانٍ يخصّص له صفحة الغلاف الأخير كاملة لقاء.. خمس وعشرين ليرة. لكنّ غابي تسلّم هذا الإعلان وابتسره جاعلاً إيّاه ثلاثة أسطرٍ فقط وضعها في زاوية من إحدى الصفحات الداخلية. ولمّا رأى خليل قرداحي ذلك طار عقله مع طيران الخمس وعشرين ليرة عليه، ولكنّ غابي قال له: "أنا محلّك أطلب مئة ليرة لقاء هذه الأسطر الثلاثة لأنّ مجلّتنا أهمّ من نيويورك تيّمس".

بعودتنا إلى السخر والتهمك عند الأدباء نجد أمامنا الساخر والمتهمك بامتياز الشاعر جورج جرداق. كان إذا أراد أحدهم أن يُسمعه شيئاً من شعره أو كتاباته يقول له: "أحسن ما تسمّعي، بتضلّ فكرتي عنك أفضل"، فكان السائل يفضح نفسه إذا أسمع جورج شيئاً من نتاج قلمه.

ومرّة قال له أحد المتأدّبين: "متى أستطيع أن أراك؟"، أنا أكون في هذا المقهى دوماً ما بين الساعة الخامسة والسابعة مساءً، فأجابه جورج: "عظيم، وأنا أكون هنا ابتداءً من الساعة السابعة والنصف"، أي بعد انصراف صاحب العلاقة.

أمّا نقولا قربان، زميلي في تحرير المجلة، فكان على مثال جورج، ويمكنني أن أقول: "ربيّه" وهو مواطنه المرجعيوني. جاء مرةً لزيارتنا في المطبعة التي كنا نطبع فيها المجلة الأديب الطالع أنسي الحاج للتعرف بنا، وكنت أنشر له ما يرسله للمجلة رغم اعتراض نقولا وجورج. وكان أنسي عند ذاك مُرخياً لحيّة صغيرة، فالتفت إليه نقولا قربان وقال: "مقالتك ليس لها لحيّة"، أي لم تبلغ حدّ النضج، فوجم أنسي وانصرف.

وكانت المجلة تتلقّى قصائد شعريّة موقّعة باسم محمّد حسين فضل الله، وهو اليوم العلامة السيّد محمّد حسين فضل الله، فأنشرها له على امتعاضٍ من نقولا. ومرةً زار الأديب عبد اللطيف شرارة رئيسَ معهد الرسل ومديره وبصحبه النائب في حينه والوزير سابقاً علي بزّي، وهو خال محمد حسين فضل الله، وكان نقولا قربان حاضراً. فأبدى علي بزّي إعجابه بالمجلة وسأل: "بماذا نستطيع أن نخدمكم؟"، وقبل أن يجيب الرئيس أو المدير على سؤاله تنطّح نقولا قربان ليقول له: "أتريد أن تخدمنا؟، قل لابن أختك ألا يرسل لنا شعراً".

وأذكر أنّه، بعد مدّة طويلة على احتجاب "الرسالة"، وكان محمّد حسين فضل الله قد أصبح ما هو عليه اليوم، كان نقولا قربان في زيارة لي أخذنا نتذكّر فيها أيّامنا في المجلة، فقلتُ له: "أتعلم أنّ محمّد حسين فضل الله الذي طلبت من خاله علي بزّي أن يوقفه عن إرسال شعره لنا هو نفسه اليوم العلامة السيّد محمّد حسين فضل الله، صاحب ديوانين من الشعر احتفت بهما جميع الأوساط الأدبيّة؟"، فاستغرب نقولا قربان ذلك وقال: "أصحيح هذا؟"، فأجبتّه: "كان يجدر بك ألا ترسل أحكاماً مسبقةً كما فعلت أيضاً مع أنسي الحاج وها أنت تعترف اليوم بأنّه كاتب كبير".

وهناك كاتب قصصيّ نشأ نشأةً متواضعةً في البدء، فلم يدخل مدرسةً، وعمل سنكرياً، مجتهداً في التعلّم على نفسه وتمرين قلمه حتى أجاد الكتابة وتسلّم رئاسة تحرير مجلة ثقافيّة عقائديّة. فكان إذا ذكر أمام نقولا قربان كمثالٍ على

العصاميّة، على الإنسان الذي يصنع نفسه بنفسه ويرتقي من حرفته الوضيعة إلى تولّي رئاسة تحرير مجلة، يقول جواباً على ذلك: "ولكنّه ما زال سنكرياً في الأدب".

هذه آراء الأدباء بعضهم بالبعض، وأنا شخصياً لست ضدّ النقد، بل ضدّ الانتقاد على هذه الصورة، وقد انصرفت بالدرجة الأولى إلى الكتابات النقدية التي لم أكن فيها مدارياً حين تقضي الأمانة للحقيقة بقول الكلمة الصادقة ولو جاءت في غير مصلحة صاحب الأثر المنقود. أمّا السخرية والتهكّم فلم أستسغهما يوماً ولم أجرب أن أسلك مسالكهما.

وسوف تجدون في الكتاب الذي تفضّلت "دار نعمان للثقافة" بإصداره لي، وهو في النقد الأدبيّ والفنيّ بكليّته، آراء سلبية وإيجابية.. لم أغمط فيها حقاً ولم أُعطِ أحداً أكثر من استحقاقه، غير مدّع العصمة عن الخطأ، ولكنّ ما صدر عنيّ يعكس رأيي الضمنيّ الذي عبّرت عنه بصراحة دون مداجاة ولا تحامل. فلم أقل غير ما أضمر، ولم يطفّ على لساني إلّا ما جال في جناني، شاكرًا لدار نعمان، ممثّلةً بصاحبها الأديب الرهيف الأستاذ ناجي نعمان، إصدارها، وطبعها قريباً ديواناً شعريّاً لي هديّة منها عن الجائزة التي نلتها من ضمن "جوائز ناجي نعمان الأدبية الهادفة" للعام ٢٠١٠، وهي "جائزة الأديب متري نعمان للدفاع عن اللغة العربيّة وتطويرها"، هذا الأديب والشاعر الكبير الذي خدم الأدباء والشعراء حيّاً ويخدمهم الآن ميّتاً رحمه الله، وشاكراً لشيخ أدبائنا الأستاذ الكبير الدكتور جميل جبر استهلاله الكتاب بمقدّمة حلّ فيها الاكتناز محلّ الإطالة، والرأي الصادق محلّ المجاملة، ولمضيفنا الأستاذ ناجي كلمته الافتتاحيّة الناضحة بالعاطفة الأخوية، وأنا وإياه نستظلّ أبوة متري نعمان، وللصديق ذي العبارة المجنّحة الدكتور ميشال كعدي كلمته التي جاءت كعادته من حاليات الكلّم، وهي من نتاج قلمٍ مجوّد. ويقصر الشكر عن إيفاء فضل النقيب الكبير

الأستاذ ملحم كرم الذي شرفني بحضوره، والنقيب الكبير الأستاذ محمد البعلبكي الذي تفضل بإيفاد الأستاذ إبراهيم الخوري، الصحفي والكاتب اللامع، لتمثيله في هذا اللقاء. وإنني لأكبر بوجود حضرة رئيس بلدية جونيه الشيخ جوان حبيش، وبالكلمة التي غمرني فيها بمحبته وتقديره، وهو الذي أفسح في قصره البلديّ للنشاطات الأدبية والفنية التي يعلو بها شأن هذه المدينة. كما أكبر بحضور الأب مروان ثابت، القيم على التربية والتعليم في المدارس الكاثوليكية.. يعطيها من عقله ومن روحانيته السامية.

وأما النخبة الكريمة الحاضرة فإنني أشكر إقبالها على هذا اللقاء وصبرها على الاستماع إليّ، متمنياً لقاءاتٍ مستمرةً بيننا على دروب الأدب والفكر والسعي إلى التكامل الإنسانيّ.

الأديب الناقد جان كميد

كلمة الأديب أنطون قازان

من أدب الرسائل

نشرت في مجلة الرسالة عام ١٩٥٥
وفي الجزء الأول من المجموعة الكاملة لأنطون قازان

كلمة الشاعر الدكتور فوزي عطوي

في المهرجان التاسع ليوم الثقافة

نادي لا جوكوند الثقافي الاجتماعي، القصر البلدي، ذوق مكايل
الثلاثاء ٣ حزيران ٢٠٠٣

كلمة الأديب أنطون قازان

أخي جان،

قبَّلْتُكَ في كتابك، وقد حملَ إليَّ كثيرًا من صفاتك وعاطفتك، وأنتَ مَنْ أرتاحُ إليه ساعةً تنفِرُ النَّفْسُ من كلِّ شيءٍ؛ وفي هذا الارتياح، بمفهومه العالي، ما يسمو على كلِّ صداقة.

أخي، قد تنتظمُ بين روحين، لأوَّل وهلة، أو مع الأيام، روابطٌ عميقة تأتي بإحساسٍ غامضٍ جميل، لا هو بالصدِّاقَة، ولا هو بالأخوة، إنما هو، على الأقرب، نَسَبٌ روحيٌّ عميقٌ يشدُّ روحين إحداهما إلى الأخرى، فتأنسان على وحشة الدُّنيا، وتلهوان على همومها. وقد يبلغُ هذا النَّسَبُ بالروحين حدَّ الوحدة، فتلتقي الأذواقُ، وتمتزجُ الإحساساتُ، ويتَّحدُ الرَّأيُ، فإذا مفاهيمُ الجمالِ واحدة، وإذا النَّظَرُ إلى الأدبِ والفنِّ واحد، وكذا النَّظَرُ إلى الدُّنيا.

وما أروعُ أن تحسَّ بما أحسَّ، وترتاحَ لما أرتاحُ إليه، وتنفِرَ ممَّا أنفِرُ منه. وما آنسَ أن تطلَّ عليَّ وأنا في دوارٍ من الدُّنيا، أَلَبَّ شَفَتَيَّ عن لا شيءٍ فيها، وما أحوَجَ المرففاتِ من الأرواحِ إلى مرففاتِ شقيقاتٍ تُلوي عليها ساعةً تنفِرُ حتى عن حاملها.

ساعاتُ العمر، تلكَ التي يَصِفو بها المرءُ عمَّا حوَّلَه، فينعتق من كلِّ مفهوم، ويعلو على كلِّ اعتبار، وتنتفتح عيناه على كنه الحياة، وتنفذ بصيرته إلى أعماق الدُّنيا، ويشعر عندئذٍ بأنَّ ما يلهو به النَّاسُ غير ما تبييتُ عليه الحقيقة.

وما أحوَجَ المرءَ، عند ساعاته تلك، إلى مَنْ يشاركه هذا الصِّقاء، ويقاسمه هذه الغبطة في الرُّوح، فلا تستأثرُ بهما نفسه على أنَّها سمحاء، والنَّفْسُ كريمة تصغرُ لديها حتى المثلى من اللذات.

أَوَلَمْ تَكُنْ أَيْضًا حَاجَتَهُ أَيَّامَ الْكَرْبَةِ؟، سَاعَةً لَا يَفْهَمُهُ أَعَزُّ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَيُؤْلَمُونَهُ مِنْ حَيْثُ يُوَدُّونَ مُؤَانِسَتَهُ، وَيَجْرَحُونَهُ مِنْ حَيْثُ يَبْغُونَ ضَمَدَ الْجِرَاحِ؟ وَكَأَنَّ الْإِنْسَانَ، إِذْ يَبْلُغُ بِهِ السَّأَمُ ذُرْوَتَهُ، تَتَبَدَّلُ مَفَاهِيمُهُ، وَتَخْتَلِفُ مَقاييسُهُ، فَإِذَا هُوَ بِأَمْسٍ الْحَاجَةِ إِلَى مَنْ يَفْهَمُهُ، وَمَا أَقَلَّ مَنْ أُوتُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ.

وَبَعْدُ، فَالشَّوْقُ إِلَيْكَ كَبِيرٌ، وَلَقَدْ أَوْجَعَنِي أَنْ يَعْشَقَكَ الْفَرَّاشُ هَذَا الْعَشَقُ، فَلَا يَدْعُكَ تَقَلُّتُ مِنْهُ حَتَّى يَشَدَّكَ إِلَيْهِ، فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَكُمَا.

أَمَّا لُحْجَةُ الْمِرَاسِلَةِ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، فَتَقُ، يَا أَخِي، أَنَّهُ يَطِيبُ لِي جَدًّا أَنْ أَقْرَأَكَ. وَلَنْ كُنْتُ مُقْلًّا فِي الْكِتَابَةِ كَمَا تَعْلَمُ، أَنْتَنِي عَنِ الْقَلَمِ، عَلَى فِرْطٍ وَلَهِي بِهِ، لِأَسْبَابٍ عَدِيدَةٍ أَهْمُهَا كَثْرَةُ الْأَشْغَالِ، فَعَلَى الْعَكْسِ، إِنَّنِي لَا أَعْفُ عَنِ الْقِرَاءَةِ لِحِظَةٍ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْمَوْضُوعُ شَقِيًّا.

وَأَمَّا الْقَصِيدَةُ^(١)، فَأَكْرَرُ عَلَيْكَ بِأَنَّهَا جَمِيلَةٌ، تَتَخَلَّلُهَا أَضْوَاءٌ وَأَضْوَاءٌ، وَهِيَ تَسْتَحِقُّ رِسَالَةً لَوْحَدَهَا، أَوْ اجْتِمَاعًا قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، نَتَحَدَّثُ خِلَالَهُ عَنْهَا مُطَوَّلًا، وَعَمَّا أَنْزَلَهُ أَمِينُ نَخْلَةٍ مِنْ بَضَاعَةِ طَبِيبَةٍ إِلَى السُّوقِ. سَأَسْعَى جَهْدِي أَنْ أُوَفِّيكَ إِلَى الْقَلِيلَاتِ بِأَقْرَبِ وَقْتٍ، وَلَكِنْ دُونَ أَنْ أُحَدِّدَ لَكَ الْمَوْعِدَ.

أَشْكُرُكَ عَلَى رَأْيِكَ وَرَأْيِ الْأُسْتَاذِ بَبِيرِ نَجْمٍ فِي أَبْيَاتٍ "مِنْ وَحْيٍ عَازِفٍ" عَلَى أَنَّ الْعَاطِفَةَ طَغَتْ وَلَا شَكَّ عَلَى الرَّأْيِ، وَهَذَا يُفْهَمُ، فَالْعَاطِفَةُ أَمَّارَةٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِالسُّوءِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

تَشْرِينَ الثَّانِي ١٩٥٥

١ - قصيدةٌ للمُرْسَلِ إِلَيْهِ بِعَنْوَانِ "إِلَى رَبِيعٍ أَشْرَفَ عَلَى النِّهَايَةِ"، أُدْرِجَتِ فِي مَا بَعْدَ فِي دِيَوَانِهِ "أَضَعْتُهُ الْعُمَرُ" الْحَائِزِ جَائِزَةَ الْأَدِيبِ مَتْرِي نَعْمَانَ لِلدِّفَاعِ عَنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَطْوِيرِهَا، دَارُ نَعْمَانَ لِلتَّقَاةِ، نَيْسَانَ ٢٠١٠.

كلمة الشاعر الدكتور فوزي عطوي

معالي صاحب الرعاية وزير الثقافة الأستاذ غازي العريضي،
أيها الحفل الكريم،

أحمدُ الله العزيز القدير الذي أسبغَ عليَّ بركة الغبطة، وجنبني لعنة الحسد. فبالغبطة ترتوي النفوس فرحاً بآلاء الله، وبالحسد يصعبُ على مَنْ كان جحيمة في نفسه أن يبلغَ السعادة حتّى في ملكوت الربّ، كما يقولُ الإنجيل المقدّس.

وأحمدُ الله الذي أدبني بآداب السيّد الفادي إذ هتفَ بنا: "أحبّوا بعضكم بعضاً"، وبآداب الرسول الهادي الذي أوصى كلاً منّا بقوله: "إذا أحببتَ أخاك فقلْ له إنني أحبك". على أيّ، وقد برئتُ من نقمة الحسد فما أُسيغُ لنفسي إنكارَ نعمة الغبطة، ولا سيّما في هذا اليوم التكريميّ الرحيب الذي جننا فيه معاً إلى رحاب "نادي لا جوكوند" لكي نوثّق أسباب المودّة بين المكرّمين والمكرّمين، ولكي نتلو فعلَ الإيمان برسالة الوطن الحبيب لبنان الذي كانت المحبّة وستبقى، بإذن الله، على امتداد تاريخه التليد والطريف، لhmeً وسدّي في نسيج كيانه الحضاريّ العريق.

وها أنذا معترفٌ أمامكم بأنني أغبط، اللّيلة، جميع خطباء هذا المهرجان: أغبطُ الدكتور شارل رزق الله لأنّه تفرّد بجلاء جوانب الشخصية العلميّة والوطنية الفريدة التي يمثّلها معالي الصديق الوزير الدكتور جورج قرم. وأغبطُ الأستاذ وليد عبود لأنّه سيتولّى وحده، وبحكم موقعه الإعلامي والشبابي، إلقاء ضوءٍ جديدٍ على شخصيّة إعلاميّة مضيئة متمثلة في الأستاذ جبران تويني، الذي قد تشاطره رأياً، وقد تعارضه موقفاً، لكنك لا تستطيعُ إلا أن تحبّه قلماً يتسم بالحماسة والشجاعة والطموح.

وأغبطُ الدكتور أمين ألبرت الريحاني لأنه سيُمارسُ التخصصَ في عصر العولمة، وفي حساباته أنَّ الياس الرحباني يخصُّه وحده، بينما هو مُلكنا جميعاً، يأتلقُ بفنِّه الرفيع سادناً من سدنة الهيكل الرحباني الأصيل.

وأغبطُ الشاعر الفنَّان جوزف أبي ضاهر لأنه سيؤدِّي دورَه الرَّاقِي في الرسم بالكلمات، إذ يُتحفنا بعواطر أدبه عن الفنَّان التشكيليِّ الأستاذ جوزف مطر الذي توافرت له عبقريةُ القبض على مواكب الضوء ومسارب الظلال!

وما أحسبُ أنَّ حدسي يخيبُ آمالي بأنَّ إخواني الخطباء الذين أغبطهم جميعاً سوف يكيلون لي بالكيل الذي كلتُ لهم فيه، وسوف يدعون لي بأن يكون لي من اسمي نصيب، فينعدُّ لي "الفوز" في امتحان تكريم أخي وصديقي ورفيقي الأديب الناقد المُبدع الأستاذ جان كميد، الذي أحسنَ "معهد الرسل" يوم أسلسَ قياد مجلَّته "الرسالة" لهذا القلم المُبدع في الأنامل المُبدعة، أنامل صديقنا هذا.. الأديب الكبير.

معالي الوزير، أيُّها السيِّدات والسَّادة،

كان "ساحل علما" منبته البهيّ، من أب شاعر كريم الحسب هو فيليب كميد، ومن أم كسروانية شريفة النسب هي روزا الخازن، وكانت "حارة صخر" ملعب طفولته وصباه.

وبين انسراحة الذرى على أكتاف جونية التي ما همَّها من هدير البحر همّ، وبين اندياحة "معهد الرسل" عند السَّاحل الأفيح، نشأ جان كميد تلميذاً بالغ الجدِّ والجديّة. وكان الأديبُ الكبيرُ الرَّاحل الأستاذ جوزف الهاشم مديراً للدروس العربيّة في "معهد الرسل"، فأنشأ بين طلابه مسابقةً حول موضوع الهجرة، وهل تؤثرُ على الشباب المهاجر فيفقْدُ انتماءه الوطنيّ ويزوبُ في المجتمعات التي هاجر إليها؟

وكان جان كميد، يومئذ طالباً في صفّ "البريفه"، فأحرزَ المرتبةَ الأولى في المسابقة، متفوقاً في ذلك على طلاب الصفوف الثانويّة الثلاثة التي تعلو صفّه، فاستحقَّ عضويّةَ الجمعيّة الأكاديميّة في المعهد، وهي أشبه ما تكون بجمعيّة أدبيّة خطّابية، بعد أن كانت وفقاً على طلاب الصفوف العليا دون سواهم.

وما أظنُّ أنَّ جان كميد ذاقَ ما كان يذوقُه أترابه، وما قد نكون نحن ذقناه معهم، من أساليب التربية بقضبان الرمان، إذ لا يبدو من سيرته الذاتيّة أنّه تكاسلَ أو شاغب.. كما كنّا نشاغِبُ في تداول "السينيال" (le signal) الذي كان الدليل الدامغ على ارتكابنا "جريمة" التحدّث بالعربيّة، بل تمادى جان في جديّته حتى كان أصغرَ أديب ينشرُ مقالاً عن "فكرة العروبة ودعائهما" في مجلّة "الأديب" لمنشئها الشاعر الرّاحل الأستاذ ألبير أديب، وذلك في وقتٍ كانت فيه المصطلحات، بعدُ، غامضةً مبهمّة، أو قلُّ هلاميّة إذا شئت، ومثيرةً للجدل بين المنتمين إلى العروبة والعربيّة وبين المنكرين لمثل هذا الانتماء.

وما إن رستَ قدما الرجل في رحاب الجامعة، دارساً في كليّة الحقوق، حتّى استباه من الصّحافة الأدبيّة ألّفها ورونفها ورحابة أمدائها، ورسوخ جذورها في التربة اللبنانيّة العربيّة الأصيلّة، فترأسَ تحرير مجلّة "الرّسالة" التي كان في بال "معهد الرسل" جعلها نشرةً مدرسيّة، فجعلها جان كميد، ومنذُ أعدادها الأولى، مجلّة أدبيّة راقية لم تعدم أسباب منافسة رصيفاتها في دُنيا العرب، واستقطبت أقالماً ذات شهرة واسعة، وأقالماً غضة طريّة، كان من بينها قلّمي الذي يتلمّسُ الطريق، فيحبو ويكبو حيناً، ويشتدُّ ساعده حيناً آخر بفضل ما أفسحَ له جان كميد من مجالات لم تقفُ عند حدود "الرّسالة" بل تجاوزتها في ما بعد إلى مجلّة "الرحمة" التي أنشأها مع الرّاحل الكبير شفيق ضاهر رئيس "جمعيّة شبّان الرحمة"، ثمّ تحوّلت إلى "أصداء" لأسباب فنيّة وتقنيّة، رغبةً في عدم إضفاء أيّ طابع دينيّ ضيق عليها.

وتعودُ بي الذكرى إلى تلك المرحلة من ستينات القرن الماضي، التي شكّلت العصرَ الذهبيَّ في لبنان، فأذكرُ الندوةَ الثقافية التي استقطبتها "الرحمة"، ومن بعدها "أصداء"، وقد ذكرتُ عندما سلّمتُ أخي جان "درع الثقافة" نيابةً عن معالي وزير الثقافة في احتفال أقيم له في "مدرسة راهبات العائلة المقدسة المارونيّات" في ساحل علما أن كان من قسمتي أن أحظى بعضوية تلك الندوة، وأن أدعى أحياناً إلى اجتماعات "جمعية شبّان الرحمة" في رأس النبع؛ وكم يهزّني الآن، كما كان يهزّني منذ البداية، إصرار المجتمعين، وكلّهم مسيحيّون مؤمنون ممارسون، على أن أتولّى، أنا المسلم الوحيد بينهم، إفتتاح الجلسة بتلاوة إصحاحات من الإنجيل المقدّس، وبهذا تجددت السنّة القديمة التي أرساها الخوري فيليب واكد، راعي كنيسة مار يوسف في حارة حريك، عندما كان يعهدُ إلى تلميذه، والذي خليل عطوي، بتلاوة الإنجيل في قدّاس كلّ يوم، أو بقراءة فصول من رسائل القديس بولس الرّسول إلى أهل كورنثية.. وبارك يا سيّد!

وإذا كان الشيءُ بالشيء يُذكرُ فإنّي استميحُكم، وأستميحُ أخي الكريم، عذراً إن فتحتُ مزدوجتين وذكرتُ أنّي نشأتُ على هذا النهج الإيمانيّ المتمسك بوحدة الأديان السماوية منطلقاً وهدفاً، إذ كنتُ أحصلُ في معهد الفرير في فرن الشباك على أعلى علامة في التعليم المسيحي Cathéchisme والتاريخ الديني Histoire religieuse، حتّى إذا ما قرّرَ "الفرير الزائر" le frère visiteur، الذي كان يجولُ على مدارس الفرير حيثما وُجدت في العالم، إستئذاناً والذي بتسفييري إلى فرنسا لإكمال دراستي بمنحة من مدرسة الفرير، نظراً لتفوّقي في الدراسة، لأنّ والديّ رحمهما الله وكادا أن يُعلّنا موافقتهما لولا أنّ جدّتي مارستُ على العائلة سياسة "الهيمنة" التي عُرِفَت عنها وتشبّنت بي، وخبأتني في البيت سبعة عشر يوماً، خوفاً من أن أعودَ إليها وأنا "الخوري فوزي عطوي"!

ومن طريف الصّدَف أن أعودَ فأُكَمِّلَ دراستي العليا في فرنسا وأعودَ بدكتوراه الدولة في الحقوق، متنازلاً عن لقب "الخوري" الذي أقضَّ مضاجعَ جدّتي رحمها الله.

أعودُ الآن، أيّها السيّدات والسّادة، إلى جان كميد الذي مضى في موكب الإبداع الثقافيّ أدبياً وناقداً وشاعراً ومشاركاً في المؤتمرات والندوات، وفي المجالات الثقافيّة التي رعاها برفقة مجموعة من العاملين والعاملات في الميادين الثقافيّة والاجتماعيّة، وفي طليعتها مجلّة "الإرشاد الاجتماعيّ" التي سرعان ما نجحَ جان في تجنيدي عضواً عاملاً في ندوتها الأدبيّة الرّاقية كما جندَ عدداً من الأدباء المبدعين كان في طليعتهم الفنّان جوزف أبي ضاهر شريكنا في هذا المهرجان.

وكان جان كميد، على الدّوام، مذكياً شعلّة المنافسة بين الأدباء والشعراء، حتى أنّ مجموعتي الشعريّة: "ألمهمة"، التي تضمّنت مطارحات انعقدت بيني وبين الشّاعر الفنّان الرّاحل الدّكتور شبيب خوري الذي كان رئيساً لديوان وزارة الدّفاع ثمّ مديراً عاماً لها، إنّما يعودُ الفضلُ فيها إلى الأديب البارِع الذي أوَقَدَ نارَ الشّاعريّة في ما بيننا، وقَدّمنا في ما بعد في أمسية شعريّة مشتركة في "مجلس كسروان الثقافيّ"!

ثمّ إنّ جان كميد، الذي أُلْعَ بأعلام الأدب المعاصر، ولا سيّما من اللّبنانيّين المهجريّين، أصدر من مجلّة "الرّسالة" أعداداً ممتازة خاصّة عن كلّ من: جبران خليل جبران، وعمر فاخوري، والياس أبو شبكة، وأمين الريحاني، وخليل مطران، وفوزي المعلوف، وإيليا أبي ماضي، كما أصدر أيضاً من مجلّة "الرحمة" أعداداً ممتازة خاصّة عن كلّ من: رُئيف خوري، وأمين الريحاني، وميشال نعمة، فكانت تلك الأعداد الخاصّة مراجعَ هامّة، بل مصادر موثوقة للدراسات الأدبيّة المعاصرة، وكان من حُسن حظّي أن أسهمَ في تحرير معظم تلك الأعداد - الوثائق.

على أن جان كميد، الذي انعقدت أوثق الصلات، عياناً أو جناناً، بينه وبين أدباء لبنان والبلاد العربية والمهجر، قد جسدَ الوفاء بأسمى معانيه، إذ كان لا يفوت فرصةً تسنحُ له إلا وينوّه بهم وبمؤلفاتهم النثرية والشعرية، وينشرُ لهم ما كانت تخطّه أقلامُهم، ولا سيّما الأشقاء العرب الذين كانت تضيقُ مساحات النشر في صحف بلادهم، فتجدُ الأفقَ الفسيحَ في صحف لبنان ومجلّاته، وفي دُور نشره ومكتباته. وأذكرُ من أولئك الأعلام: أحمد الصّافي النجفي، بدوي الجبل، سليمان العيسى، مطاع صفدي، جورج صيدح، نظير زيتون، وديع فلسطين، عبد الوهاب البياتي، عيسى الناعوري، حارث طه الراوي، كمال نشأت، سعد صائب، زكي المحاسني وزوجته وداد سكاكسني، ياسين رفاعية، عدنان الداعوق، عبد الخالق فريد، محمد يحيى الهاشمي، وغيرهم.

وبمقدار ما أنصفَ جان كميد إخوانه الأدباء والشعراء، فبمقدار ذلك أيضاً ظلّمَ نفسه ظلّماً فادحاً، إذ لم يسعَ إلى نشر كتاب يضمُّ إبداعاته نثراً وشعراً، عُذْرُه في ذلك أنّه يأنف من السّعي إلى ناشر لإقناعه بإصدار شيءٍ من كتاباته، متأسياً بالحكمة القديمة القائلة: "إنّ طالبَ الولاية لا يُؤلّى"، ضارباً عرضَ الحائط بالتصويب الذي كنتُ أجريه شخصياً على تلك الحكمة إذ أجد في هذا العصر "أنّ طالبَ الولاية لا يُؤلّى سواه!".

على أنّي لا أريدُ أن أبخسَ الوفاء حقّه، فأذكرُ أنّ جان كميد أنتجَ، بالاشتراك مع أختينا الغالية السيّدة نوال بجّاني، عملاً موسوعياً رائعاً من خمسة أجزاء تتنافسُ رَقّةً وأدباً وجمالاً، حملت العناوين التالية: روزين، وجانين، وشيرين، ونادين، وكلودين جان كميد!

ولقد عربَّ جان كميد عدداً من المؤلّفات الفرنسية التي أصدرتها "المنشورات العربية" في باريس بإشراف الأب كورون اليسوعي، ومنها:

- النمو الاقتصادي La croissance économique

- اللاوعي L'inconscient

- الديجولية Le gaulisme

- الثورة الروسية La révolution russe

كما أوجزَ مسرحيةَ طاغور "الزنايق الحُمر" التي عربّها الكاتب السعودي أحمد عبد الغفور العطار وقَدَّمَ لها محمود تيمور، فلَمَّا انتُقِدَ المعرَّبُ بدعوى ركَاكة لغته أجابَ على صفحات الجرائد السعودية بما حُرِفِيته: "إنَّ التعريب، لو كان ركيكاً، لما كان جان كميد، وهو أديبٌ عالمي، إهتمَّ بتلخيصه".

وأحسبني، وإن أُطُلْتُ، مُلْزَمًا بإيجاز بعض ملامح هذه الشخصية الإنسانية والأدبية الفريدة أمامكم:

لقد عاشَ الرجلُ متواضعًا يزدهيه عبْقُ البنفسج ولا يستبيه صخبُ الضوء المصطنع، حتى أنَّ بعضَ مَنْ يعرفُه أديبًا متميزًا لا يعلم أنه عاشَ سحابةَ عمرٍ مديد، بإذن الله، مستشارًا ثقافيًا في وزارة الدفاع الوطني، والآن في رئاسة الجمهورية.

ولئن يُكُنْ التطوُّع، في المجال الثقافي والإنساني، رسالةً تُحتذى، فقد كانَ جان كميد، وما يزالُ، ذلكَ المتطوِّعُ الرساليُّ الذي لا يطلبُ في ما يؤدِّيهِ جزاءً ولا شكورًا. لكنّه كانَ وما يزالُ أيضًا يكره، كما أكره، تهميشَ أيِّ كانَ لأيِّ كان، ولا سيّما تهميشَ أصحاب الكفاءات لأصحاب الكفاءات، فإذا ما وجدَ متطوِّعًا يزورُ عن دوره في خدمة المجتمع والوطن سمعته يردّدُ قولَ أبي الطيّب المتنبي:

إذا ترحّلتَ عن قومٍ وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحمون همُ

وإذا ما رأى حاسداً يسعى إلى احتلال مكانة ردّد قول خليل مطران:
 أُخْلِي مَكَانِي لِلَّذِي يَسْعَى إِلَيْهِ بِغَيْرِ حُزْنٍ
 وإذا ما لامست وجدانه حماقة كاتب موتور ردّد قول الشاعر القروي رشيد سليم
 الخوري:

وهوّن عندي السبَّ أَنْ لِبَعْضِهِمْ زَغَالِيلَ أَطْفَالاً تَعِيشُ عَلَى سَبِّي

وفي يقيني أنّ جان كميد الذي عاشَ ويعيشُ في تواضع البنفسج يدركُ قسوة
 الصِّراع غير المتكافئ بين الإمكانيات والطموحات، ولكنه مع ذلك لا ينساقُ
 لليأس أو الإحباط في مجال تحقيق الأهداف والأمنيات الكبار، متمثلاً أيضاً بقول
 المتنبي:

أريد من زمني ذا أَنْ يُبَلِّغَنِي ما ليس يبلغه من نفسه الزمن!

ولقد أحبَّ جان كميد اللّغة العربيّة والتراث العربيّ، ودافعَ عنهما دفاعاً غير
 مسبوق. وقد تجلّى ذلك في مقالاته وخطبه ومداخلاته الكثيرة، حتّى إذا شاركَ
 كلاً من الدكتور سهيل مطر والشاعر هنري زغيب في الدعوة إلى مؤتمر "اللّغة
 العربيّة إلى أين؟" الذي انعقد يوم السبت في ١٥ آذار ٢٠٠٣ في "جامعة سيّدة
 اللويزة"، وكان لي فيه شرف تقديم المحاضرة الأخيرة حول "تحديث التراث"،
 افتتح جان كميد هذا المؤتمر بكلمة عن لغة الضّاد إستهلّها بقوله: "على أيدينا
 استفاقت وانتعشت بعد سُبّات، فلن ندعها على أيدينا تموت"، واعتبر أنّ
 الإصرار على العاميّة لا ينالُ من وهج الفصحى أو من ألقها وجلالها، وأنّ
 الاعتناء باللّغات الأجنبية لا يستلزم، حتماً، إهمال اللّغة العربيّة الأمّ.

من هنا أنّا، يوم منحه شاعرنا الكبير الأستاذ سعيد عقل جائزته القيّمة في ٢٦
 شباط ٢٠٠٣ على "كلمة ملكة" نطقَ بها، وجدنا عبقرينا الشاعر يؤكدُ أصالته
 وعرافته في ارتياد آفاق الفصحى وفي سبر أغوارها.

أيُّها السيِّدات والسادة،

لعلكم تصوّرتُم، منذ البداية، أنني نسيتُ أن أغبِطَ دانةَ عقدنا اللؤلؤيِّ، هذه اللَّيلة، معالي الأخ والصديق الوزير الأستاذ غازي العريضي الذي يتميَّزُ بما تعرفونه من الإبداعات الثقافية والإعلامية، وبما يتَّصفُ به من المزايا الخُلقية والوطنية العالية.

لكنني، يا معالي الوزير، أغبِطُ نفسي على ما بيننا من أواصر الأخوة، معلناً لك أنني أغبِطُك على أدبك وخلُقك، وأدعو لك بالنجاح في موقعك الرياديِّ، مؤتمناً على الثقافة في هذا الوطن الغالي.

ويا أخي المكرَّم، في موكب الأخوة المكرَّمين والمكرَّمين!

في الثلاثين من أيَّار عام ٢٠٠٠ كنتُ أنتَ في مكاني مكرَّماً لي، وكنتُ أنا في مكانك مكرَّماً منك ومن "نادي لا جوكوند" الذي غدا رئيسه الصديق الأستاذ جوزف باسيل، وإخوانه الأحباء الأوفياء، نموذجاً للرياديين في إعلاء شأن الثقافة والمتقِّين.

يومذاك توجَّتْ هامتي بدرَّة فريدة من لآلئ بيانك، وشرفنتي باتِّخاذي أخصاً لك لم تلذه أملك.

فهل عساي، اللَّيلة، قد وفَّيتُ بعض الحقِّ نحوك؟، وهل أسعفتني محبَّتي لك على الارتقاء إلى مستوى أخوتك؟، أم إنني كنتُ كالعليق يشربُ على حجة ورودك؟! أرجو أن أكونَ قد وفَّيتُك بعض حقِّك، وأن أكونَ قد ارتقيتُ إلى سُدرة أخوتك، وسلامٌ عليك!

د. فوزي عطوي

ذوق مكابيل، الثلاثاء، ٣ حزيران ٢٠٠٣

جان كميد:
سيرة حياة

وُلد **جان كميد** في جونية (لبنان) بتاريخ ١٧ آب ١٩٣٠.

والدّه المحامي الشّاعر **فيليب الخوري كميد**، الملقّب بأديب المحاكم لبلاغة مرافعاته القانونيّة، وصاحبُ مكتبة حقوقيّة وأدبيّة شكّلت مرجعاً لكبار المحامين والأدباء الذين كانوا يقصدونها للاطّلاع والاستفادة من محتوياتها. والدته الشّيخة **روزا غالب الخازن**، سليلّة العائلة العريقة، وابنة "غوسطا العليّة"، وشقيقة الضّابط اللّامع والسّيّاسيّ الشّيخ **إميل الخازن**.

متزوّج من **نوال فرج بجّاني**، من الكحّالة، وله منها خمس بنات: **روزي**؛ **جانين**، زوجة ميلاد شلهوب، ولهما ثلاثة أولاد: صبيّان وابنة؛ **نادين**، زوجة المهندس فادي غريب، ولهما ابنتان؛ **شيرين**، زوجة سركيس كشاكجيان، ولهما صبيّان؛ **كلودين**، زوجة المهندس هادي كميد، ولهما ابنة وصبيّ يحمل اسم جدّه **جان**.

أنجز دروسه الثّانويّة في معهد الرّسّـل (جونيه)، ومدرسة القديّس يوسف (عينطورة)، وانصرف بعد ذلك إلى دراسة الحقوق في جامعة القديّس يوسف (بيروت)، إذ كان أهله يرغبون في أن يتابع مسيرة والده المحامي ويرث مكتبه المعروف. ولكنّ نزعتَه الأدبيّة كانت الأقوى لديه، لا سيّما وأنّه ترعرعَ في أجواء الأدب والفكر بين والده وزائريه من كبار الأدباء والمتّقين، لذلك ما إن دُعيَ لتولّي رئاسة تحرير مجلّة "الرّسّالة" الأدبيّة، وهو بعدُ في الباكر من العمر، حتّى انصرف إليها مُطِلاً من خلالها على لبنان والعالم العربيّ بدراساته

النقدية التي أحلته منزلة رفيعة في نظر الأوساط الأدبية وعادت عليه بالتقدير، حتى أنه لُقّبَ بـ "سانت بوف" العرب.

بعد "الرسالة" ترأس تحرير مجلتي "الرحمة" و"أصداء" الأدبيتين، كما شارك في فترات متفاوتة بتحرير مجلات "الصياد" و"الإداري" و"الجندي اللبناني"، وجريدة "الشرق الأوسط" الصادرة في لندن، ثم غدا مديراً مسؤولاً لمجلة "كسروان" ورئيساً لتحرير "مجلة بلدية جونية".

شارك في تأسيس "مجلس كسروان الثقافي" وتولّى الشأن الأدبي والإعلامي فيه، ثم أصبح نائباً لرئيسه.

هو حالياً رئيس جمعية "أهل الفكر"، كما أنه من قدامى أعضاء نقابة محرري الصحافة اللبنانية، وعضو مجلس أمناء "ديوان أهل القلم"، وعضو استشاري في "الملتقى الثقافي لتتورين وجبيل"، ومن خلاله في "تجمع البيوتات الثقافية في لبنان"، وأيضاً عضو اللجنة التحكيمية لجائزة الأب الشهيد بطرس أبي عقل.

صدر له عن دار نعمان للثقافة، عام ٢٠١٠، كتاب "سياحات مع الشعراء والأدباء والفنانين"، وديوان شعري بعنوان "أضعته العمر" (سلسلة "الثقافة بالمجان")، وله أربعة كتب مترجمة عن سلسلة "ماذا أعرف؟"، صدرت عن "المنشورات العربية"، هي: "النمو الاقتصادي"، "اللاوعي"، "الديغولية"، "الثورة الروسية".

عمل في الحقل العام محلاً وخبيراً لغوياً في "مكتب الدروس والخطط" بقيادة الجيش، وهو المكتب المعتبر "دماغ الجيش"، إذ كانت تصدر عنه الدراسات والتحليلات المعمّقة في المواضيع العسكرية والإستراتيجية والتقنية والأمنية، ثم أصبح من أركان مديرية التوجيه التي أوفدته، عام ١٩٨٠، من ضمن بعثة إلى باريس للتخصّص في تحرير المجلات العسكرية، وبعدها انتقل إلى مكتب وزير الدفاع الوطني، ثم إلى مكتب قائد الجيش، كمسؤول إعلامي، وآخر

منصب شغلَه في الوظيفة كان مستشاراً ثقافياً في المديرية العامة لرئاسة الجمهورية - مكتب فخامة الرئيس.

يحملُ وسامَ الأرز الوطني من رتبة فارس،
ووسامَ "العمل الإنساني" من رتبة كومندور من "المنظمة الإنسانية العالمية" في مدينة "ليل" بفرنسا.

حائزٌ جائزة الشاعر سعيد عقل،
وجائزة متري نعمان للدفاع عن اللغة العربية وتطويرها،
و"درع الثقافة" من وزارة الثقافة والتعليم العالي،
و"درع قيادة الجيش (مرتين)،
و"درع اتحاد الصحافة اللبنانية" المؤلف من نقابتي الصحافة والمحررين،
و"درع المجلس البلدي لمدينة جونية (مرتين)،
و"درع نادي "لا جوكوند" الثقافي، مع الشارة الذهبية للنادي،
و"درع الملتي الثقافي في تنورين وجبيل" (جائزة جورج طربيه وجورج بدوي للإبداع)،

و"درع مؤسسة "مبادرات للإنماء"،
و"درع جمعية "أهل الفكر"،
و"شهادة الاستضافة" من "دار نعمان للثقافة" (جونيه) لدى تكريمها إياه في "لقاء الأربعاء" (صالون ناجي نعمان الأدبي الثقافي).

هذا، وأقيمت له عدة حفلات تكريمية لمناسبة نيله هذه الأوسمة والجوائز والدُّروع.

له في الإعداد ديوان شعر جديد، وعددٌ من الكتب في مختلف المواضيع الأدبية والفكرية.

المحتويات

٧	الجزء الأول: فكر وأبحاث.....
٩	لبنان والفكر.....
١٣	المحبة والنور الكاشف الظلمات.....
١٧	نحن في جنة مريم.....
٢٢	عظمة الفكرة وعبقريّة المصلح.....
٢٥	مع "الرّفص" كظاهرة جديدة.....
٢٩	آراء حنا نمر الاجتماعيّة في كتابه "الإنسان والجماعة".....
٣٤	الثقافة: مفهومها، وعلاقتها بالتربية والسياسة والحرب.....
٤٥	في رحاب اللغة- الأم.....
٥٠	المسمّيات وأسمائها.....
٥٦	اللهجة العاميّة في المنظار اللغوي.....
٨٣	الشفافية في العمل الإداري في الدولة.....
٩١	الإعلام في نظرة استعراضية شاملة.....
٩٦	الإعلام والرأي المجرد.....
١٠١	المسؤوليّة الإعلامية بين الأمانة للحقيقة والمصلحة الوطنيّة.....
١٠٧	الجزء الثاني: أدب، شعر، صحافة، مذكرات.....
١٠٩	الشاعر أمين ناصر الدين في ذكراه.....
١١٣	الدنيا والآخرة في قصيدة لبولس سلامة.....

- بين "مصرع بزرجمهر" لخليل مطران و"شمشون" الياس أبي شبكة..... ١١٧
- "الياس أبو شبكة شاعرًا وإنسانًا"..... ١٢٣
- لعلّها من نعم الله عليك..... ١٢٥
- واهب لا يكفّ، ودائن لا يستوفي..... ١٢٨
- السيفُ والقلمُ في اليد الواحدة..... ١٣٠
- في تكريم الشاعر خليل أئوب الحتي..... ١٣٣
- تموت في الحبّ، وتموت بدون حبّ!..... ١٣٥
- مُلهمةُ الشعّارين..... ١٣٨
- يتناوبان ولا يتباريان..... ١٤١
- لا زلفى ولا مجاملة..... ١٤٣
- "خمر الحنين" والوثبة الجديدة..... ١٤٥
- "من الشائع إلى الأصيل"..... ١٤٧
- مذكرات، لا بل تاريخ..... ١٥٠
- الخطابة في المحاكم..... ١٥٢
- غررٌ أضيفت إلى الشعر..... ١٥٤
- عندما رثى زكي المحاسني مهدي العبيدي حيًّا..... ١٥٧
- سعيد تقى الدين، الأديبُ السّاخرُ بامتياز..... ١٦١
- الوجه الآخر لشارل قرم..... ١٦٤
- الأخطل الصّغير صحافيًّا..... ١٧٠
- غابي حدّاد.. أو التناقض الشيق..... ١٧٤
- "الصورة" في عدسة جورج مغامس..... ١٨١
- "بين قلبي وربّي"، والشعرُ على قلم جورج مغامس..... ١٨٥
- ناجي نعمان: نفسٌ أسدلت عليها السّتائر..... ١٩٠
- هل يجفّ الأديب؟..... ١٩٣

جولات في آفاق الفكر والأدب

٣٤٧

- هدنة على الساحة الثقافية..... ١٩٧
- وأخيراً عرفَ ألبير أديب الإنصاف..... ٢٠١
- كان إطلالة أديبٍ واعد..... ٢٠٣
- رسالة إلى الدكتور جورج كلّاس..... ٢٠٥
- فوزي عطوي الشاعر..... ٢٠٨
- بيار نجم: شاعرٌ لا ينتسبُ إلّا إلى نفسه..... ٢١٠
- الغلبة على الموت..... ٢١٣
- أيلول والشموس الغاربة..... ٢١٦
- ديفا وآدون..... ٢١٩
- أسلوب يخلع السحر على كلّ ما يقول..... ٢٢١
- في تكريم جورج أبو سعدى..... ٢٢٣

- الجزء الثالث: وجدانيّات وجولات أفق..... ٢٢٥
- رسالة إلى أمين زيدان..... ٢٢٧
- إنسانيّة في المواسم..... ٢٣٠
- رياض حنين والذكريات الباقية..... ٢٣٢
- يدٌ يجري في عروقها الطيب..... ٢٣٤
- محاضرة الجيش اللبنانيّ: تاريخ ودستور..... ٢٣٦
- البابا في لبنان..... ٢٣٨
- جننا نوّدي له الشّهادة..... ٢٤٠
- راهب اللّيل أضحى فارس كلّ آنٍ وساعة..... ٢٤٢
- صدقت آية الحياة..... ٢٤٥
- هذا المشغل الفريد..... ٢٤٨
- في عيد المعلّم (١)..... ٢٥٠

- ٢٥٢ في عيد المعلم (٢)
 ٢٥٥ ساحل علما في مجال الثقافة
 ٢٥٧ شوق لم تتفع غلته
 ٢٦٠ ذهب الذكر وعاد
 ٢٦٢ غريقة فضل، وأسيرة عاطفة
 ٢٦٥ "قضايا التعليم والمدرسة الخاصة"
 ٢٦٨ السفير فؤاد الترك ولبنان الذي نريد
 ٢٧٠ والتراث أيضا ضحية القصف
 ٢٧٢ في تكريم أنطوان خويري لدى إهدائه وسامًا
 ٢٧٤ صخرٌ يجودُ بالماء
 ٢٧٦ ذات المدد السخي
 ٢٧٩ في ندوة مع ليلي العثمان
 ٢٨١ الأب شربل أبو خليل، مجموعة مواهب مكرسة لله
 ٢٨٢ في مأدبة رامز عازار
 ٢٨٥ الجزء الرابع: كلمات وداع
 ٢٨٧ عاشق الوهم.. صلاح لبكي
 ٢٨٩ ميشال نعمة في "انطلاقه" إلى غير عودة
 ٢٩١ الأخطل الصغير يودّع الحياة بعد أن ملأ الحياة
 ٢٩٣ القائد الذي أضحى شعارًا
 ٢٩٥ وجاءني الدليل/إلى أنطون قازان في عليائه
 ٢٩٧ بولس سلامة على خطى سابقه
 ٢٩٩ دياميس انقلبَت أعمارًا من النور

جولات في آفاق الفكر والأدب

٣٤٩

- ٣٠٢ في وداع جورج أبو سعدى
- ٣٠٤ تركت لنا إرثًا غاليًا

- ٢٠٧ رباعية جان كميد في دار نعمان للثقافة: مجلدٌ وجائزة وديوان وتكريم
- ٣١٠ الأديب جان كميد: نفاحُ العطايا، بقلم الدكتور ميشال كعدي
- ٣١٣ في حضرة أدبك، بقلم الشيخ جوان حبيش
- ٣١٤ وجهًا لوجه مع الأدباء والشُعراء، بقلم جان كميد

- ٣٢٥ الأديب الناقد جان كميد
- ٣٢٧ كلمة الأديب أنطون قازان
- ٣٢٩ كلمة الشاعر الدكتور فوزي عطوي
- ٣٣٩ جان كميد: سيرة حياة
- ٣٤٥ المحتويات

Jean Kmeid

Jawlatun

fi Afaqil-Fikri wal-Adab

Maison Naaman pour la Culture

Jawlatun
fi Afaqil-Fikri wal-Adab
جولاتٌ في آفاق الفكر والأدب

Mars 2011

© الحقوق محفوظة *Tous droits réservés – All rights reserved – Todos los derechos reservados*
Maison Naaman pour la Culture & Naji Naaman's Foundation for Gratis Culture *FGC*